شُكري المَبخوت

بَاغندَا

مكتبة
الفكر الجديد
24-11-2016

رِوَايَة

التنوير

شكري المبخوت

بـــاغـــنـــــدا

رواية

مكتبة الفكر الجديد

الكتاب: بـــاغـــنـــــدا / رواية
المؤلف: شكري المبخوت
عدد الصفحات: 240 صفحة

الطبعة الأولى: 2016
الترقيم الدولي: 978-9938-886-83-2
رقم الناشر : 16/410-90

جميع الحقوق محفوظة لدار التنوير ©

دار التنوير للطباعة والنشر

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

لبنان: بيروت – بئر حسن – سنتر كريستال، الهزيم – الطابق الاول –
هاتف : 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة–وسط البلد –19 عبد السلام عارف (البستان سابقًا) –
الدور 8 – شقة 82
هاتف: 0020223921332
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

مكتبة الفكر الجديد

شكري المبخوت

باغندا

رواية

شمس الحكاية

مكتبة
الفكر الجديد

نسيان باغندا. بدأت الحكاية على نحو مفاجئ، وانتهت بسرعة من دون أن أتمكّن من كشف خفاياها. انتهت إلى حين بسبب الظروف التي حفّت بها، لكنّني احتفظت بما جمعته عنها من وقائع مثيرة ومعطيات مهمّة وأخبار من مصادر متعدّدة متناقضة وأسرار أدخل بعضها الرعب في قلبي.

كان إحساسي بالقهر وتعطّشي لمعرفة الحقيقة قد دفعاني طيلة سنة تقريبا، إضافة إلى عنادي وبحثي عن سبق صحفيّ وأوهامي عن صحافة الاستقصاء، إلى الاشتغال على ملفّ الجوهرة السوداء في تاج كرة القدم التونسيّة «باغندا». كان عليّ أن أدوّن كلّ شيء بحسّ الصحفيّ الطموح الذي لم يصبح بعد صحفيًا محترفًا وبشغف طالب الحقوق المتخرّج حديثا وبالخصوص بحرص ابن الحيّ الذي ساءه ما آل إليه ابن حيّ آخر بعد مجد مذهل مدهش في دنيا الملاعب. فقد تربّينا، أنا وباغندا، في حيّين متجاورين ولعبنا ضدّ بعضنا في البطاح وكانت لي معه حادثة قد أرويها في ما بعد. لم تكن القضيّة بالنسبة إليّ أمرا صحفيًا ومهنيًا فحسب. لقد كان للدافع الذاتيّ دور في استقصاء ما حدث رغم قناعتي بأنّ النتائج التي قد أتوصّل إليها لن تُنشر في الصحيفة التي أشتغل فيها ولا في غيرها (وهو ما وقع بالفعل).

مكتبة الفكر الجديد

أهو جهد ضائع؟ قد يكون ولكنّني لم أكن وقتها أفكّر بمنطق الربح والخسارة ولا بحساب الجهد والمردود.

كان يمكن أن يضيع كلّ ما دوّنته عن قضيّة باغندا في أوراق اصفرّت بفعل الزمن وفي ملفّات كادت تهترئ وتتلف بسبب الرطوبة والإهمال. فحين انتقلتُ إلى بيتي بحيّ النصر في أواخر الثمانينات أتلفت أوراقا كثيرة جمعتها في أكياس سوداء كبيرة وأعطيتها إلى بائع المكسّرات في رأس نهج البرتقال بباردو حيث بيتي القديم. وكنت قد قرّرت أن أترك جزءا من كتبي وأوراقي وبعض الأغراض المهمّة في بيت العائلة في حيّنا بباب الجديد.

وها أنا أعود إلى ملفّ باغندا.

فتحتُ صناديق كنت أجمع فيها أوراقي ومقالاتي ورسائلي باحثا عمّا وضعته فيها من قصاصات منذ ما يناهز الخمسة عشر عاما فخرج باغندا من تلافيف الذاكرة كالنبتة الشيطانيّة. كان يسكن في كنّاشَين وكرّاس متوسّط الحجم دوّنت فيها ملاحظات عن قضيّة باغندا.

وها أنا أسعى إلى ترميم ذاكرتي وإعادة تركيب شتات من حكاية باغندا ولملمة نثار من قضيّة حُكم فيها بإسدال ستار من الصمت عليها وعلى ضحيّتها بعد أن مرّت، ويا للغرابة، من دون أن تثير، الشارعَ الرياضيَّ. فوقتها، أواخر سنة 1987، كانت البلاد تعيش حربا ضَروسا بين سلطة بورقيبة المتهاوية المتكئة على وزير الداخليّة زين العابدين بن علي وبين الإسلاميّين الذين توهّموا أنّ السلطة تناديهم وما عليهم إلاّ أن يقبضوا عليها.

واليوم لم يعد أحد يذكر الحكاية أو ربّما لا أحد يريد أن يذكرها. فقد انتحر باغندا المسكين قهرا بعد أن قتلوه تجاهلًا، ولو وجدوا سبيلا إلى محو اسمه من تاريخ فريق «الاتحاد التونسيّ» أو الفريق الوطنيّ أو تاريخ الرياضة في البلاد لفعلوا تكفيرًا عن ذنب يشعر به الجميع ولا يسمّيه، وتكفيرًا عن نذالة شارك فيها الجميع ولكن لا أحد اعترف بها.

مكتبة الفكر الجديد

حكايتي مع الصفحات الرياضيّة. كنت أعمل مصحّحا للأخطاء اللّغويّة في أكبر صحيفة فرنكوفونيّة في تونس. لم أفكّر يوما في أن أشتغل صُحفيّا وأنا خرّيج كلّيّة الحقوق. بيد أنّ البلاد، في أواخر سنة 1986، كانت تعيش أزمة خانقة. كانت على حافة الإفلاس يأكل لحمها البنك الدولي ويشرب دمها أخوه صندوق النقد الدولي وتنهش الأفاعي، داخل قصر «قرطاج»، البقيّة الباقية من مجد زعيم الأمّة. كنت كأبناء جيلي أنتظر فتح الوزارات للمناظرات كي أحصل على وظيفة. ولم يكن عملي مصحّحا في الجريدة إلّا من باب العمل الموقّت لتحصيل لقمة العيش، خصوصا أنّ «زينة» زوجتي الأولى قد التحقت بالتعليم حديثا ولا عائل لنا إلاّ بعض الأموال التي يرسلها لنا أخي صلاح الدّين من سويسرا.

ومن محاسن الصدف أنّ الرئيس المدير العام ورئيس التحرير أُعجب بعملي الدقيق في التصحيح وتصويب الأخطاء اللّغويّة. وقد صادف أن أصلحت له خطأ في إحدى الافتتاحيّات، وكان قليل الزلل، فعاند وكابر ثمّ أقرّ بصحّة ما فعلت. ومن يومها أمسيت أحتلّ في قلبه وعمله مكانة مميّزة بلغت مع الأيّام مرتبة الصداقة العميقة على غرابتها. إذ كنّا مختلفَيْن في المطامح والاختيارات. غير أنّ صداقتنا كانت متينة لنبل وسماحة يميّزانه لا مراء فيهما، ولصراحة وجرأة فيّ تعلّمتهما خلال حلقات النقاش السياسيّ بالجامعة.

بدأت العمل في تصحيح المقالات والتوقيع عليها قبل أن يوقّع عليها أبو السعود الحمزاوي الرقيب المخلص العارف بمصلحة النظام البورقيبيّ العتيد (ثمّ نظام بن عليّ صانع التغيير المبارك) أكثر حتّى من سي عبد الحميد التميمي الرئيس المدير العامّ. كنت أرخّص في النشر لأسباب لغويّة وهو يرخّص في النشر لأسباب تتعلّق بالمحتوى.

ولمّا كانت المكافأة على التصحيح اللّغويّ ضعيفة عمل سي عبد الحميد على مساعدتي بطرق مختلفة. عرض عليّ في البداية أن ألتحق

مكتبة الفكر الجديد

بالفريق الصحفيّ فرفضت، إذ كنت مازلت آمل في فتح المناظرات والدخول إلى الوظيفة العموميّة. ثمّ اقترح عليّ إعادة صياغة الأخبار التي تَرِد عبر «التلكسات» من «وكالة تونس إفريقيا للأنباء» وغيرها لتُنشر في صحيفتنا بأسلوب مخالف لما يُنشر في الصحف المنافسة. قبلت ذلك. وبعد مدّة اقترحتُ عليه فكرةً لم تكن مسبوقةً في صحفنا: أجمع الأخبار المتقاربة الواردة من مختلف وكالات الأنباء، بما في ذلك التونسيّة، لأصوغ مقالين بعنوان «تحليل إخباريّ» أحدهما في الشأن الوطنيّ والآخر في الشأن العالميّ، فقبل مسرورًا. وبعد نجاح التجربة وانبهاره بطريقتي في الكتابة ومقاربتي للأخبار اقترح عليّ من باب إثراء رصيدي الماليّ أن أكتب في موضوعات أختارها، مقالاتٍ بمقابل مُجزٍ.

كانت تجربتي الأولى في قسم قضايا المجتمع. ولم تدم إلاّ مقالين في أسبوع واحد. فقد كان أبو السعود الحمزاوي شديد الحساسيّة لكلّ نقد اجتماعيّ. وجد بحسّه الرقابيّ الرفيع أنّ التحقيق الذي أنجزته قد يُشتمّ منه النيل من البلاد واستقرار «المجتمع التونسيّ المتماسك»! على حدّ تعبيره.

غضبت غضبا شديدا، بيد أنّ سي عبد الحميد أفهمني أنّ مكافأتي مضمونة بقطع النظر عن النشر من عدمه وأنّ أبو السعود الحمزاوي حاكم بأمره مفوَّض من جهات عُليا في الدولة وما على الصحفيّين، طلبا للسلامة وراحة البال، إلاّ الانصياع لإرادته التي لا تُرَدّ. استوعبت درسي الأوّل في الصحافة غير راضٍ. فهمت بالخصوص أنّ المسألة لا تتعلّق، كما يقال، بحرّيّة الرأي والنقد فحسب بل حتّى بقداسة الخبر نفسه. فالرقابة تشملهما معا عملا بقاعدة: «ليس كلّ ما يُعرَف يُقال» والدليل أنّني في التحقيق الذي منعه أبو السعود الحمزاوي اكتفيت بتقديم الوقائع من دون تعليق.

انتقلت، عملا بنصيحة سي عبد الحميد، إلى الصفحات الرياضيّة. فقد كان يعتقد، مثلما كنت أعتقد، أنّ الرياضة هي المجال الذي يمكن

مكتبة الفكر الجديد

للمرء فيه أن يعبّر بحرّيّة بما أنّ الرهانات لم تكن كبيرة. فبطولتنا من البطولات الهاوية وأقصى أحلامنا عالميّا أن نشارك في بطولة إفريقيا، فإذا ترشّحنا أقمنا الحفلات وكتبنا المديح لسياستنا الرياضيّة الواقعيّة وحسن البرمجة والتخطيط، وإذا انهزمنا دعونا إلى التقييم ومزيد من العمل للارتقاء برياضتنا إلى مستوى الإمكانات التي رصدتها لها الدولة. أمّا وصولنا إلى كأس العالم، خصوصا بعد ملحمة مشاركة فريقنا الوطني في الأرجنتين سنة 1978، فهو إنجاز عظيم يتطلّب منّا سنوات لنسيانه. كان طموحنا الرياضيّ على قدر حجم البلاد على الخريطة، ومبدؤنا هو «احترام الروح الرياضيّة» و«العبرة بالمشاركة» لرفع الراية الوطنيّة في المناسبات الرياضيّة الدوليّة.

كنت مع سي عبد الحميد من محبّي النادي الإفريقيّ ولكنّنا لم نكن من المتعصّبين له ولا من المتابعين المثابرين على التقاط أخباره. كان فوزه يرضينا، ولم تكن هزيمته مصيبة تترك فينا أسفًا أو حزنًا. والواقع أنّنا قلّما تحدّثنا عن الرياضة عموما. أما بخصوص كرة القدم فكنّا نحبّ اللّعب الفنّيّ النظيف والإبداع الكرويّ والأداء الجميل. وهذا نجده في الدوريّ الإسبانيّ أو الأنجليزي ويندر أن تبلغ مقابلة بين فريقين تونسيّين درجة رفيعة من الإمتاع والفرجة.

أوصى سي عبد الحميد المشرفَ على الصفحات الرياضيّة في الجريدة بي خيرا. قدّم له الأمر على أنّه إثراء للرأي الرياضيّ في الصحيفة وطلب منه أن يخصّص لي عمودا مرتين في الأسبوع للتعليق على القضايا الرياضيّة.

والحقّ أنّ الـ«ر.م.ع»[1] لم يكن يهتمّ البتّة بالصفحات الرياضيّة ولا بالنقص في التعليق الرياضيّ. إنما همّه أن يجد لي أسبابا لا يناقشها

(1) ر.م.ع اختصار للرئيس المدير العام.

مكتبة الفكر الجديد

المسؤول عن الماليّة كي يدفع لي مقابل المقالات التي أكتبها. وهو في الحقيقة مقابل الافتتاحيّات التي أصبح سي عبد الحميد في مرحلة أولى يمليها عليّ قبيل إقفال الجريدة وتجهيزها للطبع، ثم كلّفني، في مرحلة ثانية، بصياغتها بأسلوبي بعد أن يحدّد هو موضوعها ومفاصلها الكبرى. وانتهى بنا الأمر إلى أن أوكل إليّ أمر كتابتها وحدي وفق توجّهات نفهمها معًا. وفي الغد يطالع الجميع الافتتاحيّات موقّعة باسم أجمل ريشة في الصحافة الفرنكوفونيّة في تونس، الصحفي اللاّمع سي عبد الحميد التميمي. والواقع أنّ هذا الاتفاق ظلّ ضمنيّا بيني وبينه. فقد أعجبتني لعبة تقمّص شخصيّة رئيس التحرير الموالي للنظام والتدرّب على اللّغة الخشبيّة التي كنت أسعى إلى أن أبزّ سي عبد الحميد نفسه في جعلها رائقة لا تخلو ممّا يبهرج سفاهتها. فلم يكن المحتوى عندي مربط الفرس بل الأسلوب ورَوْنق الخطاب. وهذا الانفصام بين الصورة ومضمونها هو ممّا تمنُّ به الأنظمة المستبدّة على كتّابها وصحافيّيها فيتعلّمون اختبارَ قدرة اللّغة على صناعة الكذب والتمويه والتدليس مع جودة العبارة وملاحة الأسلوب. فالكلمة كالكرة يركلها اللاعبون فتقبل منهم الركل مهما كانت قدرات اللاعب الفنيّة. ولكلّ نصيبه من اللّعبة بقطع النظر عن الأهداف المحقّقة.

أصل الحكاية. كان مساء يوم أحد، ولم يكن العمل يومها شاقّا. كانت البطولة متوقّفة وأغلب موادّ عدد يوم الإثنين تحقيقات ولقاءات صحفيّة ومراسلات جهويّة مُعدّة سلفا كنت قد صحّحتها قبل يوم أو يومين. وحتّى موادّ الملحق الرياضيّ ليوم الإثنين اقتصرت على تقييم للمباريات السابقة وبعض التحاليل الفنّيّة للجولات المنقضية مع إطلالات على البطولات الأوروبيّة وحوار مطوّل مع رئيس الجامعة التونسيّة لكرة القدم حول الجدل الذي كان دائرا على مشروع الانتقال

مكتبة الفكر الجديد

إلى نظام الاحتراف أو نصف الهواية، وكان يسمّى بنظام اللّاهواية، ومشاكل كرة القدم التونسيّة وكيفيّة استعادة مجد الفريق الوطنيّ بعد انحدار البطولة التونسيّة والخيبات المتتالية في الوصول إلى كأس العالم إثر المشاركة الأسطوريّة في ملحمة الأرجنتين. أذكر ذلك جيّدا لأنني أحتفظ إلى اليوم بنسخة كاملة من الصحيفة. وكيف لا أحتفظ بها بعد الضجّة التي أثارها ذلك العدد؟

حضرت إلى مقرّ الجريدة وأنا أحمل خبرا حصريّا عن باغندا. كنت متأكّدا ألّا صحيفة ستنشره قبلنا لأنّ صحيفتنا تصدر يوم الاثنين بترخيص خاص من وزارة الإعلام. أما بقيّة صحف يوم الاثنين فهي أسبوعيّة تكون جاهزة تقريبا منذ يوم السبت أو الأحد صباحا بحكم قلّة المطابع، بل إنّ بعضها يُطبع في مطبعة جريدتنا.

لمّا قدّمت إلى رئيس قسم الرياضة بالصحيفة نصّ الخبر الحصريّ ذهل وطلب من عمّ حسن، المشرف على الراقنين والمنسّق مع المصمّم والمطبعة، أن يصدر تعليماته إلى مصمّم الجريدة حتّى يضعه في أعلى الصفحة الأولى. فقد وجده، مثلما وجدته، خبرا مهمّا سننفرد بنشره وسيجلب القرّاء من المغرمين بالرياضة وحتى من غير المغرمين بها أيضا. إلاّ أنّه طلب منّي التريّث بعض الوقت في انتظار ورود «تيلكس» من وكالة تونس إفريقيا للأنباء. لقد تصوّر أنّ خبرا مثل هذا ستنقله الوكالة، ولا شكّ، حتى إن لم تعلم ببعض التفاصيل التي تحصّلت عليها حصريّا.

كنت قد ذهبتُ صبيحة ذلك اليوم إلى مقهى «الحاج الشمنطلّو» بباب الجديد كعادتي للقاء الأصدقاء والأحباب وأبناء الحيّ. فرغم ابتعادي عن باب الجديد منذ سنوات واستقراري بضاحية باردو، لم أقطع الصلة بالحيّ والأتراب. كانت زيارة أسبوعيّة أسلّم فيها على الحاج محمود والدي وأرى أخواتي البنات خصوصا يسر أصغرهنّ ووالدتي زينب. فقد اعتقدت أنّ بعض الاجتماعيّات، رغم أنني الحبّة السوداء

مكتبة الفكر الجديد

في بيدر بيت الحاج محمود كما تقول والدتي، لا تؤثّر في حرّيّتي التي اخترتها طريقا لي بعيدا عن نفاق العائلة وضغوطها.

كان الجميع في المقهى يتحدّث عمّا وقع لباغندا نجمهم المحبوب واللاّعب الموهوب وابن الحيّ المجاور الذي يفتخرون به وإن كان ينتمي إلى «الاتحاد التونسيّ» في حين أنّ أغلب أبناء حيّ باب الجديد من عشّاق «النادي الإفريقيّ». وباغندا نفسه من عشّاق النادي الإفريقي مثل جلّ أبناء حيّ «معقل الزعيم» وما جاوره. وعلى كلّ حال لم يكن الاتحاد التونسيّ فريقا يستدعي منّا ما يستدعيه فريق حيّ باب سويقة «الترجّي الرياضيّ التونسيّ» من تنافس وصراع يبلغ حدّ الكراهية المتبادلة.

تأسّف الجميع لما وقع، ووعد البعض بالثأر من باب الحميّة بين أبناء الأحياء المتجاورة. وبدأت التخمينات حول الفاعلين والدوافع والأسباب والمسبّبات. كنت أسمع معلومات متناقضة وكلّ يدّعي أنّ روايته هي الصحيحة. كلّ يتحدّث كما لو كان قد حضر الواقعة. هذا يتّهم جهات يسمّيها صراحة وذاك يصف الاختطاف وصفا دقيقا وثالث يزعم أنه اعتداء متعمّد ويفسّره تفسير العارف.

كنت أنصت إلى الجميع محاولًا أن أفهم فأقارن بين الروايات والحكايات لاستجلاء وجه من الحقيقة في ما يقال من المبالغات والمزايدات والادّعاءات. أستخرج الثابت والمتواتر وأسجّل في كنّشي الصغير الذي أصبحت أحمله معي في كلّ مكان، الاختلافات وحتّى المبالغات. ولولا مخافة الإطالة لأثبتّها هنا بعد أن وجدتها ضمن ملفّ باغندا الذي حافظت عليه.

ولكنّ أهمّ معلومة تلقّيتها في مقهى «الحاج الشمنطلّو» قدّمها لي صديق دراسة وابن الحيّ الذي يشتغل في وزارة الشباب والرياضة بديوان السيّد الوزير مستشارا مكلّفا بالتكوين والبرامج في التعليم العالي الرياضي. لقد أخبرني أنّه دُعي يومها، وهو يوم راحة أسبوعيّة، لاجتماع

مكتبة الفكر الجديد

طارئ مع الوزير لتدارس حادثة باغندا. وقد اعتبر الجميع في الوزارة، بناء على معلومات أمنيّة في ما يبدو، أنّ اختفاء باغندا ليس مجرّد حادث عاديّ بل هو حادث يحمل مؤشّرات عمل إجراميّ. وأكثر ما يُخشى هو أن تكون له أبعاد وتداعيات تتجاوز الحقل الرياضيّ. كان حديث المنصف الخزامي مليئا بالحيرة والتساؤلات بعد ما سمعه في ذلك الاجتماع الذي دام حوالي ثلاث ساعات خرج فيه الوزير عن طوره واتّهم الجميع، بما في ذلك الرجل الأوّل في الاتحاد التونسيّ رئيسه الشابّ الناجح عماد بلخوجة. كان اجتماعا عاصفا لم يتورّع خلاله رئيس الجمعيّة النافذ من الردّ على الوزير بحدّة متّهما إيّاه أمام الملإ بالخرف والهذيان مهدّدا بأن يرفع القضيّة إلى المجاهد الأكبر شخصيّا لأنّه لا يقبل التشكيك في ذمّته محتفظا بحقّه في محاسبته قضائيّا. ثمّ غادر الاجتماع من دون أن يستأذن من الوزير. ولم يكتف بذلك بل صفق باب قاعة الاجتماع بقوّة متمتما بكلام قد يُفهم منه سباب موجّه إلى الوزير وكلمات بذيئة نابية لا تليق بالمقام. وهذا ما أدخل الوزير في حالة هستيريّة فصرخ وعربد وخرج عن طوره ووقاره ليتلفّظ بألفاظ سوقيّة أمام الحضور وكان منهم رئيس الجامعة التونسيّة لكرة القدم ورئيس اللّجنة الوطنيّة الأولمبيّة التونسيّة علاوة على عدد من مديري الوزارة والمستشارين بديوان الوزير.

كنت قد علمت بهذا كلّه قبل التحاقي بمقرّ الجريدة. وحالما وصلت حرّرت الخبر وقدّمت الصيغة الأولى منه إلى رئيس قسم الرياضة سي عزّ الدين الجعايبي. أعجبه الخبر، سبقا صحفيّا وصياغةً، وخاطبني بفرنسيّته الصافية قائلا: «سيكون لك شأن عظيم في دنيا الصحافة يا ولدي». لكنّه فتح كنّشا متقادما وطلب منّي الاتصال بالكاتب العام لنادي الاتحاد التونسيّ وبرئيسَيْ فريق باغندا والجامعة التونسيّة لكرة القدم وبمدرّبيْ باغندا في فريق الاتّحاد وفي المنتخب الوطنيّ لمزيد استجلاء الحقيقة من الكاتب العام و أخذ ردود فعل البقيّة على ما حدث.

مكتبة الفكر الجديد

لم يشأ أحد من هؤلاء التكلّم. فالكاتب العام نفى الخبر جملة وتفصيلا. ورئيس الفريق علّق السمّاعة ما إن علم أنّني صحفيّ. ورئيس الجامعة أنكر علمه بما جرى بل نفى حصول أيّ اجتماع مع وزير الرياضة. أمّا المدرّبان فامتنعا عن الحديث زاعمَيْن أنّهما لا يملكان أيّ معلومات.

السبق الصحفيّ. غادر سي عزّ الدين يومها الجريدة حوالي السادسة بعد أن صادق على المقالات جميعا وطلب منّي انتظار ورود «تيلكس» من وكالة الأنباء التونسيّة لدعم موثوقيّة الخبر. لم يرد شيء رغم سؤالي المتكرّر لسكرتير التحرير الوحيد الذي يتلقّى «التيلكسات» ويوزّعها على الأقسام المعنيّة في غياب رؤسائها.

أتمّ حمّادي حجيّج المصمّم المبدع الصفحات الداخليّة والصفحة الأولى. اعتبر أنّه قد فرغ من عمله. رفض إدراج المقال عن باغندا رغم إلحاح عمّ حسن، فما بالك بالإعلان عنه في الصفحة الأولى. لم يكن يومها لطيفا معي كما عهدته وكان يكثر من احتساء المشروب الكحولي الذي لا يفارقه في قارورة معدنيّة يدسّها في جيبه. ولمّا ألححت عليه أجابني في صرامة: «لقد علّمتك التصميم فتصَرّفْ بما تراه». فتصرّفْتُ.

اخترت صورة لباغندا وضعتها على يمين الشريط الذي يتضمّن عنوان الصحيفة بحيث تلفت الأنظار، مصحوبة بعبارة «**ما ننفرد بنشره**». وكان العنوان جذّابا: «**بعد اختفائه المفاجئ: مَنْ يريد التخلّص من باغندا؟**». لم يكن من السهل عليّ أن أجد موضعا بارزا للخبر في الصفحة الأولى. استقرّ رأيي على التصرّف في أذنَيْ الجريدة[1]، في أحد الموضعين المحيطين بالعنوان. حذفت إشهارًا كان يتكرّر في كلّ عدد ونقلته إلى

(1) عبارة في عالم الصحافة منقولة حرفيّا عن الفرنسيّة يقصد بها الحيّزان الواقعان على يمين عنوان الجريدة ويساره.

مكتبة الفكر الجديد

الموضع الذي نسمّيه في عالم التصميم الصحفي «الحصان»[1] في الجزء السفليّ من الصفحة الأولى. بذلك بدت الصفحة الأولى أجمل وأجلب لانتباه القرّاء. زدت الأمر إبرازا مستعملا اللّون الأحمر الذي لا يحبّونه في جريدتنا. فهم يتوهّمون أنّ الجدّيّة والرصانة لا تكونان إلاّ باستعمال الأسود والأبيض. أمّا الألوان فهي لصحف«التبلويد» الشعبيّة صغيرة الحجم. ولكنّني في آخر لحظة استعضت عن الأحمر بالأزرق فهو على الأقلّ من الألوان الأوّليّة غير الفاقعة مثل الأحمر. كان ذلك بالنسبة إليّ لمسة فنّيّة تناسب السبق الصحفيّ رغم تحذيرات حمّادي حجيّج ونقمته على سخف صحافتنا وتصميمها واعتقاده الراسخ، وهو يعلّمني تقنيات التصميم، بأنّ أمر الجريدة لن ينصلح أبدا مهما زوّقنا ونمّقنا. إنّه مورد عيش لهؤلاء الحمقى الذين يسمّونهم صحافيّين مجازا. ورغم ذلك اعتقدت أنّ ما فعلته سيدخل البهجة على قلب سي عبد الحميد الذي يثق في قدراتي الصحفيّة.

كان عليّ أن اختار بين صفحة الحوادث وصفحات الرياضة. فما وقع يهمّ الصفحتين ولكنّني أصررت على أن يكون الخبر في بداية صفحات الملحق الرياضيّ وتُفْتَتح به. انتقيت من رصيد الصور المتوفّرة صورة كبيرة رائعة لباغندا وهو يقفز أعلى من مدافعي الفريق المنافس ليسدّد الكرة بالرأس في اتجاه المرمى. كانت صورة تدلّ على القوّة والرشاقة في آن واحد. وأدمجت داخلها في الجهة المقابلة صورة أصغر لباغندا راسما بيمناه علامة استفهام موجّها يده إلى مخاطب من المرجّح أن يكون حكم إحدى المباريات. عملت على أن تكون يد باغندا المستفهمة قريبة بصريّا قربا شديدا من الاستفهام الذي يتضمّنه العنوان («من يريد التخلّص من باغندا؟»). شذّبت الصورة وقصصت الزوائد فيها مستبقيا باغندا واقفا ويمناه تتّجه بعلامة الاستفهام.

(1) عبارة في عالم الصحافة منقولة حرفيّا عن الفرنسيّة يقصد بها الحيّز الواقع أسفل صفحة الجريدة.

مكتبة الفكر الجديد

كان عليّ أن أحذف مقالا متوسّط الطول يتحدّث فيه سي عز الدين الجعايبي (رئيس قسم الرياضة والمشرف على الصفحات الرياضيّة والملحق الأسبوعيّ) عن إنجازات عماد بلخوجة والهيئة المديرة للفريق وما حقّقاه في أقلّ من ثلاث سنوات من نتائج مبهرة غيّرت طرق التسيير وفلسفته في تونس المقدِمة على ضرب من الاحتراف يسمّى باللاّهواية. فكّرت أنّ هذا قد يغضب سي عزّ الدين ولكنّ السبق الصحفيّ سيرضيه ولا شكّ. فخير هذا بشرّ ذا.

أذكر أنّني أحسست لأوّل مرّة في حياتي بأنّني أتصرّف، في غياب المشرفين على الجريدة وفي غفلة من سكرتير التحرير، كما لو كنت رئيس التحرير أو على الأقلّ المشرف على الملحق الرياضيّ. أحسست كذلك، وهذا أهمّ عندي، أنّني أمارس الصحافة حقّا وأتمتّع بإنجازاتي في الميدان. وربّما كان مثل هذا الشعور ممّا شجعني في ما بعد على الالتحاق بالجريدة.

وأنقل هنا المقال الذي تضمّن الخبر عن باغندا مترجَمًا دون حذف أو زيادة:

«بعد اختفائه المفاجئ: من يريد التخلص باغندا»

تعرّض نجم الاتحاد التونسيّ وهدّاف الفريق الوطنيّ باغندا، في اللّيلة الفاصلة بين السبت والأحد المنقضيين، إلى حادث غامض. وتفيد المعطيات الأوّليّة التي تحصّلنا عليها أنّ فتحي بركة (المعروف باسم باغندا) قد اختفى ليلة السبت ولم يعد إلى بيته.

وقد كثرت الإشاعات من حديث عن اختطاف إلى حديث عن اعتداء بالسلاح الأبيض عند خروجه من ملهى ليليّ بضاحية من ضواحي العاصمة إلى حادث بالسيّارة التي كان يقودها. ولم تحدّد المصادر التي اعتمدناها هوّيّة الفاعل أو الفاعلين المفترَضين ولا الدوافع. ولا نعلم إن كانت الجهات الأمنيّة قد تحقّقت من الأمر إلى حدّ كتابة هذا الخبر.

مكتبة الفكر الجديد

وقد حاولنا استجلاء الحقيقة من الكاتب العام لفريق الاتحاد التونسيّ لكنّه أنكر علمه بالاختفاء المفاجئ جملة وتفصيلا. إلاّ أنّ أفرادا من عائلة اللاعب المعتدى عليه أكّدوا لنا اختفاءه كما أكّدوا أنّ الشرطة العدليّة قد أخذت على عاتقها أمر الكشف عن ظروف هذا الاختفاء. ولم تخفِ عائلة باغندا قلقها من الشائعات والأخبار المتضاربة المتداولة في الحيّ.

وعلمنا من جهة أخرى بأنّ اجتماعا وزاريّا عاصفا عُقد، صبيحة يوم الأحد، في وزارة الشباب والرياضة جمع فيه السيّد الوزير ثلّة من المديرين والمستشارين إضافة إلى السيّد رئيس الاتحاد التونسيّ والسيّد رئيس الجامعة التونسيّة لكرة القدم والسيّد رئيس اللّجنة الوطنيّة الأولمبيّة التونسيّة. ولم ترشح عن هذا الاجتماع معلومات مؤكدة. إلاّ أنّ مصدرا موثوقا أفادنا بأنّ خلافا دبّ بين السيّد الوزير ورئيس الاتّحاد التونسيّ غادر على إثره السيّد عماد بلخوجة الجلسة في حالة غضب.

ولئن كان من السابق لأوانه الخروج باستنتاجات، مادامت المعلومات شحيحة ومتضاربة، فإنّ إنكار السيّد الكاتب العام للاتحاد التونسيّ للاختفاء وما آل إليه الاجتماع في وزارة الشباب والرياضة يؤكّدان أنّ الأمر خطير فعلا بما أنّه يتعلّق بلاعب مرموق ونجم كرويّ معروف.

فمَنْ يريد التخلّص من باغندا الذي أثار في الأشهر الأخيرة حفيظة أطراف مختلفة في فريقه وفي الفرق الأخرى وتعرّض إلى حملة تشويه واتهامات عديدة لدى أحبّاء الاتحاد التونسيّ وعشّاق كرة القدم؟

أسئلة ستظلّ معلّقة إلى أن تكشف الأيّام والسلط الأمنيّة حقيقة ما جرى.

ع.ع»

مكتبة الفكر الجديد

غضب معاليه. كان يوم الاثنين يوما عاصفا في الجريدة، وعاصفا خارجها أيضا. فمنذ الصباح الباكر تناقلت الخبر بعض وكالات الأنباء المهتمّة بالشأن الرياضيّ التونسيّ استنادا إلى صحيفتنا. وكان لهذا السبق مكان في «عرض الصحف» بالإذاعة الوطنيّة بعيد نشرة السابعة صباحا. ففي هذا العرض اليوميّ تقدّم العناوين الرئيسية للصحف الصادرة في ذلك اليوم ومقتطفات من الافتتاحيّات التي عادة ما تركّز على حكمة المجاهد الأكبر ومسيرة تونس الخضراء نحو النماء والازدهار والرقيّ، وعلى الوحدة القوميّة الصمّاء. علمت بهذا، في ما بعد، من سي عبد الحميد الذي اعتبر أنّني فضحته أمام الخلق وأضحكت الناس على جريدته الجادّة وأوقعت الجميع في الخطإ بما في ذلك إذاعتنا الوطنيّة التي لن تثق مرّة أخرى في ما تورده جريدتنا، صوت الحكومة، من أخبار.

استفقت يومها على طرق قويّ على الباب أرعبني. فما إن رآني عمّ حسن وأنا بثياب النوم فاتحا عينيّ جزئيّا حتّى استحثّني على الالتحاق حالاّ بالجريدة لأمر جَلَل لا يعرف سرّه. كان الر.م.ع نفسه قد هاتفه حوالي الثامنة والنصف طالبا منه إحضاري من الأرض أو من السماء فورا.

دعوت عمّ حسن إلى قهوة فرفض لضيق الوقت. طمأنته بأنّ السبق الصحفي هو الذي دعا سي عبد الحميد لرؤيتي حتّى يشكرني على عملي. ابتسم مستهزئا محرّكا رأسه كالرّحى ثمّ خاطبني قائلا:

– «إذا فررت بجلدك من أولئك الأغوال فاحمد ربّك صباحَ مساءَ. صوته ونبرته وصراخه في الهاتف لا يدلّ على شكر ولا على خير. أسرع...».

ضحكت أوّل الأمر وأنا أتأمّل اضطراب عمّ حسن وقلقه الشديد. ثمّ ساورتني بعض الشكوك في وقوع شيء مّا. كان عليّ أن أواجه ما

مكتبة الفكر الجديد

ينبغي عليّ مواجهته. فمهما يكن من أمر لا تمثّل الصحافة بالنسبة إليّ، وقتها، رأسَ مالٍ أو عملا قارّا.

وصلنا إلى الجريدة حوالي العاشرة. أصرّ عمّ حسن على أن يوصلني بنفسه في سيّارته القديمة من صنف «سيمكا». ربّما فعل ذلك من باب تنفيذ أوامر الر.م.ع علاوة على نزعة أعرف أنّها متأصّلة فيه: إذ يريد أن يعرف كلّ ما يقع في الجريدة فما بالك والمسألة تبدو له اليوم خطيرة.

تلقّفني الحاجب في الباب وأمسكني كالشرطيّ أو السجّان من ذراعي ليصطحبني إلى مكتب رئيس التحرير. ولو لم أنهره صارخا في وجهه، وأنا أنتزع عضدي منه، لواصل مسرحيّته السمجة معي وتطاوله عليّ. كنت أعرف جيّدا هؤلاء المخلصين لأسيادهم الذين يبدون حرصا مفرطا على تنفيذ التعليمات والمبالغة في تقديم آيات الولاء والتأييد لرؤسائهم في العمل. جذبت «الناصر» الشاوش، وكان قميئا نوعا مّا، من رقبة قميصه وأجلسته على كرسيّه في مدخل الجريدة مهدّدا إيّاه بكسر وجهه إذا تحرّك من مكانه قبل أن أغادر الجريدة.

رأيت الذهول والحيرة على وجه «بسمة» السكرتيرة الحلوة. لم تعرف كيف تردّ عليَّ تحيّة الصباح من فرط اضطرابها. عندها فهمت أنّ الدنيا قامت في الجريدة ولم تقعد. فبسمة اسمها مطابق لجسمها تنشر حولك البهجة والانشراح. أردت أن أخفّف عليها ما استبدّ بها من اضطراب فقلت لها:

- «هل أنت السكرتيرة الجديدة هنا؟».

فردّت عليّ مستغربة:

- «سي عبد الناصر أنا بسمة... ما بك...».

قلت لها وأنا أغمزها:

- «لم ار ابتسامتك الفاتنة.. فظننتك سكرتيرة جديدة!».

مكتبة الفكر الجديد

حينها غطّت ابتسامتُها اضطرابَها وأعلمتني أنّ سي عبد الحميد في انتظاري منذ أكثر من ساعة.

كان سكرتير التحرير وأبو السعود وسي عزّ الدين رئيس قسم الرياضة جالسين على طاولة العمل في المكتب مع سي عبد الحميد. ما إن رآني الر.م.ع حتّى وجّه إليّ الكلام:

- «جئت سي الشباب.. أشعلت النار وذهبت لتنام هانئا!».

- «صباح الخير، يا أجمل ريشة في الصحافة التونسيّة!».

- «من أين يأتي الخير.. وقد نتّفت الريشة وذروتها في الريح.. ستدمّر الجريدة».

- «ما كنت أعرف أنّني قويّ إلى هذا الحدّ..ماذا وقع؟».

سألني في البداية عمّن أذِن لي بنشر الخبر عن باغندا ومن أجاز لي كتابة ما كتبت. رأيت سي عزّ الدين الجعايبي يتململ ففهمت أنّه مُحْرجٌ ولا يريد أن يتحمّل معي مسؤوليّة المصادقة على النشر.

- «كان سبقا صحفيّا وخبرا حصريّا تتمنّاه أيّ صحيفة...».

قاطعني هازئا غاضبا في آن:

- «ومن قال لك أنّنا نلهث وراء السبق الصحفيّ؟ هل أنت مسؤول عن الخطّ التحريريّ أم تعتقد أنّ سيادتك رئيس تحرير هنا؟ هيّا تعالَ خذْ مكاني...».

انفرجت أسارير سي الجعايبي وهو ينقل نظره بيني وبين سي عبد الحميد. سألني في حدّة:

- «وهل أعلمت سكرتير التحرير بتغيير الصفحة الأولى وإنزال الإشهار إلى أسفل الصفحة؟».

- «وضعته في موضع الحصان..»

مكتبة الفكر الجديد

- «دعك من الحصان والكلب.. من رخّص لك في ذلك؟»

كان الحبيب العويني، سكرتير التحرير شاخصا فيّ ينتظر إجابتي التي قد تورّطه فناورت بشكل يخرجه من المشكلة:

- «ما أعرفه منذ وضعت رجلي في هذه الجريدة أنّ الإذن بالسحب يوقّع عليه سي الحمزاوي...»

قاطعني أبو السعود الحمزاوي متبرّئًا وقد تفطّن إلى مناورتي لتوريطه:

- «لا دخل لي سي عبد الحميد في ما وقع، هذه ليست مهمّتي...»

لم يلتفت إليه سي عبد الحميد ولكن طلب منه، في حزم، ألاّ يتدخّل في الحديث بيني وبينه. جلس على كرسيّه الدوّار مفكّرا ثمّ أمر الجميع بمغادرة المكتب. هممت بالتوجّه نحو الباب فاستوقفني طالبا منّي البقاء.

رانت لحظات من الصمت ظلّ الر.م.ع خلالها يتأمّلني بحياد قاتل. لم أعرف ما أفعل. ظللت أحدّق في عينيه مثلما درّبت نفسي على ذلك حين أكون في حضرة من هو أرفع منّي مكانة. كانت أمّي تعتبر ذلك وقاحة وتدعوني إلى أن أنزل عينيّ وأخفض لها أو لأبي جناح الذلّ. لكني كنت أكره وضعيّات الإذلال والمسكنة والدونيّة. فوجدت هذه الطريقةَ أحفظَ لكرامتي وإن كنت واعيا بأنّها لا تعدو أن تكون ضربا من مداراة ما قد ينتابني من خوف أو اضطراب أو قلق أو ضعف. قطعت مباراة التأمّل والتحديق:

- «أتعرف أنّ عمّ حسن لم يترك لي الوقت لقهوة الصباح وسيجارتي الأولى؟».

ابتسم أخيرا:

- «سنشربها معا إذن! فأنا أيضا لم أجد الوقت للقهوة الأولى».

بعد أن أحضرت بسمة كأسَيْ عصير وفنجانَيْ قهوة طفق سي عبد الحميد يروي لي ما حدث منذ الصباح الباكر.

مكتبة الفكر الجديد

ففي حوالي السابعة والربع هاتف وزير الشباب والرياضة من مكتبه الر.م.ع، وكان ما يزال يحلق ذقنه، طالبا منه الحضور حالاً إلى الوزارة لأمر خطير. تردّد سي عبد الحميد في الذهاب إليه إذ لم يكن ممّن يحترمهم لسيرته غير المحمودة، بيد أنّ نزعته إلى المهادنة غلبته فكان في مكتب الوزير في الثامنة إلاّ الربع.

أشهر السيّدُ الوزيرُ الصحيفةَ في وجه سي عبد الحميد غاضبا متّهما صحيفة الحكومة بالعمل ضدّ سياسة فخامة الرئيس بنشر الأخبار الزائفة وهتك أسرار الدولة على صفحاتها. هدّد بإعلام الوزير الأوّل والمجاهد الأكبر بالأمر لاتّخاذ ما يريانه صالحا من إجراءات. ردّ سي عبد الحميد الذي كان أثناء وعيد الوزير وتهديده يلقي نظرة على الصفحة الأولى لأوّل مرّة:

- «أين الإشكال؟ خبر رياضي عاديّ. لقد قمنا بواجبنا في الإعلام».

- «واجب!.. وتصرّ على هذه الزبالة التي نشرتها!؟».

- «من فضلك، معالي الوزير، نحن أناس مسؤولون لا نأتمر إلاّ بأوامر فخامة المجاهد الأكبر فإذا كان لك اعتراض على المقال فلك ولوزارتك حقّ الردّ..».

- «هذه وقاحة وتطاول، علاوة على الكذب والتزييف...».

حينها انتصب سي عبد الحميد واقفًا وترك الوزير قائلا:

- «لا أسمح لك بإهانتي وإهانة الصحيفة.. لقد سترنا فضائحك ودافعنا عنك واليوم تهيننا.. إذن سننفض الغبار المتراكم على القضيّة التي تعرف تفاصيلها وقبل ذلك سأنشر في الصحيفة غدا هذا الذي قلت وسنرى..»

اندهش الوزير من ردّ الر.م.ع. وبدا كمن سُكب عليه سطلُ ماءٍ باردٍ. أغلق سي عبد الحميد الباب وراءه بعنف واتّجه مباشرة إلى الجريدة. عاد،

مكتبة الفكر الجديد

وهو في السيّارة، إلى المقال يتثبّت ممّا ورد فيه. قلّب النظر. ركّز على الفقرة التي تتحدّث عن الاجتماع الطارئ في وزارة الشباب والرياضة. لم يجد فيه ما يسيء. وجده موقفا مسؤولا من الوزير استعدادا لما قد يكون للحادثة التي تعرّض لها نجم كرويّ محبوب ينتمي إلى فريق شعبيّ من انعكاسات وردود فعل لدى الجماهير الرياضيّة. هكذا أجاب رئيس ديوان وزير الشباب والرياضة الذي التحق به في الجريدة بعد ربع ساعة من وصول سي عبد الحميد إليها.

كان الوزير قد حمل تهديد رئيس التحرير بنشر محتوى المحادثة والعودة إلى فضيحة الرشوة على محمل الجدّ. أرسل رئيس ديوانه إلى الجريدة لإزالة سوء التفاهم والدعوة إلى تفهّم غضب الوزير ممّا نُشر على حدّ تعبيره. دعا إلى طيّ الصفحة مؤكّدا أنّ الأيّام كفيلة بأن تكشف حرص معالي الوزير على خدمة الرياضة التونسيّة ودعم الإعلام الرياضيّ للتعريف بإنجازات الوزارة في هذا الميدان الشبابيّ المهمّ. لم يعتذر رئيس الديوان نيابة عن الوزير صراحة ولكنّ مجرّد حضوره واللّغة التي خاطَب بها سي عبد الحميد وتثمينه لدور صحيفتنا في التعريف بإنجازات حكومة فخامته وتبرير ما وقع بسوء التفاهم كان يدلّ على نوع من الاعتذار المبطّن عمّا قاله الوزير وكانت الجملة الأخيرة التي ودّع بها رئيسُ الديوان سي عبد الحميد واضحةً:

– «أجدّد لك شخصيّا حرص وزارتنا على علاقة جيّدة بالسلطة الرابعة. لن ينسى معاليه وقفتكم الشجاعة معه ومع الحقّ.. أرجو أن تعتبر، مثلما يعتبر السيّد الوزير، أنّ القوس قد أغلق».

اكتفى سي عبد الحميد بابتسامة صفراء وإن كان في قرارة نفسه لم يستسغ إهانة الوزير له وتبجّحه المفرط. وفي كلّ الأحوال اعتبر أنّه خرج منتصرا في المقابلة وسجّل أهدافا حاسمة أمام وزير لم يكن كفءا ولا جديرا بالانتماء إلى الحكومة لولا ضغط أطراف من الكلاب النهّاشة

مكتبة الفكر الجديد

في القصر ولولا مراعاة التوازن بين الجهات والولايات والولاءات في تركيب الحكومات.

عندما حدّثني سي عبد الحميد عن هذا فهمت أنّ مشكلته لم تعد أساسا معي. فعنجهيّة الوزير أنسته المقال، أو قُلْ حصَرت مشكلةَ المقال في جوانب ثانويّة أقلّ حدّة. ذهب في وهمي، بعد أن أسرّ إليّ بما أسرّ، أنّ الملفّ أغلق. فنرجسيّة الر.م.ع وردّه الكاسح على الوزير الذي لا يستحقّ الوزارة علاوة على احتقاره لكرة القدم ولصحفيّي قسم الرياضة أهمّ عنده من ذاك الخبر البائس عن لاعب كرة قدم. فرئيس التحرير مثقّف مغرم بالأدب والفنون، معتدّ بقلمه وشخصه، أرستقراطيّ في تفكيره ونمط عيشه. وهو إلى ذلك يرى نفسه في قائمة المرشّحين لإحدى الحقائب الوزاريّة فهو يظلّ ينتظر، عندما تنتشر الإشاعات عن تغيير حكوميّ، أن يمنّ عليه فخامته بوزارة الإعلام أو وزارة الثقافة في التشكيلة الحكوميّة الجديدة.

ما لم يكن في الحسبان. كاد ينتهي اللّقاء مع سي عبد الحميد لو لم يدخل علينا المسؤول المالي بالجريدة، شاكر دمّق، وقد بدا على وجهه الجزع من شيء مّا. كان مذهولا يقدّم رجلا ويؤخّر أخرى لا يعرف من أين يبدأ حديثه. نظر إليّ قبل أن يتكلّم كالمستفهم عمّا إذا كان يستطيع الحديث بحضوري في ما جاء من أجله. فهم سي عبد الحميد نظرته المستفسرة فقال له:

- «تكلّم، سي عبد الناصر من الثقات».

تردّد بعض التردّد فاستعددت للخروج، لكنّ سي عبد الحميد طلب منّي المكوث. شجّع المسؤول المالي على أن يفرغ ما في جعبته. قال متحرّجا:

مكتبة الفكر الجديد

- «اتّصل بي المسؤول عن الإشهار ليعلمني بأنّ عدّة شركات تريد إلغاء عقود الإشهار السنويّة معنا»

- «لماذا؟»

- «لم يذكروا الأسباب..لكن أغلبها..»

صمت وهو ينظر إليّ فقطع سي عبد الحميد الصمت مستفهما:

- «أغلبها ماذا؟»

- «أغلبها على ملك رجل الأعمال عماد بلخوجة فقد خرقنا الاتفاق معه في عدد اليوم ولم ننشر الإشهار في موضعه بجانب عنوان الجريدة..».

- «وبقيّة العقود..؟».

- «لرجال أعمال قريبين منه أو من الهيئة المديرة للاتحاد التونسيّ على حدّ علمي..».

- «أتعتقد أنّ المقال عن باغندا هو السبب؟..».

أجاب بحركة بالرأس من دون تردّد مؤكّدا ذلك ولكنّه قال بحذره المعهود:

- «يرجّح المسؤول عن الإشهار ذلك...».

صمت سي عبد الحميد يفكّر. استأذن شاكر دمّق وغادر المكتب مسرعا. شعرت بشيء من الحرج فأنا من تسبّبت في خسارة ماليّة للمؤسّسة. وهذه أوّل مرّة أدرك معنى سحب الإعلانات من صحيفة بسبب خبر منشور، فما بالك بالرأي والنقد. لم أعرف كيف أتصرّف؟ ماذا أقول؟ هل أخطأت حقّا؟ كيف يمكن لي أن أشارك في إفساد الأجواء على سي عبد الحميد الذي وضع ثقته فيّ وشجّعني؟.

مكتبة الفكر الجديد

انثالت عليّ التساؤلات في لحظات. استجمعت ما تبقّى لي من وضوح رؤية وخاطبته قائلا:

- «لا بدّ من كبش فداء وأنا مستعدّ لذلك. أنا السبب في كلّ ما وقع».

نظر إليّ شزرا وقال:

- «لم تفهم شيئا يا عبد الناصر! خطؤك الصغير هو تغيير موضع الإشهار، أمّا خطؤك الكبير فهو اعتقادك أنّه يمكننا ممارسة الصحافة بمهنيّة واستقلاليّة وحياد. لم تفهم أنّ الحقيقة مضرّة في عالم الكذب... لستُ في حاجة إلى كبش فداء ولا حتّى إلى إشهار عماد بلخوجة وبقيّة الكلاب... لا تنس أنّنا جريدة حكوميّة يكفينا إشهار الوزارات والمؤسّسات العموميّة. أنا أفكّر في شيء آخر..».

لم يكن يرغب في أن يستعمل علاقاته في الحزب والحكومة ووزارة الإعلام لفضّ الإشكال. كان يفكّر فقط في الحديث مباشرة مع عماد بلخوجة لرفع سوء التفاهم وإرجاع الإشهار إلى الجريدة. فقد حقّق اليوم انتصارا على الوزير. قال في ما يشبه حكمة المجرّب:

- «لا يمكن للمحارب الجيّد أن يفتح أكثر من جبهة في وقت واحد».

وضّحت له أنّ المعلومات المتوفّرة عندي حول رئيس الاتّحاد التونسيّ تفيد بأنّه ذئب شابّ لا يرحم، متبجّح لا يملأ عينيه أحد، عنود لا يستسلم في معاركه، شرس لا يتورّع عن استخدام جميع أسلحته الماليّة وعلاقاته الكثيرة لتدمير خصومه. وقد دعّم إمبراطوريّته الماليّة بعصابات من المنحرفين تحت غطاء أنصار الاتّحاد التونسيّ. إنّها ميليشيا حقيقيّة يديرها شرطيّ سرّيّ من حيّ باب منارة اسمه منير الزرقوني أعرفه حقّ المعرفة. يجلس في مقهى بالحيّ يجمع منه مختلف المعلومات التي تصلح للدّاخليّة وللجمعيّة ويستقطب فيه مقدّمي الخدمات بالجملة والتفصيل.

مكتبة الفكر الجديد

كان سي عبد الحميد يستمع إليّ باهتمام. ثمّ ردّ عليّ بأنّ كلامي زاده حرصا على مهاتفة الرجل أو اللّقاء به مباشرة. رفع السمّاعة يسأل بسمة السكرتيرة عن رقم عماد بلخوجة.

وأنا أهمّ بالخروج قال لي:

- «تعود إلى عملك كما لو أنّ شيئا لم يقع...».

شكرته على مساندته لي في هذه المحنة معتذرا عمّا سبّبته له من مشاكل هو في غنى عنها. وعندما خرجت قابلتني بسمة بابتسامتها فأخرجت كنّشي الصغير من جيب سروال «الدجين» وأمليت عليها الأرقام الخاصّة برئيس الاتّحاد التونسيّ. شعرتُ أنّها كانت ممتنّة لي على هذه الخدمة. فقد اتّسعت بسمتها لتقارب ضحكة غنج أردفتْها بغمْزة حلوة وحركة قبلة على الهواء بشفتيها المكتنزتين. كانت حركات بسمة المغناجة تثيرني لكنّني كنت أعلم أنّها من حريم سي عبد الحميد.

الاعتذار الفضيحة. أعلمني سي عبد الحميد، وأنا أحرّر افتتاحيته، كالعادة، أنّه سيلتقي رئيس الاتّحاد التونسيّ. عبّرت له عن استيائي من المقال الذي كتبه المشرف على الصفحات الرياضيّة عزّ الدين الجعايبي. فهو يضع مصداقيّة الجريدة في الميزان ويمثّل إهانة شخصيّة لي.

كانت إجابته ماكرة في ما بدا لي. اعتبر أنّ تنزيل خبر بمثل تلك الخطورة من دون كتابة الاسم كاملا لا يجوز في العمل الصحفيّ الجادّ والمسؤول. إنّه ضرب من التخفّي وإن كان متأكّدا أنّني لم أقصده بل هو جزء من الاتفاق بيني وبينه منذ البداية. وضّح لي أنّ الحرفين الأوّلين من اسمي الحقيقي عبد الناصر العسلي («ع.ع») لا يكشفان أيّ شيء بما أنّ الحروف اللاّتينيّة التي ينقل إليها الحرفان العربيّان تفضي إلى صورة خطّيّة هي: («A.A»)، صورة غامضة لا تمكّن من التعرّف إلى الاسم

مكتبة الفكر الجديد

العربيّ. فاعتبر ذلك من حسن الحظّ حتّى لا تجد الجريدة نفسها مجبرةً على كشف صاحب المقال. وما لقاء اليوم مع عماد بلخوجة إلاّ من باب إصلاح ما يمكن إصلاحه وحمايتي شخصيّا من غضبه.

لم يقنعني كلامه وأصررت على تناول جوهر الموضوع بالمناقشة. أكّدت أنّ معلوماتي صحيحة وأنّ مصادري موثوق بها. وكان علينا في الجريدة أن نتابع الموضوع ونكشف للناس حقيقة ما وقع.

قاطعني سي عبد الحميد مستنكرا مستهزئا:

- «ما وقع هو أنّني تخاصمت مع وزير الشباب والرياضة وقطع النافذون في الجمعيّة الإشهار عن الجريدة وسأتنازل لألتقي شخصا ثريّا أكاد أجزم أنّه لم يتجاوز مرحلة التعليم الثانويّ في أحسن الأحوال. أفهمت ما وقع؟».

صمت لحظة ثمّ أضاف جملة مازالت ترنّ في أذنيّ إلى الآن لأنّي لم أنتظرها منه ولم أستسغها:

- «...كلّ هذا من أجل ذاك «النيغرو»[1] المنحرف الجاهل الذي يركل جلد ثور مدوّر برجله! ليذهب إلى الجحيم!».

لم أتخيّل يوما أن يخرج مثل هذا الكلام من فم سي عبد الحميد المثقّف المتنوّر، اليساري السابق، المسؤول عن أهمّ صحيفة فرنكوفونيّة في تونس، عاشق الأدب العالمي والفنّ الراقي والمرشّح لمنصب وزير. كنت مشدوها كأنني أمام شخص آخر لا أعرفه. باغتني في حزم وصرامة قائلا:

- «ما كتبه الجعايبي كان بأمر منّي.. لن أخوض حربين مع الوزير التافه ورجال المال والأعمال من أجل باغندا هذا. مصلحة الجريدة قبل كلّ شيء. واضح؟ لنغلق الموضوع نهائيّا».

(1) النيغرو كلمة تعني في أصلها «الزنجيّ» ولكنّها في الاستعمال محمّلة بدلالة تهجينيّة عنصريّة.

مكتبة الفكر الجديد

لم أردّ تقديرا لسي عبد الحميد. كظمت غيظي على غير عادتي. نزلت مسرعا لأسهر على رقن الافتتاحيّة وتصحيحها. كانت ليلةَ كدرٍ لم تنفع معها حتّى القوارير الخضر العشر التي احتسيتها ولا المناقشات المتوتّرة مع الزملاء في حانة قريبة من مقرّ الجريدة يلتقي فيها الصحافيّون. الوحيد **الذي أحسّ بي يومها هو عمّ حسن وإن لم أُطلعه على ما دار بيني وبين سي** عبد الحميد. قال لي، في لهجة أبويّة، قولَ عارفٍ بدواليب الصحيفة:

- «زوبعة ومرّت يا بنيّ. من حظّك أنّ سي عبد الحميد يحبّك، **غيرُك كان سيحطّمه تحطيما كزجاج قارورة تلقى في الطريق**».

أمّا حمّادي حجيّج المصمّم الفنّان الصعلوك فكان تعليقه على قدر يأسه من الناس والصحافة:

- «قلت لك إنّهم كلاب لا يفقهون.. ماذا كنت تنتظر منهم أولاد الـ...».

وجدت في الأوراق التي احتفظت بها نسخةً من عدد يوم الثلاثاء، أي بعد أربع وعشرين ساعة من صدور الخبر عن باغندا، وفيها المقال الذي كتبه المشرف على الصفحات الرّياضيّة.

كان العنوان لافتا: «**حين يتحمّل الشرفاء كيد المتآمرين**» (وباللّون الأزرق أيضا) اختار له نفس الموضع الذي وُضعَ فيه مقالي عن باغندا وحلاّه بصورة كبيرة مع تعليق يرشَحُ مديحا جاء فيه ما ترجمته: «**عماد بلخوجة: المسيّر الناجح والوجه المتألّق للرياضة التونسيّة**». وإمعانا في الاعتذار تمّت الإشارة إلى المقال في الصفحة الأولى بالبنط العريض في الشريط الواقع فوق عنوان الجريدة مصحوبا بصورة أخرى لعماد بلخوجة وهو يضحك. وتحت العنوان، على جانبَيْ اسم الجريدة، وُضع إعلانان أحدهما لبيع شقق من مشروع سكنيّ والآخر لشركة تأمين وكلاهما تابع لرئيس الاتّحاد التونسيّ عماد بلخوجة.

مكتبة الفكر الجديد

وأنقل هنا ترجمة حرفيّة للمقال:

«حين يتحمّل الشرفاء كيد المتآمرين

ليس من عادة صحيفتنا التساهل في انتقاء المتعاونين معها ولا البحث عن الإثارة على حساب أخلاقيّات المهنة وشرفها. ولكن لكلّ جواد كبوة وها نحن نعترف لقرّائنا الأعزّاء بأنّ جوادنا لم يكن على خير حال في عدد الأمس. ألم يقل الحكماء من قبل إنّ الاعتراف بالخطإ من شيم الكرام؟

فقد تسرّب في عدد الأمس مقال كلّه أكاذيب وتلفيقات وافتراءات أقرب إلى الخيال المريض منه إلى الوقائع الثابتة والحقائق الموضوعيّة. والخطير في الأمر أنّ هذه المزاعم الباطلة مسّت نجما متألّقا من نجوم الرياضة التونسيّة، الجوهرة السوداء في تاج كرة القدم ببلادنا، فتحي بركة المشهور بباغندا. فإليه أوّلا اعتذراتنا الصادقة ثمّ إلى عائلته وأحبّائه وكلّ عشّاق كرة القدم. ونطمئن الجميع بأنّ لاعبهم المحبوب في أفضل حال وستداعب رجلاه الكرة في الملاعب عند عودة البطولة بفنّيّاته العجيبة ولمساته السحريّة وأهدافه الرائعة.

ولكن لا بدّ من الاعتذار لنجم آخر من نجوم الكرة ببلادنا غيّر منذ دخوله ميدان التسيير الرياضيّ وجهَ نادي الاتحاد التونسيّ وكرة القدم الوطنيّة بأساليبه الحديثة في الإدارة وتفانيه في خدمة الفريق الذي يترأّسه. إنّه الخطاف الذي صنع بحقّ ربيع كرة القدم التونسيّة مكذّبا المثل الفرنسيّ المعروف. فإنجازاته، منذ تولّيه رئاسة الاتّحاد التونسيّ، ملموسة بيّنة لا يرقى إليها الشكّ. إنّه المسيّر الشاب ورجل الأعمال المخلص لكرة القدم التونسيّة والوطنيّ الغيور على سمعة الرياضة ببلادنا السيّد عماد بلخوجة. إليه اعتذارنا عن الضرر المعنويّ الذي تسبّبنا له فيه بمقال كاذب مزيّف للحقائق. فتحيّة إلى السيّد عماد

مكتبة الفكر الجديد

بلخوجة وسنواصل في صحيفتنا العمل بمبدئنا المستلهَم من توجيهات المجاهد الأكبر قائلين للمحسن أحسنت وللمسيء أسأت وحسنات السيّد عماد بلخوجة وأياديه البيضاء لا تُحصى ولا تعدّ.

وليس لنا في الختام إلاّ أن نجدّد اعتذاراتنا واعدين قرّاءنا بمزيد الحرص على سلامة المعلومة التي نقدّمها خدمة للرياضة التونسيّة معتبرين ما وقع درسا لن يُنسي وقوسا أغلقناه نهائيّا.

عزّ الدين الجعايبي

المشرف على الصفحات الرّياضيّة»

هكذا هي صحافتنا: شقشقة لفظيّة وبلاغة غثّة باردة وانبطاح لذوي السلطان من دون مبرّر. كم كنت أودّ أن يكون الاعتذار، إن كان لا بدّ منه، أحفظ لكرامة الجريدة والمسؤول الأوّل فيها و«المتعاون الخارجيّ» المزعوم. ولكن لئن كنت لا أنتظر من عزّ الدين الجعايبي إلاّ تلك التفاهات فإنّ قبول سي عبد الحميد بها واعتبارها كُتبت بتعليمات منه أمر أزعجني.

فالجعايبي معروف بالرشوة والحوارات مدفوعة الأجر، والمقالات التي يكتبها تحت الطلب. وهو معروف كذلك بمديحه لهذا اللاّعب أو ذاك وإعلائه من شأن هذه الجمعيّة أو تلك وتزييفه حتّى لمجريات المباريات ليمتدح، أو يذمّ، لاعبًا أو حَكمًا. ويعلم هذا الجميع في الصحيفة، بما في ذلك سي عبد الحميد. ولا أحد يثق في ما يزعمه في تحليله المطوّل يوم الإثنين في ركن أسماه «تحت المجهر». فمجهره مقدود من مرايا محدّبة أو مقعّرة. تراه يتقعّر في التعبير ويضع رسوما لتحرّكات اللاّعبين في هذه المقابلة أو تلك لا صلة لها بحقيقة الميدان.

ولم يكفه ذلك بل أحدث ركنا أسبوعيّا عن بورصة اللاّعبين يتكوّن منْ عمودَين متوازيين أحدهما بعنوان «في صعود» والآخر بعنوان «في نزول».

مكتبة الفكر الجديد

وما لم أتفطّن إليه إلاّ وأنا أقلّب عدد يوم الإثنين من الصحيفة، أي العدد الذي أوردت فيه الخبر المشؤوم، أنّ بورصة عزّالدين الجعايبي قد اعتبرت أسهم اللاعب باغندا في نزول. ولا أدري كيف غاب عنّي ذلك وأنا أتحدّث مع سي عبد الحميد في ما وقع. فقد كتب يومها:

في نزول
لاعب الاتّحاد التونسيّ والفريق الوطنيّ: باغندا

الضيف النازل اليوم في بورصة الرياضة التونسيّة هو لاعب الاتحاد التونسيّ والفريق الوطنيّ باغندا. وقد اخترناه بسبب القلاقل التي ما انفكّ يثيرها في الفريق. فآخر شطحاته التي لا تحترم الميثاق الرياضيّ ولا التعهّدات التي من الواجب على اللاّعب المنضبط احترامها، محاولته ابتزاز الفريق الذي صنع مجده ورعاه ليصبح نجما محبوبا. فقد شقّ عصا الطاعة على الهيئة المديرة وراح يهدّد بمغادرة الفريق إن لم تقع الزيادة في راتبه الشهريّ مع منحة تسجيل الأهداف، إضافة إلى مطالبة غريبة بالتدخّل لدى السلط المعنيّة للحصول على رخصة مقهى بحيّ شعبيّ، على أن يتكفّل الفريق بتوفير جميع المستلزمات. وقد بلغَنا أنّه هدّد بالانتقال إلى فريق أجنبيّ تلقّى منه عرضًا ماليّا اعتبره مغريا، أو إلى أحد الفريقين الكبيرين في العاصمة والمنافسين التقليديّين للاتحاد التونسيّ ونقصد بالطبع الترجّي الرياضيّ التونسيّ والنادي الإفريقيّ. والغريب أنّ الألسن تناقلت منذ مدّة أنّ باغندا قد سافر إلى سويسرا من دون إذن من فريقه للتباحث مع فريق يرجّح أن يكون فريق «أف. سي. زوريخ» ولم يتوقّف منذ مدّة وخلال البطولة نفسها وأثناء مقابلات الكأس عن الاتصال بمبعوثين من الفريقَيْن المنافسَيْن المذكورَين. وإذ نستضيفه في هذا الركن فلأنّنا نعتقد أنّ عقليّة اللاّعب التونسيّ ما زالت لم تستوعب بعد التغييرات الجذريّة في التعامل الجدّيّ

مكتبة الفكر الجديد

مع الفرق والعقود والالتزامات بين الإدارة وبين اللاّعبين. لقد أغضب باغندا جماهير الرّياضة عامّة وليس جمهور الاتحاد التونسيّ فحسب. ولئن كنّا نقدّر مهاراته وموهبته فإنّنا متأكّدون بالمقابل أنّ للسلوك المنضبط واحترام الميثاق الرياضيّ والأخلاق الرياضيّة الأولويّةَ في هذه المرحلة التي تستعدّ فيها اللّعبة الشعبيّة الأولى للانتقال من الهواية إلى الاحتراف التامّ أو شبه الاحتراف. نرجو ألاّ يطول مكوث باغندا في المنحدر الخطير فيثوب إلى رشده سريعا.

زينو»

و«زينو» هو الاسم المستعار لعزّ الدين الجعايبي.

حين تنبّهت للمقال وأعدت قراءته تأكّدت أنّه من المقالات مدفوعة الأجر التي اعتاد على كتابتها كما يشتهي طالبوها ودافعو ثمنها. ولكنّني لا أخفي أنّ ما قاله عن باغندا أكّده لي عدد ممّن اتصلت بهم وأنا أستقصي حقيقة ما وقع للجوهرة السوداء. وهذا في ما بدا لي وقتئذ كان مندرجا ضمن حملة شعواء على باغندا يقف وراءها عماد بلخوجة نفسه بواسطة عصاه الغليظة منير الزرقوني وعصابته المسمّاة زيفا وبهتانا أنصار الاتحاد التونسيّ.

في مطعم «الكوكياج». كان سي عبد الحميد يحبّ مطعم «الكوكياج» في الضاحية الشماليّة. لم تكن نوعيّة الطعام هي التي تشدّه إليه فهو قليل الأكل كثير الشرب، بل صداقته لمالكه وتواتر زياراته إليه، حتى أصبحت طاولته محجوزة باستمرار في ركن خفيّ من المطعم. كانت أغلب لقاءاته للعمل ولتقصّي الأخبار عمّا يدور في القصر وكواليس الوزارات. وكنتُ الوحيد الذي لا مطمع له فيه ولكنّه يصطفيني نديما للحديث في الأدب والفنّ والسياسة والحياة. وقد فهمت منه، من دون أن يصرّح بذلك، أنّه

مكتبة الفكر الجديد

يرى فيّ بعضا من حماسة شبابه للأفكار الثوريّة قبل التحاقه بالحزب الحاكم، مثلما يعتقد أنّني بأسلوبي في الكتابة وحسّي الصحفي وسعة اطّلاعي، على ما يقول، سيكون لي شأن عظيم في دنيا الصحافة. إنّني رهان من رهاناته القليلة المتبقّية بعد أن بلغ مرحلة استوى فيها عنده الخير والشرّ، والخطأ والصواب، والنبالة والنذالة. لم يعد، وقد جاوز الخمسين، يحلم إلاّ بمجد الوزارة لينهي حياته المهنيّة كأبهى ما يكون.

في «الكوكياج» استقبل سي عبد الحميد عماد بلخوجة، وعلى طاولته في ذاك الركن ذبحا نهائيّا باغندا. سكّينان حادّان اجتمعا عليه: سكّين المال القوّام على الأعمال ومذلّ الرجال، وسكّين الإعلام الذي تربّى على الطاعة والتبرير والتغطية والكذب والتزييف. لم تكن الضحيّة مهمّة لأنّها برغيّ في آلة ضخمة تطحن كلّ من لا يطابق قالبها أو يتحدّاها. فما قيمة لاعب كرة قدم، وإن كان نجما، مقارنة بمسيّر يشرف على فريق رياضيّ لا يمثّل اللاّعبون عنده إلاّ جزءا يسيرا من ثروته وإن كانوا يدرّون عليه بطريقة مباشرة وغير مباشرة أضعاف ما يدفع لهم؟ هذا، علاوة على النجوميّة والشهرة وإشباع نرجسيّة مريضة بحبّ التملّك والتحكّم.

لم يحدّثني سي عبد الحميد عن تفاصيل كثيرة في ذلك اللّقاء. ولم تكن المناورة والمداورة معه، حتّى حين يتعتعه السكر، ممّا يجدي في انتزاع المعلومات والأخبار منه. لقد عرفت ذلك منذ اللّقاءات الأولى فمددت رجلي على قدر اللّحاف ولم أطلب المزيد. إنّه من القلائل الذين عرفتهم في حياتي يجمعون في تناغم عجيب بين الصراحة والوضوح وإخفاء أوراق لا حصر لها مع حذر شديد حتّى ممّن يحبّ ومن ينتقي من الندماء.

ورغم ذلك فهمت أنّه أراد بالفعل إغلاق ملفّ باغندا نهائيّا. فقد حقّق من خلاله انتصارا على وزير الشباب والرياضة أثبت له أنّه مازال ثمّة من يخشاه ويخشى ريشته حين يشهرها تقطر دما. وأرجع الأجواء

مكتبة الفكر الجديد

في الجريدة إلى ما كانت عليه بعد أن أقنع عماد بلخوجة بأنّ قطع الإشهار لن يزعج الجريدة فهي ملك للحكومة ولا يمكن أن تتوقّف عن الصدور بسبب بضعة ملايين، أو حتّى مليارات، من الملّيمات، بل بالعكس قد ترى السلطة في ما أتاه عماد بلخوجة وبعض أصحاب الشركات الأخرى من أنصار الاتحاد التونسيّ محاولة خسيسة للمساس بمنبر يحرص فخامته على أن يكون صوت حكومته الرشيدة ورسالة منها يوميّة، عبر الافتتاحيّات، إلى السفارات الأجنبيّة في تونس. فمن يريد إغلاق نافذتنا على شركائنا الأوروبّيين؟

أفهم سي عبد الحميد رئيسَ الجمعيّة الشابَّ أنّه نشر إعلانات شركاته وشركات أصدقائه كالعادة في عدد يوم الثلاثاء، من باب الفضل والمنّ عليه وعلى أصدقائه من رجال الأعمال وحماية لهم من مكائد الكائدين. ذكّره بأنّ للنجم الرياضيّ الساحلي وللنادي الرياضيّ الصفاقسي، إضافة إلى الترجّي الرياضيّ التونسيّ والنادي الإفريقيّ، رجالَ أعمالٍ يتعاملون مع جريدتنا، وهم الذين قد يردّون الفعل بشكل يسيء لرجل الأعمال الشابّ أصيل العاصمة. أخرج الأمر مخرج من حمى صبيًّا كاد يصيب، بيده، عينَه بالعور. فحرص على لقائه حتّى ينصحه نصيحة الأخ لأخيه.

أوضح له أيضا، كما أخبرني، أنّ المقال الذي نُشر على سبيل الخطإ يتحمّل فيه هو المسؤوليّة، لأنّ تعليمات المسؤولين في الجريدة أن تُؤخذ وجهات النظر كلّها، وبالخصوص وجهة نظر رئيس الجمعيّة وكاتبها العامّ. ولكنّ الكاتب العام أراد الضحك على الذقون بالزّعم أنّ المعلومة التي لدى الجريدة كاذبة أمّا رئيس الجمعيّة فعلّق السمّاعة في وجه الصحفيّ الذي كلّفه عزّ الدين الجعايبي نفسه بالاتصال به. وزاد بخبثه المعهود دقّ إسفين آخر في نعش غرور عماد بلخوجة وتبجّحه حين ذكّره بأنّه يعلم، علم اليقين، أنّ المسؤول عن الصفحات الرياضيّة وملحق يوم الاثنين يتلقّى منه الرشاوى والإكراميّات لينشر له في

مكتبة الفكر الجديد

جريدتنا ما يريد. وآخرها المقال الذي هاجم فيه، بالعدد نفسه الصادر أمس، باغندا. وأعلمه أيضا أنّه أصدر، رغم ذلك كلّه، تعليماته بأن يخصّص مساحة أكبر في عدد الثلاثاء للاعتذار لعماد بلخوجة ومدحه رغم يقينه، باعتباره رئيسَ تحرير مسؤولا عن كلّ ما ينشر، بأنّ ما نُشر صحيح في عمومه خصوصا ما دار في الوزارة فمصادره لا يرقى إليها الشكّ. وسيطالع غدا الاعتذار مع إشهار المقال في الصفحة الأولى بطريقة أوضح من إشهار المقال الذي أغضبه. قال له إثر هذا كلّه:

– «هذا أقصى ما أستطيع فعله.. هكذا رأيت واجبي وأكثر من واجبي ولك سديد النظر.. أحطتك علما بما أعتقد لا طمَعًا ولا خوفًا وأنت حرّ».

صمت عماد بلخوجة مشدوها بعد سماع ما قاله له. فقد كان رئيس الجمعيّة الشاب، في أوّل اللّقاء، يهدّد ويتوعّد متباهيا بقوّة أمواله ومعارفه وعلاقاته. بيد أنّ ثقته في نفسه اهتزّت وبان عليه الحرج حين لقّنه سي عبد الحميد درسا في قراءة خفايا الأمور وبواطنها.

وكم ضحك سي عبد الحميد على ردّ فعله عندما نصحه بتعيين ناطق رسميّ باسم الفريق يُعتمد في مثل هذه الحالات وفي غيرها. فقد اقترح عليه عماد بلخوجة متذاكيا أن ينضمّ بأيّ صيغة يراها إلى مجموعته الماليّة أو إلى فريق الاتحاد التونسيّ، كما سارع بطيش إلى إغراء سي عبد الحميد بألفي دينار مكافأةً شهريّا مدّعيا أنّه يفكّر بالفعل في مسؤول عن الاتصال. فردّ عليه بضربة أخيرة أظهرت ترفّع سي عبد الحميد وصغر تفكير بلخوجة حين أجابه قائلا:

– «أنا ابن بارّ لفخامة الرئيس والزعيم بورقيبة... كلّفني بالإشراف على جريدة الحكومة وقد آليت على نفسي ألّا أخدم سواه...».

انتهى اللّقاء وخرج سي عبد الحميد منتصرا على الجبهات جميعا

مكتبة الفكر الجديد

بفضل دهائه وقدرته على المخاتلة والمداورة والإقناع. أُغلق ملفّ باغندا لأنّ سي عبد الحميد اختار ذلك، وتكفّل عماد بلخوجة بشراء صمت بقيّة الصحف.

لم تتبقّ، بعد صفقة سي عبد الحميد التميمي وعماد بلخوجة، إلاّ صفحة من جريدة فرنكوفونيّة تتضمّن خبرا أوّليّا لا شيء فيه واضحا تمام الوضوح: ماذا وقع بالضبط؟ من الفاعل؟ متى؟ أين؟ ماذا؟ إنّها الاستفهامات البسيطة الأساسيّة التي تجعل الخبر خبرا. أغلق الملفّ في الصحيفة وظلّت منه في نفسي أشياء.

لماذا أروي حكاية باغندا؟ استبدّت بي حكاية باغندا. والحقّ أنّ هذا الهاجس لم يكن عائدا إلى اتصالي أسبوعيّا تقريبا بأبناء الحيّ حين أزور «مقهى الحاج الشمنططّو» فحسب، وإن كنت كلّ يوم أحد تقريبا أعود بحكايات كثيرة لاحظت شيئا فشيئا أنّها أصبحت تُتداول بطريقة شبه سرّيّة كأنها أخبار عن القصر وما يحاك فيه من دسائس وما يدور من صراعات بين أجنحته.

ولا هو هاجس عائد إلى معرفتي الشخصيّة بباغندا الذي اختفى من الحيّ ومن الملاعب بعد الحادثة، مع أن هذه المعرفة التي تعود إلى سِنِيٍّ المراهقة لعبت دورا ولا شكّ في متابعتي للقضيّة ومآلاتها.

ولم يكن الأمر يعود إلى نزعتي الفكريّة والذاتيّة في النقمة على كلّ ما يمثّل ظلمًا، خاصة أنّني استشعرت أنّ وراء حكاية باغندا لعبة كبيرة تتجاوز الشخص الذي أؤكّد أنّه بسيط ساذج كجلّ أبناء حيّي الذين لم ينالوا حظّا كبيرا من التعليم والمعرفة بخبايا عالم المال والسياسة والفساد المستشري فيه. فقد كنت متيقّنا أنّ هنالك أطرافا عملت على إخفاء شيء مّا أو أشياء تريد أن يكتنفها الصمت المطبق. افترضت ذلك منذ البداية ولم أكن أرضى، أنا القائد الطلاّبيّ المتخرّج حديثا من

مكتبة الفكر الجديد

ساحات النضال الجامعيّ والنقابيّ، والحالم بمجتمع العدل والمساواة، أن أتخلّى عن شعار تغيير العالم بمقاومة السلطة الفاسدة والدفاع عن واحد من بروليتاريا كرة القدم التي يستغلّها عماد بلخوجة وأمثاله.

فالأرجح أنّ ما كان يحرّكني، إضافة إلى ذلك كلّه، إنّما هو ما شعرت به من تتراخٍ أمام سي عبد الحميد وتخلّ عن المبادئ حين استسلمت لحساباته مع رجال المال والسياسة والإعلام ولم أردّ الفعل كما كان ينبغي لي أن افعل. لقد تخاذلت. إنّه جرحي النرجسيّ، أو بعض جراحاتي التي لم أكن أعيها جيّدا. وها أنا اليوم أراها بوضوح.

أغلق سي عبد الحميد الملفّ على طريقته ولكنّ الأسئلة ظلّت تسكن رأسي: ماذا وقع بالضبط؟ ولماذا؟ هَبْ أنّ الأمر تعلّق بلاعب آخر لا أعرفه، هل كان يمكن أن يقع له ما وقع لباغندا؟ أليس وراء اختفاء باغندا جريمة ما لها أسبابها ونتائجها، جريمة قد يتعرّض لها أيّ نجم آخر، أو حتّى لاعب عاديّ، في مكان مّا، وفي لحظة مّا؟

كنت أبحث عن كشف ما أرادوا حجبه وإخفاءه وطمس حيثيّاته وتفاصيله ودواعيه. كنت متأكّدا أنّني سأضع يدي في عشّ عقارب لسّاعة وأحرّك بِرَازًا كريه الرائحة.

لا أعرف تحديدا لم سَكنَتْ حكايةُ باغندا رأسي ورأيت أنه عليّ أن أكتبها وأرويها للناس ولو بعد سنوات وبعد أن لفّ النسيانُ بطلَها، أو بالأحرى ضحيّتها. نعم! لقد احتفظت بموادّها التي استقصيتها وجمعتها في ملفّاتي المتبقّية ولكنّ الذاكرة ماكرة تستبقي في تلافيفها ما قد يبدو لنا أنّه ضاع إلى الأبد وفي اللّحظة المناسبة تخرج لنا ما توهّمنا نسيانه. هكذا عادت إليّ صورة باغندا من خلال سُحُب كثيفة فأشرقت الحكاية.

مكتبة الفكر الجديد

الذئب الشابّ

مكتبة
الفكر الجديد

قصاصة من صحيفة. كنت أقلّب قصاصات الصحف ونسَخًا مصوّرة من مقالات جمعتها في ملفّ أسميته «من هو عماد بلخوجة؟» فوجدت مقالا بالعربيّة صدر في صحيفة «المساء» التونسيّة يعود حسب التاريخ المثبت على الورقة المصوّرة بقلمي الأخضر إلى 16 جويلية 1984. ألقيت نظرة سريعة فوجدته «بورتريه» بقلم صحفيّ رياضيّ اشتهر برسمه للوجوه الرّياضيّة هو معروف بحبّه، إلى حدّ التعصّب، للاتحاد التونسيّ رغم أسلوبه الرائق.

كان المقال قد كُتب في ما يبدو بعد الجلسة العامّة التي انتُخب فيها عماد بلخوجة رئيسا. (انطمست بعض الكلمات بفعل تقادم النسخة المصوّرة بيد أنّه لم يكن لم يكن من الصعب التعرّف من خلال السياق على الكلمات الأصليّة أو ما يرادفها) وقد جاء فيه ما يلي:

بورتريه

العصفور النادر في عشّ الاتّحاد التونسيّ

كان من البيّن حتّى قبل التصويت أنّ الإجماع يكاد يكون تامّا على الوجه الرياضيّ الشابّ عماد بلخوجة لترؤّس فريق من أعرق

مكتبة الفكر الجديد

الفرق التونسيّة. كانت جميع المعطيات تشير إلى ذلك في الكواليس وفي النقاش الصاخب داخل الجلسة العامّة ومن خلال خطابَيْ رأسَيْ قائمتي المترشّحين.

رجل أعمال شابّ، وسيم، ولاعب سابق في فريق كرة اليد في الاتّحاد التونسيّ، عُرف بانضباطه وحبّه للأزرق والأصفر الذهبيّ منذ نعومة أظفاره. هو ابن من أبناء المدينة العتيقة وتحديدا من «نهج الباشا» حيث مقرّ الجمعيّة منذ نشأتها سنة 1936. لم يكن متطفّلا على الجمعيّة ولا على التسيير فيها. وتشهد على ذلك النتائج التي تحصّل عليها فرع كرة اليد حين كان عماد بلخوجة مشرفا عليه قبل ثلاث سنوات خلت. فقد حصد ثنائيّ البطولة والكأس ثلاث مرّات على التوالي رغم ما كان يلحظه الجميع من ترهّل فرق الاتحاد التونسيّ في جميع الاختصاصات حتّى الفرديّة منها. كان الجميع شبه متأكّد من أنّ الاتحاد التونسيّ في تقهقر مستمرّ، فريق شاخ وهو يقترب من الخمسينيّة، بل أصبح مهدّدا بالتدحرج إلى الدرجة الثانية لولا دعم الجماهير اليائسة والصدف السعيدة. والجميع يذكر تهديد الهيئة المديرة منذ سنتين بالانسحاب من بطولة كرة القدم بعد أن أصبح الفريق قاب قوسين أو أدنى من النزول. ولولا القرار العطوف الذي اتّخذه الرياضيّ الأوّل الزعيم الحبيب بورقيبة رأفة بالجماهير الغاضبة لعوقب النادي بالنزول الإجباري إلى الدرجة الثانية كما تنصّ عليه القوانين. ولكنّ الوضع كان ينتظر من أبناء الفريق منقذا من هذا المآل المخيّب للآمال الذي كان سيضعف البطولة التونسيّة والمنتخب الوطنيّ.

ولم يكن من الصعب العثور على العصفور النادر. كان يكفي التحلّي بالشجاعة اللاّزمة لإزاحة المسيّرين الفاشلين وإعطاء الفرصة لرجال الفريق الأبرار الذين سيضخّون دماء جديدة في الفريق ويحدثون الرجّة النفسيّة اللاّزمة لإعادة الشباب إلى أحد شيوخ الكرة التونسيّة.

مكتبة الفكر الجديد

كان الجميع يرى أمامه العصفور النادر. وأخيرا تفطّن إليه الأحبّاء والغيورون على الاتّحاد التونسيّ.

ومن استمع إلى الكلمة الموجزة التي ألقاها عماد بلخوجة أمام المشاركين في الجلسة العامّة الأخيرة منذ يومين لاحظ ولا شكّ أنّ الفريق مقبل، إذا وجدت التصوّرات المقدّمة طريقها إلى التنفيذ، على ثورة حقيقيّة تنتقل به فعلا إلى مصاف الفرق العالميّة. وما ذلك بعزيز على فريق يزخر بالطاقات الخام الشابّة الموهوبة ويحظى بحبّ جماهير العاصمة والتفافهم حوله.

لقد نبّه رجل الأعمال الشابّ أنّ مستقبل كرتنا في الاحتراف وفي الاستثمار الرياضيّ وتحديث أساليب التسيير والتمكين للفريق حتّى تكون له موارد ذاتيّة قارّة من دون انتظار دعم سلطة الإشراف من وزارة أو بلديّة تونس أو الهبات التي يضحّي الأنصار الميسورون لتقديمها في هذه المناسبة أو تلك. لذلك اندهش الجميع حين طلب عماد بلخوجة من شيخ مدينة تونس ورئيس بلديّتها، ومن ممثّل السيّد وزير الشباب والرياضة، توجيه المنحة السنويّة إلى الفرق الضعيفة في العاصمة مثل الهلال الرياضيّ والزيتونة والاتّحاد المغربيّ. وقد اعتبر هذا القرار إعلانا عن مرحلة جديدة في تاريخ الفريق قوامها التعويل على النفس والبحث عن صيغ في التمويل جديدة وتخفيفا من العبء على الدولة من دون التخلّي عن المهام النبيلة للرياضة ولكرة القدم.

ولكنّ الدهشة سرعان ما زالت من الوجوه وملأ التصفيق القاعة حين أعلن أنّ مجموعة العشرة التي تترشّح معه يلتزم كلّ واحد فيها بدفع خمسين ألف دينار من حرّ ماله، أو من الأموال التي يضمن جمعها من المتبرّعين من رجال الأعمال، حالما يقع انتخابهم. أما الرئيس، أي عماد بلخوجة، فكانت مساهمته السخيّة بمقدار مائتي ألف دينار. وهو

مكتبة الفكر الجديد

ما يعني بعمليّة حسابيّة بسيطة أنّ الميزانيّة من لحظة الانتخاب ستبلغ لأوّل مرّة في تاريخ الفريق أكثر من نصف مليار من الملّيمات من دون اعتبار موارد أخرى ثابتة للفريق مضمونة ولكنّه لم يفصح عنها.

وعلينا ألّا ننسى أنّ عماد بلخوجة كوّن ثروته بعرق جبينه ولكن بالخصوص **بالأساليب الجديدة في التسيير التي تلقّاها في إحدى** الجامعات الكنديّة المشهورة في مجال التصرّف والمحاسبة وإدارة الأعمال. لقد تبيّن الآن للجميع أنّ اجتماع الثقافة العقلانيّة الناجعة إلى **المال، ومعرفة مصادره وحُسن توظيفها هو الطريق الملكي الذي وعد** عماد بلخوجة بالسير فيه لإنقاذ الفريق العريق ممّا تردّى فيه.

ولم يكن شعار: «الخمسينيّة تبدأ الآن»، الذي رفعه عماد بلخوجة والمجموعة التي ترشّحت معه إلاّ إعلانا عن وجود مشروع جدّيّ للنهوض بالفريق حتّى يحيي خمسينيّته، بعد سنتين، بسجلّ حافل من الألقاب التي وعد بها في ثقة نادرة بالنفس. وهو، علاوة على ذلك، إعلان عن دخول عهد جديد هو عهد الاحتراف، أو لنقل عهد نوع من الاحتراف يستبق تردّد سلطة الإشراف في تقنينه مفضّلة عليه قوانين بالية لم تعد توافق حتّى واقع كرة القدم التونسيّة.

إنّه التحدّي الكبير وله اسم واحد: عماد بلخوجة يبدأ خمسينيّة الاتّحاد التونسيّ من الآن.

حسن عبيشو

لم يكن البورتريه في ما لاحظت يحترم قواعد هذا النوع الصحفيّ الصعب والدقيق، ولكن هذا ما كان متوافرا في صحافتنا. فترى الصحافيّين يمزجون بين التعليق والرأي والبورتريه والريبورتاج. بيد أنّ المديح الذي كاله حسن عبيشو آنذاك للرئيس الجديد للاتحاد التونسيّ لم يكن من باب التزلّف، ففي ما قاله كثير من الصواب.

مكتبة الفكر الجديد

وأتذكّر أنّني اتّصلت بالكثيرين، وأنا أحقّق في ما وقع لباغندا، فرسمت صورة واضحة عن هذا الرئيس الشاب الذي غيّر فعلا كلّ شيء في الفريق منذ أن استلم مقاليده مع مجموعته المسيّرة. وليس أدلّ على هذا من حصول الفريق بعد سنتين على ما كانت الصحف وجماهير النادي تحبّ أن تسمّيه خماسيّة القرن. وهي ألقاب خمسة محلّيّة وإفريقيّة لم تجتمع في سنة واحدة لفريق واحد عبر تاريخ كرة القدم التونسيّة. فثمّة شيء مّا تغيّر في الاتّحاد وفي كرة القدم التونسيّة منذ صعود عماد بلخوجة إلى دفّة التسيير. وإحقاقا للحقّ، إنّه علامة فارقة في تاريخ اللّعبة الشعبيّة الأولى في بلادنا.

بحثا عن الأصول. لم ألتقِ شخصيّا طيلة حياتي عماد بلخوجة. غير أنّني أعرفه مثل عامّة الناس من خلال التلفزيون والصحف. لم أفكّر حتّى وأنا أحقّق في قضيّة باغندا في اللّقاء به لأنّه استقرّ في ذهني رغم كلّ شيء أنّه مجرم حقيقيّ، وإن لم يُثبت أحد جريمته أو جرائمه. قد تكون الصورة في ذهني خاطئة ولكنّ المعلومات التي جمعتها عنه تصبّ في هذا الاعتقاد. وإحقاقا للحقّ أيضا، قد يكون الشخص الأوّل الذي التقيته في إطار استقصائي لما وقع لباغندا هو الذي أكّد لي موقفي النهائيّ من عماد بلخوجة إضافة إلى بعض المواقف الشخصيّة من يساريّ تخرّج حديثا من الجامعة وساحات النقاش فيها محمّلا بأفكار شديدة العداء للرأسماليّة ولأصحاب رؤوس الأموال قبل أن يصبح منهم. نعم أصبحت منهم واقعا وعقلا ولكنّ قلبي ظلّ على اليسار.

وفي المقابل زرت يوما الأستاذ مصطفى الشريف في مكتبه بـ«باب البنات» قبالة المحكمة الابتدائيّة. كان ذلك بعد أسبوعين تقريبا من الحادثة التي نسيها الجميع قبيل صعود بن علي للحكم بانقلابه «الطبّي» على بورقيبة. لم أكن أعرفه بل سمعت اسمه يُتداول في المقهى على أنّه

مكتبة الفكر الجديد

من عناوين فشل الاتّحاد التونسيّ. وأنّه لو بقي على رأس الهيئة المديرة لكانت الخمسينيّة حزينة ومن دون ألقاب.

كان أوّل لقاء لي معه إثر تنقيبي في الصحف القديمة حين تردّدت على مركز التوثيق الوطنيّ يوميّا طيلة عشرة أيّام على ما أذكر. وأرجّح أنّني صوّرت فيه نسخة من البورتريه ومقالا عن مجريات الجلسة العامّة العاصفة للاتحاد التونسيّ.

قدّمت نفسي على أنّني صحافيّ يريد أن يكتب تاريخ الاتّحاد التونسيّ بشكل مختصر لأنّني ابن حيّ باب الجديد ومن أنصار الفريق منذ نعومة أظفاري وأحبّ أن أسدي، في حدود إمكانيّاتي، خدمة لفريقي المحبوب. فقد لاحظت أنّ الخمسينيّة مرّت من دون اهتمام يذكر بتاريخ الجمعيّة وإنجازاتها. لم يكن ثمّة مجال للحديث معه عن باغندا ومصارحته بحقيقة عملي الاستقصائي. ثمّ إنّني كنت أريد أن أصل إلى الأسباب الحقيقة لهزيمته في الانتخابات منذ سنوات ثلاث، لكي أفهم السياق الذي وقعت فيه حادثة باغندا. كانت مجرّد معلومات لا علاقة لها واضحة بالقضيّة الأصليّة ولكن ممّا يعرفه الصحافيّون الاستقصائيّون أنّ السيرَ في اتجاهات مختلفة متباينة ومتناقضة، وتبدو لأوّل وهلة بعيدة، أمرٌ لا مناص منه في مثل هذه الأعمال. ففي النهر ما لا نجد في البحر.

رأيت على وجهه بعض الاستبشار والرغبة في مساعدتي في مهمّتي. تحدّثنا مطوّلا عن كلّ شيء ولا شيء. كنت أنتظر الفرصة المناسبة لأسأله عن عماد بلخوجة متصنّعا تدوين المعلومات التي يقدّمها لي.

ولمّا باغته بالسؤال الذي يهمّني أكثر من غيره تنهّد. لم أسأله عن الرئيس الشاب. اصطنعت البلاهة متسائلا عن سبب تخلّيه عن رئاسة الجمعيّة قبل سنتين من الخمسينيّة رغم الشرف الذي كان سيحظى به

مكتبة الفكر الجديد

وهو رئيس في مثل تلك المناسبة. كان سؤالي كالقادح الذي أشعل كتلة من هشيم الغبن مكبوتة داخله.

- «لم أتخلّ عن هذا الشرف والواجب... ولكنّ الكلاب لم تترك لأسيادها الفرصة... علّمته الرماية فلمّا اشتدّ ساعده رماني. أناس لا ذمّة لهم ولا تقدير لمن سبقهم. حتّى في حفل الخمسينيّة لم يدعُني، لا هو ولا عصابته، كأنّي غريب عن الجمعيّة. ولكنّهم لن يقدروا على محو اسمي من تاريخ جمعيّتي... إنّه جيل المال الفاسد وشراء الذمم والتعويل على المجرمين والسفلة وصنع التكتّلات والأحلاف... يوهمون الناس بخدمة الفريق وهم يخدمون أنفسهم. الاتّحاد التونسيّ مدرسة عريقة في الأخلاق والروح الرياضيّة وحبّ الوطن. ولكنّهم داسوا هذه القيم الأصيلة باسم تطوير الفريق والاستعداد للدخول إلى عالم الاحتراف. ألم ترَ ماذا فعل بالرياضات الفرديّة جميعا وقد صنعت أبطالا كثيرين لتونس ورفعت علمنا المفدّى في الألعاب الأولمبيّة والمحافل الإفريقيّة والمتوسّطيّة؟ لقد قضى عليها ذلك المجرم وعصابته من الطمّاعين قضاء مبرما باسم توجّه الفريق إلى الألعاب الجماعيّة وضرورة الاختصاص للنوادي الكبرى. أين فريق الملاكمة بألقابه، وفرق العدو والرماية والقفز بالزانة بأمجادها، والمصارعة بأبطاله، ورمي الرمح ورمي الجلّة والمطرقة والقرص والرمح والسباحة بانتصاراتها التاريخيّة، والمبارزة بالسيف والجمباز وكمال الأجسام والقفز العالي والقفز الطويل والغوص والألواح الشراعيّة...وغيرها وغيرها؟ هل تقتصر الرياضة على كرة القدم وكرة اليد والكرة الطائرة وكرة السلّة؟ أين فريق كرة الماء وفريق الرقبي؟ ما هذه الثورة التي بشّر بها ذاك النذل. رمى الشباب في الشارع واقتصر على الألعاب التي تجلب المال لرجال الأعمال دون احترام للدور التربوي للرياضة. لقد انتهى كلّ شيء أصبحنا في عصر نقامر فيه بالرياضيّين لنربح رهانات بائسة فيصفّق لنا الرعاع والدهماء...».

صمت كمن يتذكّر في ألم ثمّ أردف:

مكتبة الفكر الجديد

- «أتعرف ماذا فعل في تلك الجلسة العامّة الأولى قبل تنصيبه إمبراطورا على عرش الاتّحاد التونسيّ؟ لقد اشترى ابن الكلب الناس بالأموال ليقاطعوا الجلسة العامّة رغم حضور والي تونس وشيخ المدينة رئيس البلديّة ووزير الشباب والرياضة بنفسه. علمت بذلك في ما بعد. كان هدفه الخبيث واضحا: ألّا يحصل النصاب القانونيّ في جلسة انتخابيّة. لقد ترشّح بموافقتي لأنّني كنت أعتبره بمثابة ابني وسمعت عنه كلّ الخير في فرع كرة اليد. ثمّ، وهذا الأهمّ، أنّ تلك المقاطعة كانت بمثابة التصويت له قبل أن تترشّح عصابته معه. فهو يريد ضمان الانتصار ولو بالرشوة ومخالفة الميثاق الرياضيّ. ماذا تنتظر من داهية مناور مثله؟ أنا رجل قانون ومن مدرسة أخرى، مدرسة تربّت على الوطنيّة والنزاهة ونظافة اليد، اسأل عنّي أروقة المحاكم وشيوخ المحاماة! اسأل عنّي رؤساء الجمعيّات الرياضيّة وقدامى أبناء الاتّحاد! لا مكان لي مع هؤلاء السفلة المتسلّقين المتاجرين بالرياضة».

توقّف مصطفى الشريف قليلا، ثم أضاف وفي صوته نبرة أسى:

- «لا أخفي عليك أنّني غضبت كثيرا من هزيمتي النكراء في تلك الانتخابات، ومن التنكّر لمن خدموا النادي بإخلاص. ولكنّني بعد مدّة هدأت وقلت في نفسي لا فائدة من الغضب فلكلّ عصر رجاله الذين يصنعونه ويعبّرون عن روحه الحقيقيّة. أنا من رجال الحركة الوطنيّة التي لم تفصل الرياضة عن صنع مجتمع جديد شعاره العقل السليم في الجسم السليم. أمّا هو ومجموعته فأبناء جيل أخفقنا في تربيته، لا شعار له إلاّ المال ثمّ المال ثمّ المال، أمّا القيم الوطنيّة والمبادئ السامية والأخلاق الرفيعة فهذه أمور يسخرون منها... هذا الذئب الشابّ حوّل النادي إلى متجر مربح ولكنّ قوانين السوق ستدمّره وتدمّر المتجر بمن فيه. لقد انتهت الرياضة التي أعرفها... انتهت كرة القدم التي عرفتها...»

لم أكتب بطبيعة الحال الكتاب المزعوم عن الاتحاد التونسيّ ولكنّي

مكتبة الفكر الجديد

بعد هذا اللّقاء مباشرة تساءلت إن لم يكن باغندا من ضحايا هذا العهد الجديد لكرة القدم التونسيّة، عهد عماد بلخوجة الزاهر المنذر بحرق المتجر بمن فيه؟ ألم يكن هو من أشعل النار؟

كانت تساؤلات، مجرّد تساؤلات لا شيء يدعّمها في الواقع ولا دليل عندي لتأكيدها أو دحضها. ولكن وقر في ذهني أنّ ما وقع لباغندا على صلة متينة بهذا الذي ذكره الأستاذ الشريف من دون أن أستطيع تحديد العلاقة المباشرة أو غير المباشرة. وعلى كلّ حال كنت وقتها في بداية الاستقصاء ولم يكن من السهل الوصول إلى بناء حكاية باغندا بناءً واضحا متماسكا.

الجلسة العامّة الفاصلة. لم يكن لي ما يدعّم أو يكذّب حديث الأستاذ عن عماد بلخوجة ومن يسمّيهم عصابته. غير أنّ البحث قادني إلى ريبورتاج وجدته أيضا في صحيفة «المساء» تناول ما دار في الجلسة العامّة. وهو ريبورتاج غير ممضًى يمتدّ على نصف صفحة من الجريدة ذات الصفحات كبيرة الحجم مثل صحيفتنا. ونظرا إلى طول هذا الريبورتاج نسبيّا أنقل منه فقرة مطوّلة وضعت لها الجريدة عنوانا فرعيّا هو «**تنافس حادّ بين الخبرة والطموح**» وقد جاء فيها:

وإثر المناقشة الصاخبة للتقرير الأدبيّ من طرف الأحبّاء والجمهور الغفير الذي حضر الجلسة العامّة حان موعد الحسم لانتخاب الهيئة المديرة الجديدة. وقد أحال السيّد الوالي الكلمة في البداية لرئيس الهيئة المتخلّية الأستاذ المحامي مصطفى الشريف. فذكّر بإنجازات الهيئة السابقة في تأطير جزء مهمّ من شباب العاصمة وغرس المبادئ الرياضيّة السامية في وجدان الناشئة. وعرّج على النقد الشديد الموجّه إلى التقرير الإداريّ مبرزا أنّ الفريق لا يمرّ بأزمة كما يدّعي أصحاب

مكتبة الفكر الجديد

النفوس المريضة والمصطادون في المياه العكرة. واستدلّ على ذلك بالميداليّات والألقاب العديدة التي تحصّل عليها شبّان الفريق في مختلف الرياضات. وأكّد في هذا الصدد على أنّ الفريق منبت للأبطال ومرعى للمواهب الناشئة من أجل تمويل المنتخبات الوطنيّة المختلفة بالنجوم والأبطال ورفع الراية الوطنيّة في المحافل الدوليّة. ثمّ أشار إلى أنّه لا ينكر النتائج السلبيّة لفرع كرة القدم ومروره بفترة فراغ دامت أكثر من اللّزوم لكنّه أرجع الأمر إلى ما يتعرّض له الفريق باستمرار من مظالم تحكيميّة ألجأت الهيئة المديرة إلى التهديد بالانسحاب من البطولة. وثمّن في هذا المجال حرص راعي الشباب فخامة الرئيس المجاهد الأكبر على إنصاف الفريق بالعفو عنه ومنع دحرجته إلى الدرجة الثانية مجنّبا بحكمته المعهودة العاصمة وكرة القدم موجة عارمة من الغضب. وفي ختام كلمته دعا الأستاذ الشريف الحضور إلى انتخاب قائمة الاستمراريّة والروح الرياضيّة.

وحانت كلمة رجل الأعمال الشابّ السيّد عماد بلخوجة التي قوطعت مرارا بموجات من التصفيق تحت شعار «الخمسينيّة تبدأ الآن». فبدأ السيّد بلخوجة كلمته بالتأكيد على أنّ الفرق العريقة لا يمكنها أن تكون بمثابة جمعيّات للهواة الذين يلعبون الكرة من أجل الكرة بل هي مطالبة بأن تقدّم الفرجة التي يدفع لأجلها الناس أموالهم وبأن يحصدوا أكبر عدد ممكن من الألقاب. وقال في هذا الصدد كلامًا صفق له الحاضرون مطوّلا: «يتّهمنا الذين دمّروا الفريق بأنّنا نبحث عن الألقاب. فليكن واضحا للجميع نعم نحن مجموعة تقدّمنا لهذه المسؤوليّة وفي أذهاننا ثلاثة أهداف فقط: الألقاب أوّلا، ثمّ ثانيا الألقاب، وأخيرا الألقاب. نعد بذلك وسنحقّق وعدنا في الموسم القادم».

وفي هذا السياق قدّم السيّد بلخوجة برنامج الهيئة الجديدة إذا ما حظيت بثقة الناخبين وعدّدها في خمس مهمّات التزم بتحقيقها

مكتبة الفكر الجديد

خلال الموسم المقبل. أوّلها إثراء الرصيد البشريّ للفريق بانتداب أفضل اللاّعبين واختيار مدرّب في حجم الاتحاد التونسيّ توضع على ذمّته الإمكانات الضروريّة. وثانيها إدخال أساليب حديثة في التسيير بإعادة هيكلة الجمعيّة ووضع إدارة قارّة ناجعة ذات كفاءة عالية مع جلب الأموال والمستشهرين. وثالثها بناء فندق خاصّ بالفريق يجمع اللاّعبين ويعوّدهم على الانضباط ويخلق باجتماعهم طيلة الأسبوع قبل المقابلة جوّا مريحا أخويّا للعمل والكدّ والبذل. أمّا رابع المهامّ العاجلة كما قدّمها بلخوجة فهي الحصول على الثنائيّ للموسم القادم والشروع بداية من الموسم الذي على الأبواب في بناء فريق قويّ قادر على المنافسة الإفريقيّة والعربيّة. أمّا المهمّة الخامسة فهي إنشاء شبكة من خلايا الأنصار في مختلف المدن التونسيّة لبيع الاشتراكات وجمع مساهمات المشجّعين والسهر على تنظيم الجماهير وتأطيرها وجلبها إلى الملاعب لدعم الفريق ماديّا ومعنويّا. وأضاف بلخوجة في هذا الصدد أنّ الطموحات أكبر من هذا ولكنّ ما قدّمه هو الإجراءات الأوليّة التي لم تعد تنتظر وبها سيحقّق الفريق قفزته النوعيّة. وأكّد على آجال التنفيذ التي قدّر أنها لن تتجاوز شهر سبتمبر قبيل بداية البطولة حتّى يكون الفريق جاهزا من جميع النواحي. واستثنى من ذلك بناء الفندق الذي يتطلّب وقتا أطول لإنجازه واعدا بأن يكون جاهزا في أقرب وقت ودعا الجمهور إلى محاسبته في الجلسة العامّة المقبلة.

وفي الكلمة الثانية التي ألقاها السيّد عماد بلخوجة بعد نجاحه في الانتخابات مباشرة، وبفارق كبير في الأصوات يفصله عن قائمة الأستاذ مصطفى الشريف، توجّه بالشكر إلى كلّ من صوّت لقائمته وشكر سلطة الإشراف على دعمها الموصول للفريق. وأعلم الحاضرين بأنّ الاتّحاد التونسيّ سيتوجّه تدريجيّا نحو الألعاب الجماعيّة في عالم لم يعد يقبل من النوادي الكبرى أن تشتمل على كلّ شيء ولا شيء في الآن نفسه.

مكتبة الفكر الجديد

وانتهت الجلسة العامّة بتوجيه برقيّة ولاء وتأييد لفخامة المجاهد الأكبر الراعي الأوّل للرياضة في تونس والمناصر الأوّل للاتحاد التونسيّ، مع وعده بالعمل الدؤوب من أجل خدمة الرياضة التونسيّة ورفع الراية الوطنيّة.

الطريق إلى الرئاسة. لم يكن عماد بلخوجة من النكرات في الاتّحاد التونسيّ، فقد تحصّل معه فريق كرة اليد في الموسم الرياضيّ 1983 - 1984 بالخصوص على ثنائي البطولة والكأس. وتروي شهادات متطابقة أنّه استطاع عند إشرافه على الفريق خلال ثلاثة مواسم أن يفرض الانضباط على اللاّعبين ويعتني بوضعيّاتهم الاجتماعيّة ويحفّزهم على العمل الجادّ إضافة إلى انتدابه بوسائل خاصّة لمدرّب يوغسلافيّ من طراز رفيع شرع منذ تولّيه الفريق في تطهيره من اللاّعبين العاجزين عن الإضافة وتغيير أسلوب لعبه وتمكينه من المهارات اللاّزمة للخطط التكتيكيّة الجديدة التي لم تألفها كرة اليد التونسيّة. ومن التجديدات التي أدخلها بلخوجة مع المدرّب ستويكوفيتش توظيف معدّ بدنيّ ومساعد مدرّب لم يكن المنتخب الوطنيّ لكرة اليد يحلم بهما. وقد جعل ذلك عماد بلخوجة يتأكّد من أنّ الأموال التي تُصرف والظروف المناسبة التي تتوفّر للمدرّب واللاّعبين كفيلان بجعل النتائج الطيّبة أمرا طبيعيّا.

وقبل أن يترشّح بلخوجة لرئاسة الفريق كان يعلم أنّ هيمنة الأستاذ مصطفى الشريف، المسنود سياسيّا من الحزب الحاكم وسلطة الإشراف، تمثّل عقبة كأداء أمام تحقيق هدفه.

اشتغل على المسألة مدّة طويلة قبل الجلسة العامّة. وأوّل شيء قام به هو تقريب منير الزرقوني منه. وهو شخص أمنيّ ومخبر معروف في جهات باب منارة والمركاض وباب الجديد وسبق له العمل في باب

مكتبة الفكر الجديد

سويقة والحلفاوين وباب الخضراء وباب سعدون، يتمتّع بخبرة واسعة في تسقّط الأخبار وترويض المجرمين وأصحاب السوابق العدليّة. كانت مهمّته الأولى نقل أخبار الفريق وجمهوره وما يدور في الكواليس أوّلا بأوّل. ومكّن ذلك عماد بلخوجة من التأكّد من أن مشجّعي الفريق غاضبون شديد الغضب ممّا آل إليه الوضع. فانتقل إلى المرحلة الموالية وهي تأجيج غضب الأنصار والتحريض على الأستاذ المحامي في الملاعب والمدارج خلال مقابلات الاتّحاد التونسيّ سواء في كرة القدم أو كرة اليد أو السلّة أو الطائرة.

ولمّا أضحت الثمرة متعفّنة وحان سقوطها انتقل إلى تسريب أسماء قريبة من الفريق وشخصيّات وطنيّة لتعويض مصطفى الشريف على رأس الهيئة المديرة. فاتّجهت الأنظار إلى تلك الشخصيّات ليتوالى بعد أسبوع في المقاهي والملاعب الكلام عن عجز الاسماء المقترحة عن إنقاذ الفريق. أدخل ما قام به بلخوجة من خلال شبكة العلاقات التي يتحكّم فيها منير الزرقوني ومن وظّفهم، الشكَّ في الرأي العام الاتّحاديّ وبعث اليأس في نفوس أكثر المشجّعين تعصّبا، حتّى خال الجميع أنّ الاتحاد التونسيّ انتهى ولن تقوم له قائمة إلى يوم يبعثون.

تواصل هذا الاعتقاد حتى موعد الجلسة العامّة. ولم يحصل النصاب. أكّدت جميع القرائن أنّ حالة اليأس التي نشرها بلخوجة إضافة إلى شراء الناخبين ليتغيّبوا عن الجلسة العامّة في انتظار إيجاد البديل في أقرب وقت هما من صنيع الذئب الشاب الطامح لرئاسة الفريق.

ولئن مثّل تأجيل الجلسة العامّة صدمة لبعض المشجّعين ولسلطة الإشراف نفسها، فإنّ الأمر كان مدبّرا بإتقان على الأرجح. فقد كتبت الصحف عن أزمة الاتحاد وفقدانه لشعبيّته. عندها ظهر اسم المسيّر الوحيد الذي استطاع تحقيق نتائج باهرة للاتحاد التونسيّ، المسيّر الشابّ رجل الأعمال الذي صنع فريقا قويّا في فترة وجيزة، عماد بلخوجة.

مكتبة الفكر الجديد

عمل منير الزرقوني على إرسال وفود من جماهير الأحياء إلى بلخوجة متوسّلين إليه الترشّح لإنقاذ الفريق واستعدادهم للوقوف وراءه لدعمه ونصرته. هذا كلّ ما في الحكاية. صارت الطريق معبّدة أمام المنقذ الشابّ لينتقل من الإشراف على فرع كرة اليد إلى رئاسة النادي كلّه.

شذرات من سيرة الرئيس. يعرف من درس مع بلخوجة في المعهد الصادقيّ أنّه كان مثالا في الذكاء والخبث. كان ينجح في الانتقال من سنة إلى أخرى دون أيّ جهد يبذله. لم يكن يحبّ إلاّ مادّة الرياضة التي يحضرها بملابس رياضيّة من أرقى الماركات العالميّة ويمارسها خارج المعهد في الاتحاد التونسيّ كلاعب منسّق في فريق كرة اليد. أمّا بقيّة الموادّ فهو يبحث باستمرار عن الفرص للتغيّب عنها بتعلاّت مختلفة. وما أسهل ما كان يحصل، بعد الغيابات المتكرّرة، على بطاقة الدخول بعذر شرعيّ بل ما أسهل ما كان يحصل على أعداد معقولة في جميع الموادّ. فقد استطاع أن يكوّن شبكة من التلاميذ الذين يكتبون له مختلف الفروض والاختبارات والامتحانات بمقابل وأحيانا على حساب اختباراتهم هم. ولم يتوقّف حمار الشيخ إلّا في امتحان شهادة الباكالوريا الذي أجراه مرّتين دون نجاح بل حرم في المرّة الثانية من اجتيازه لمدّة خمس سنوات بعد ثبوت محاولة الغشّ في المناظرة الوطنيّة. ولكنّه انقطع إثر ذلك عن الدراسة ليظهر بعد ثلاث سنوات زاعما أنّه يحمل شهادة في التصرّف والمحاسبة وإدارة الأعمال من جامعة كنديّة.

كان معروفا في المدرسة بعناده وكثرة تشويشه في القسم وخصامه في الساحة ومعاركه التي ينتهي في الغالب منتصرا فيها رغم ضعف بنيته الجسديّة مقارنة بمنْ يتخاصمون معه. ومردّ ذلك إلى جرأته وإقدامه، واعتماده أحيانا على من يشتريهم بالمال من أصحاب العضلات المفتولة للدفاع عنه. وقد سمّاه أترابه في مرحلة ما من دراسته الثانويّة بـ«البرنس»

مكتبة الفكر الجديد

لأنّه يتصرّف فعلا كأمير له حرّاس ويمتلك الأموال ولا يقف أمامه أحد. وكان إذا وضع شخصًا في رأسه فعل المستحيل ليجعل حياته مرّة.

اتّخذ له خارج المدرسة عصابة من أبناء حيّه، يدفع لهم الأموال ويشتري لهم السجائر والخمور والحشيش، لاستعمالهم في المعارك التي كانت تشبّ بين الأحياء من دون أن يظهر في الصورة.

وقد استغربت شخصيّا هذه الصورة التي قدّمت لي عن عماد بلخوجة ورأيت أوّل الأمر أنّها صورة مبالَغ فيها وكنت أتساءل عن مصدر هذه الأموال الطائلة التي كان يصرفها لتحقيق مآربه وتجنيد الشبّان لتحقيق مختلف أغراضه. بيد أنّ المسألة أضحت أوضح في ذهني حين علمت أنّه ابن أمين صانعي «الشاشيّة»[1] بسوق الشوّاشين المعروف لدى الجميع في المدينة العتيقة بالحاج بلخوجة، سليل عائلة ذات مجد وحَسَبٍ ونَسَب ورث مهنته أبا عن جدّ منذ نشأت هذه السوق.

ازدهرت صناعته وتجارته ازدهارا لم ينقطع البتّة رغم الكساد الذي أصاب صناعة «الشاشيّة» منذ أن أصبح اللّباس التونسيّ عامّة محتقَرًا لدى التونسيّين. لكنّ الحاج بلخوجة ظلّ يسيطر على القطاع ولم يتوقّف دكّانه عن العمل يوما بفضل صنع «الكبّوس»[2] وتصديره إلى ليبيا حتّى أنّه كان قبيل وفاته يكلّف صنّاعا آخرين بإعداد جزء من الطلبيّات حين تكون كبيرة تفوق طاقة دكّانه على الإنتاج. وكم ألحّ الحاج على ابنه ليحلّ محلّه في الدكّان ويشرف على هذه الصناعة الشريفة الموروثة فيديم مجد العائلة ومكانتها الرمزيّة. ولكن لمن تقرأ مزاميرك يا داوود.

لم يكن الحاج بلخوجة يرفض لابنه الوحيد أيّ طلب، فهو آخر العنقود الذي طلع في شجرة مباركة، بعد ستّ بنات. كان أبوه سليل

(1) قبّعة رجاليّة من الصوف المدبوغ باللّون الأحمر عادة وهي من اللّباس التقليديّ التونسّي.
(2) غطاء للرأس شبيه بالشاشيّة.

مكتبة الفكر الجديد

آل بلخوجة فأراد لابنه أن يرثَ اسم العائلة وصناعة الأجداد وكانت أمّه قيروانيّة من عائلة العلاّني وتحديدا من فرعها المعروف بتجارة الأقمشة. لقد جمع المجد من طرفيه: مجد العائلات «البلديّة» من ناحية، وشرف محتد ورثة تاريخ القيروان من ناحية أخرى.

أرسل الأب ابنه إلى كندا وأغدق عليه الأموال بعد أن أقنعه بأنّه جادّ في الحصول على شهادة من ذلك البلد تعلي من شأنه وشأن العائلة. لم يقتنع الحاج بلخوجة بذلك ولكنّ الشابّ، ولعلّه كان جادّا، أفهمه أنّ خلطة السوء في تونس هي التي تمنعه بطريقة أو بأخرى من الانكباب على الدراسة. أكّد له أنّه فعلا يريد تغيير نمط حياته بعد أن شرح اللّه صدره. وضع الحاج بلخوجة شرطَيْن للموافقة، قبلهما عماد من دون تردّد: أن يكون عند رأسه عندما يتوفّاه اللّه فيقطع كلّ شيء هناك ليعنى بأمّه وأخواته البنات إلى أن تستقرّ كلّ واحدة منهنّ في بيت الزوجيّة، وأن تصطحبه إحدى أخواته لتسهر على راحته في بلاد الغربة. كان قبول عماد لشرطَيْ الأب بمثابة الدليل على أنّ الفتى فعلا يفكّر في دراسته ومستقبله. ولمزيد التأكّد وضعَ أمامه المصحف الشريف وأقسم عليه أمام أفراد العائلة جميعا.

عاد بعد سنوات ثلاث بشهادة أراد الحاج تعليقها في دكّانه ولكنّ الابن رفض. ذهب إلى مترجم محلّف ليتأكّد من أنّها شهادة علميّة فوجدها صحيحة. ويبدو أنّها شيء شبيه بشهادة تقنيّ سام في ميدان متّصل بالتصرّف والمحاسبة والماليّة.

عند عودته من كندا رفض مرّة أخرى مهنة الأجداد وصنعتهم، واختار رغما عن رغبة أبيه أن يشتغل في مكتب وساطة جمركيّة في الاستيراد والتصدير. ومن هنا، على عكس ما ينتظر، جاءت ثروته وبدأ مليارُه الأوّل.

مكتبة الفكر الجديد

المليار الأوّل. الحقّ أنّني لم أحقّق كثيرا في هذه المسألة رغم أهمّيتها في التعرّف على ثروة عماد بلخوجة ولكن ليس من الصعب على من يريد التثبّت أن يعود إلى كثير من الحيثيّات التي نُشرت في الصحف التونسيّة في حينها وله أن يتعمّق الحكاية مع أحد المحامين الذين رافعوا في القضيّة المعروفة بـ«قضيّة غودو».

كان صاحب مكتب الوساطة الجمركيّة الذي اشتغل فيه عماد بلخوجة من المتّهمين في هذه القضيّة. فقد شارك مع رجال أعمال ووزراء وأعوان من الجمارك التونسيّة وأطراف متعدّدة في عمليّات تهريب وتزييف وثائق واحتيال خطيرة درّت عليهم أموالا طائلة بطرق غير مشروعة أضرّت بنافذين في البلاد وبمواطنين عاديّين في تلك الفترة، أي سبعينات القرن المنصرم.

وجد صاحب مكتب الوساطة نفسه مهدّدا بالإيقاف بعد أن بدأت حبّات السبحة تكرّ في التحقيق. تأكّد من أنّ دوره آت لا محالة. كان يعرف أنّ جميع أسراره تحت تصرّف الشاب الذكيّ عماد. صارحه بما ينبغي أن يصارحه به في هذا الشأن وأمدّه بحقيبة محكمة الغلق بأرقام سرّيّة طلب منه إخفاءها في مكان آمن لأنّها تحتوي على مليار من الملّيمات التونسيّة، ووعده بمكافأة تبلغ العشرة بالمائة من المبلغ حين يخرج من السجن.

خرج الرجل من السجن ولكن إلى القبر مباشرة. وكان هذا هو المليار الأوّل الذي وضع الشاب عماد بلخوجة عليه يده ولمّا يبلغ الخامسة والعشرين من العمر. فولّد منه بدهائه ثروة طائلة.

والواقع أنّ عماد بلخوجة لم يكن في حاجة إلى هذا المليار ليصنع ثروته. فالمال في العائلة كثير إذ وهب الحاج بلخوجة ثروته لابنه من دون أخواته من البنات وسجّل جميع عقاراته باسمه «هبةً» حسب ما هو

مكتبة الفكر الجديد

موثّق في «دفتر خانة»[1]. أصبحت الثروة كلّها للابن ولكنّه لا يتصرّف فيها إلاّ بعد وفاة الأب.

كان نصيب الأمّ من ثروة عائلة العلّاني ضخما مهمّا سيذهب لا محالة جزء كبير منه إلى الابن المدلّل باعتبارين: أحدهما هو نصيب الأم من الثروة، والثاني هو نصيب ابنة خالته منها. فأمّه واختها هما الوريثتان الوحيدتان لإمبراطوريّة الأقمشة. ومن الطبيعي أن تعود الثروة من جهة الخالة لابنتها التي سارع عماد بلخوجة إلى الزواج منها فور حصوله على مليارة الأوّل.

عالم من الفتنة والسحر. لم يعوّل عماد بلخوجة على أموال العائلة لجمع ثروته الخاصّة. فهذا الرجل في ما بدا لي مزيج من الحظّ الذي أسعفه، ومن المغامرة التي بدونها لا نجاح في ميدان الأعمال، ومن الحدس القويّ الذي يقوده في التخطيط لاستثماراته. كان له أنف قنّاص يشتمّ به الفرص، وهو إلى ذلك يتمتّع بنباهة وحسن تدبير ميّزا أعماله. إنّه فعلا رجل أعمال يثير الإعجاب إجمالا رغم الشبهات التي تحوم حول مشاريعه مثلما حامت حول مليارة الأوّل.

فمن المدهش أنّه قلّما يصرف أموالا في المشاريع التي ينجزها. فهو معروف في أوساط الأعمال بأنّه ينطلق دائما من الصفر ولكنّه قادر، ربّما متأثّرا في ذلك بمهنة أبيه وأجداده، على وضع شاشيّة هذا على رأس ذاك. ويستشهد الناس، وهم في سياق إعجاب، لا إدانة أو تهكّم أو حسد، بالمشروع الأوّل الذي عُرف به. فقد تفطّن قبل العديد من أصحاب المقاولات إلى أنّ منطقة «فجّ الرّيح» الجبليّة وما جاورها هي أقرب المناطق للتوسّع في العاصمة بعد أن بدأت تضيق بسكّانها

(1) عبارة فارسيّة تعني «مكتب» ويقصد بها «مكتب الأملاك العقاريّة».

مكتبة الفكر الجديد

وتحتاج إلى مقاسم جديدة للبناء السكني ولإنشاء أحياء راقية بعد أن تقوّت الطبقة الوسطى في تونس إثر الانفتاح الاقتصاديّ في عهد الوزير الهادي نويرة.

لم يكن سنّه حين دخل عالم المقاولات يتعدّى الخامسة والعشرين. احتقره قروش الميدان ولم يتنبهوا إليه. كانوا يتنافسون في ما بينهم لبسط هيمنتهم على القطاع بجشع لا حدود له. وفي الأثناء كان الشاب الذي ليس له ما يخسر يخطّط ويتقدّم بخطى حثيثة. فعلى العكس منهم كان خارج لعبة المنافسة ودقّ العظام. إنّه غير معروف في السوق!

كانوا ينتظرون الصفقات العموميّة ليبرزوا قدراتهم على التنافس. أمّا عماد بلخوجة فأحاط نفسه بمجموعة من المحامين الشبّان ممّن درسوا معه وكانوا الأوائل في دراستهم. لم ينهوا بعد فترة التدريب في المحاماة لكنّه راح يلتقي بهم في مكتب صغير كان من المخازن التي يستعملها الحاج بلخوجة لتعليب السلع قبل تصديرها إلى ليبيا.

بدأ يجمعهم على سبيل استحضار حكايات الطفولة والمراهقة. ولمّا توطّدت المودّة بينه وبينهم صارحهم بفكرته. كان يريدهم مستشارين قانونيّين له وهو مستعدّ لدفع أجر شهريّ لكلّ واحد منهم مقابل خدماته. فسّر لهم أنّهم سيكبرون معا فتعاهدوا على العمل سويّا.

أمّا الاستثمار المربح الثاني الذي قام به عماد بلخوجة فهو تكوين شبكة من الموظّفين في أملاك الدولة ودفتر خانة ووزارة التجهيز ووكالة «الكنال» للسكن وإدارات أخرى عموميّة لها صلة بعالم العقارات والبناء والمقاولات توفّر له المعلومات مقابل إكراميّات مجزية ورشاوى وخدمات مختلفة. فالموظّف التونسيّ لا يعرف، في الأغلب الأعمّ، كيف يصل أوّل الشهر بآخره. وعلى كلّ حال ليست المعلومات التي يطلبها عماد بلخوجة معلومات سرّية أو خطيرة. إنّه يحتاج إلى بعض

مكتبة الفكر الجديد

الخرائط والعقّارات التي فيها إشكال مثل أملاك الأجانب التي لا يُعرف لها صاحب، ومشاريع وزارة التجهيز في البناء والتوسعة وما شابه هذا ممّا لا يمسّ، في نظر عماد بلخوجة، من السرّ المهني ولا من مصالح الناس. فهو حريص مع فريق مستشاريه القانونيّين على سلامة جميع الإجراءات. فإذا رأوا ما لا يتطابق مع القوانين الجاري العمل بها نبّهوه ونصحوه وكيّفوا له المطلوب على صورة سليمة مناسبة لا تضعه في مأزق.

في المرحلة الثالثة من خطّته شرع يتقرّب أكثر فأكثر من كبار المسؤولين في البنوك. كان يدعوهم إلى أفخر المطاعم ويصرف أموالا طائلة على لهوهم وقصفهم. ثمّ اكترى بيتا فخما بضاحية قرطاج قبالة البحر. مكان يحوطه البحر والسحر والهدوء، يصلح للسهرات، أثّثه أحسن تأثيث وجعله حانة غير شعبيّة، ومخدعا لا يتردّد في تمكين الراغبين في لقاء حميميّ بعيد عن الأنظار من استعماله عند الحاجة. بدأ بالمسؤولين عن بعض فروع البنوك القويّة في تونس ثم تدرّج شيئا فشيئا إلى أصحاب القرار يغدق عليهم دون حساب ممّا رزقه اللّه.

وحين اكتملت ثالثة الأثافي عاد إلى أصدقائه القدامى ممّن كان يصرف على خمرهم وحشيشهم من خرّيجي السجون وأصحاب العضلات المفتولة فاختار التائبين منهم ومن علّمتهم تجارب الحياة التحكّم في ما وهبهم اللّه من قوّة بدنيّة. اختارهم بعناية فائقة وجعل لهم أجرا شهريّا وغيّر هيأتهم ببدلات أنيقة موحّدة ووضع عليهم مشرفا يسيّرهم كان من أخلص من خَبِرهم من الأوفياء المطيعين الذين يلتزمون بتنفيذ التعليمات من دون مناقشة. وكان دورهم سهلا بسيطا: توفير وسائل المتعة المختلفة لضيوف عماد بلخوجة، أما هو فلا يشرب ولا يدخّن ولا يميل إلى الحسان كثيرا إذ قلّما يرضى عن واحدة منهنّ.

وقد يسّرت له المعلومات التي استقاها من عيونه في وزارة التجهيز

مكتبة الفكر الجديد

اختيار أهمّ المشاريع في فجّ الريح الذي سيسمّى «المنار». ضبط له مستشاروه القانونيّون الأمور كأحسن ما يكون. ووفّر له أصدقاؤه من النافذين في القطاع البنكيّ التمويلات اللاّزمة. وربطوا الصلة بينه وبين مقاول مفلس لم تتبقّ له إلّا التجهيزات والآلات، فاكتراها منه وشرّكَهُ مقابل ذلك في نوع من المناولة والمساندة لمشاريعه بما أخرجه جزئيّا من حالة الإفلاس التامّ وحوّله في الواقع إلى موظّف عنده.

ربح أموالا طائلة من دون أن يدفع تقريبا شيئا يذكر. وفي غفلة من الجميع أصبح نجم المقاولات التونسيّة الذي لا يُنافِسُ أحدًا، ولكنّ أعمالَه ناجحةٌ. ظلّت ثروته تكبر إلى أن أضحى رقما صعبا في عالم المقاولات التونسيّة. حينها بدأ يلفت الانتباه وشرع الحسّاد والمنافسون يكيدون له. غير أنّهم لا يعرفون دهاء عماد بلخوجة. ففي فترة وجيزة عَلِم رجال الأعمال بأنّه فتح مصحّة خاصّة تفوق مساهمته فيها الخمسين بالمائة.

اقترح عليه أحد أفراد عائلة زوجته الموسّعة، وهو طبيب جرّاح مرموق من عائلة قيروانيّة ثريّة، إنشاء المصحّة. فقد عاين، بحكم المهنة، تهافت اللّيبيّين على المصحّات التونسيّة إضافة إلى تذمّر الميسورين من التونسيّين، وحتّى أبناء الطبقة الوسطى، من رداءة الخدمات في المستشفيات العموميّة. ولم تعد المصحّات الخاصّة القليلة الموجودة آنذاك بقادرة على تلبية الحاجة.

لم يتردّد عماد بلخوجة لحظة. درس الملفّ وقرّر الاستثمار في هذا القطاع. استبعد اقتراح صهره بأن تكون المصحّة في القيروان. فالميسورون من أهلها غادروها ولا تربطهم بها إلاّ المناسبات والأعياد. أمّا اللّيبيّون فيفضّلون عاصمة الجنوب صفاقس لأسباب جغرافيّة، وبحكم التجارة التقليديّة مع هذه المدينة. لكنّ الصعوبات التي وجدها في صفاقس لم يكن قد حسب لها حسابا.

مكتبة الفكر الجديد

منذ المحاولات الاستكشافيّة الأولى تأكّد أنّه غير مرحّب به. فقرّر اللّعب في الميدان الذي يعرفه جيّدا أي «فجّ الريح» الذي تدلّ كلّ المؤشّرات على أنّه سيستحيل منارا مشعّا. كلّ المواصفات متوفّرة فيه ثمّ إنّه من المناطق والأحياء التي سيكون لها شأن في العاصمة الجديدة التي تمدّدت واتّسعت. قاده حدسه إلى ذلك، ثمّ كالعادة دعّم توجّهه بالدراسات التي أنجزت حول جغرافيّة مدينة أريانة ومدينة تونس والطرقات التي ستشقّها الدولة لربط العاصمة بأحيائها المحيطة بها. فلا ننسى أنّ الوصول إلى المطار ومغادرته يمرّان بالضرورة في جانب كبير منهما من الشارع الموازي للمنار، «فجّ الريح» سابقا.

والواقع أنّ عماد بلخوجة حين تولّى مقاليد الاتّحاد التونسيّ كان صاحب شركات عديدة كلّها لا صلة لها بثروة أبيه. إذ كان يملك مصنعين، أحدهما للمشروبات والعصائر وآخر للورق الصحّي، وهو أوّل مصنع في تونس مذ كان استعمال الورق الصحّي موقوفا على الأوروبيّين وقلّة من المتشبّهين بهم قبل أن يصبح في كلّ بيت تقريبا. وكلّ هذه الأنشطة تعود إلى الجانب الذي يبرع فيه عماد بلخوجة أكثر من غيره وهو إلباس الناس طرابيش بعضهم البعض.

أين الغطاء السياسيّ؟ كيف يصل رجل مغمور لم يكن له تاريخ في العمل السياسي والوطني إلى ما وصل إليه بلخوجة من دون غطاء سياسي؟. فرؤساء النوادي الرياضيّة في تلك الفترة لا يصلون إلى مناصبهم تلك إلاّ بمباركة سلطة الإشراف، وكانوا من المنتمين إلى الحزب الحاكم، فكيف وصل عماد بلخوجة ولم ينخرط في الحزب ولم يتردّد ولو على شعبة من شعبه التي تغطّي طول البلاد وعرضها؟

أذكر أنّني طرحت تساؤلاتي في إحدى جلساتي مع سي عبد الحميد التميمي في أحد المطاعم فلم أجد عنده جوابا ولا هو اهتمّ بالمسألة. بل اكتفى بأن قال لي مستفهما على سبيل الإنكار:

مكتبة الفكر الجديد

- «لمَاذا تسأل؟ هل رأيت رجلَ أعمالٍ معارضا؟ هل سمعت أنّه يموّل محمّد حرمل والحزب الشيوعي التونسيّ أو راشد الغنّوشي والاتجاه الإسلاميّ؟ كلّ رجال الأعمال أبناء حزب الزعيم».

كانت إجابة عامّة لم تشف منّي الغليل. كنت أبحث عن وقائع لا عن تخمينات وخطاطات مبهمة. ولكن بعد أقلّ من شهرين من الحادثة الشنيعة التي تعرّض لها باغندا زرت سي عثمان ضابط الأمن ابن حّينا في مقرّ عمله في مركز القرجاني. طلبت منه التدخّل للإسراع بقضاء شأن من الشؤون لدى وزارة الداخليّة. فقد بدا لي، عن صواب أو خطإ، أنّ للأمر صلة بنشاطي السياسيّ والنقابيّ في الجامعة. ولكن هذه قصّة أخرى.

يوم عدت لأخذ جواز السفر وجّهت سؤالي إلى سي عثمان حول عماد بلخوجة، وكان الاتحاد التونسيّ قد انتصر على فريقنا المفضّل قبل أيّام بهدف يتيم إثر ضربة جزّاء وهميّة أهداها الحَكم إلى الاتحاد في آخر اللّقاء.

بدأ سي عثمان بمهاجمة عماد بلخوجة مؤكدًا أنه اشترى حكم المباراة كالعادة ولكن لا أحد يجرؤ على التصريح بذلك. رأى أنّ كرة القدم في بلادنا أصبحت بلا طعم بما أنّ مصير البطولة والكأس يتحدّد قبل بداية اللقاءات والمنافسات والتصفيات.

حينها سألته لم يخشاه الجميع؟ أليس في نادينا وفي الترجّي والنجم الساحلي والنادي الصفاقسي رجال أعمال مثله نافذون؟ من أين يكتسب قوّته؟ هل له دعم سياسيّ من جهة ما في السلطة؟

ضحك سي عثمان وقال: «هذا الرجل داهية، وله قدرة خارقة على وضع الجميع في جيبه. فلئن لم ينتمِ يوما إلى الحزب الاشتراكي الدستوريّ إلّا أنه استطاع الحصول على دعم الحزب أكثر من المتشدّقين بالانتماء إليه والمتسلّقين الطامعين داخله. كيف لا يكون ذلك وقد

مكتبة الفكر الجديد

أهدى إلى الكتّاب العامّين للجان التنسيق الحزبيّ من بنزرت إلى مدنين، وعددهم يناهز العشرين، سيّارات فاخرة اقتناها لهم خصّيصا من الشركة المعتمدة لتوزيع السيّارات الألمانيّة في تونس. وهذا ما لم يقم به الحزب نفسه. فكيف تريد ألاّ يعاملوه معاملة خاصّة، وأياديه البيضاء يرونها كلّ يوم في سيّاراتهم التي لم يكونوا يحلمون بها؟ ألا تعرف المثل الشعبيّ القائل بأنّ إطعام الفم يدفع العين إلى الحياء وغضّ البصر؟ ثمّ ألا تعرف أنّ الولاة لا يتحرّكون إلاّ صحبة ممثّلي الرئيس الحزبيّين، أي المشرفين على لجان التنسيق؟ أرأيت إلى مَنْ يقدّم الرشاوى؟»

أما الرشوة الأخرى، وقد غلّفها بغلاف خدمة مدينته وأحياء المدينة العتيقة وقدّمها على أنّها من مساهمات الخواصّ في دعم مجهود الدولة، فهي توفير معدّات حديثة لتنظيف المدينة. إذ اجتمع مع والي تونس ورئيس البلديّة شيخ المدينة للنظر في حاجيات بلديّة تونس في مجال التنظيف والعناية بالبيئة. كانت طلباتهما ماليّة بالخصوص ودون ما كان سيقترحه عليهما. فما كان منه إلاّ أن وفّر لهما ما طلباه نقدا وأضاف إلى ذلك ثلاث شاحنات للتنظيف بالماء لم تعرفها بلديّة تونس أبدا، جلبها خصّيصا من إيطاليا، ومجموعة من الشاحنات التي تجمّع فيها الفضلات وتضغط عليها بصفة آليّة لتوفّر مساحة أكبر عند تكديسها داخل الشاحنة. وأضاف إلى ذلك كلّه مائة عربة صغيرة لتنظيف أنهج المدينة العتيقة وأزقّتها.

وقد أكّد لي سي عثمان أنّ هذا كلّه تمّ قبل ترشّحه للانتخابات ضدّ المحامي الأستاذ مصطفى الشريف. وأردف:

– «قل لي مَنْ كان سيعارض ترشّحه من المسؤولين الحاضرين؟ الوالي أم رئيس البلديّة أم الكاتب العام للجنة التنسيق؟ وماذا يساوي مصطفى الشريف مقارنة بعماد بلخوجة؟ وماذا قدّم غير الخطابات الرنّانة والوطنيّات الفارغة والروح الرياضيّة الكاذبة والاحتماء بالحزب الاشتراكيّ الدستوريّ؟»

مكتبة الفكر الجديد

كان عماد بلخوجة يستضيف في بيته مجموعات من الوزراء والقادة الحزبيّين، خصوصا من أعضاء اللّجنة المركزيّة للحزب، حسب ميولاتهم وانتماءاتهم الجهويّة والولاءات التي يلحظها لهذا الطرف أو ذاك داخل الحزب. فيقيم السهرات في ضيعته بمرناق التي تمسح حدود العشرين هكتارا.

أنجز حرّ فندقه الموعود. كان عماد بلخوجة قد وعد عند ترشّحه بتشييد فندق يخصّصه للاّعبين فيكونون جاهزين دومًا للتدريبات المطلوبة منهم. وبالفعل انتصب الفندق قائما في منطقة غابات قريبة من المركّب الرياضيّ الذي وفرته للفريق بلديّةُ تونس، منذ سنوات، لإجراء التدريبات مثلما وفّرت الحديقة (أ) للنادي الإفريقيّ والحديقة (ب) للترجّي الرياضيّ وبعض الحدائق الأصغر لفرق صغيرة مثل الزيتونة الرياضيّة وشبيبة العمران والهلال الرّياضيّ.

في وقت قياسيّ حدّد عماد بلخوجة الموقع اعتمادا على ما توفّر لديه من خرائط عن الأراضي البيضاء في العاصمة وضواحيها. اشتراه بالملّيم الرمزيّ على سبيل دعم الدولة للمشاريع السياحيّة. بدأت الأشغال بعد شهر من تاريخ الجلسة التي صعد خلالها إلى دفّة تسيير الاتّحاد التونسيّ حتّى شكّ الجميع بأنّ المشروع كان جاهزًا قبل الوعد به، ولا شيء يدلّ على أنّه مخصّص للاتحاد كما سوّق للحكاية.

وتتحدّث بعض الأوساط الماليّة عن أنّ الرئيس الشاب جمع تبرّعات وهبات وموادّ بناء من رجال الأعمال والمقاولين من مموّلي الفريق وأنصاره. بيّن لهم خطّته فانبهروا بالآفاق الواعدة التي فتحها للفريق وبالطريقة العقلانيّة في التخطيط والتسيير. عوّل كذلك على القروض المصرفيّة كالعادة. لكن بعض الألسن الناقدة ذكرت أنّ المشروع كلّه لم

مكتبة الفكر الجديد

يسجَّل باسم النادي وإن قُدّم على أنّه للاتّحاد التونسيّ بل سُجّل باسم السيّدة بلخوجة حرمه المصون امرأة الأعمال التي تمتلك فندقين في أهمّ مدينتين سياحيّتين تونسيّتين: الحمامات وسوسة. بدا الأمر طبيعيّا. فأهل مكّة أدرى بشعابها. وهكذا لم يكن الأمر في حاجة إلى تبرير. وما يهمّ جمهور النادي أنّ الاتّحاد أوّل فريق يمتلك فندقا خاصّا به. أمّا المسائل القانونيّة والملكيّة الفعليّة والتسجيل العقّاري وغيرها من التفاصيل فليست من المعلومات التي تُطرح لعامّة الناس.

كان اللاّعبون يعودون إلى بيوتهم بعد التمارين فأصبحوا يلتحقون بصفة جماعيّة مع المدرّب والإطار الفنّيّ والطبّي ومرافقي الفريق إلى مكان واحد: فندق الاتّحاد. تعاقد الفريق مع شركة سياحة توفّر حافلة سياحيّة فخمة لنقل اللاّعبين يوميّا. صحيح أنّ هذا ليس جديدا تماما فقبل المباريات الهامّة كان الفريق يجمع في معسكرات تدريب لمدّة يومين أو ثلاثة بعين دراهم أو قربص للإعداد لهذا اللّقاء أو ذاك، خصوصا في الأدوار المتقدّمة من تصفيات الكأس أو في المقابلات المصيريّة في البطولة ضدّ نوادٍ منافسة. وكانت الدولة تتكفّل بتلك المعسكرات. ولكنّ الوقت المخصّص لها لم يكن يكفي للإحاطة باللاّعبين. فأغلبهم ينصرف بعد التمارين والمباريات إلى ضروب من اللّهو والسهر لا تخلو من مخاطر على صحتهم ولياقتهم البدنيّة والنفسيّة. فكنت تراهم في العلب اللّيليّة يشربون الكحوليّات وربّما أغرتهم السهرة وأجواؤها بالتدخين على سبيل التباهي. ولا شكّ أنّ بعضا منهم لا يرى مانعا من الالتذاذ بسحر الحشيش والمخدّرات. ولكنّ الثّابت أنّهم جميعا يركضون وراء الجنس اللّطيف ثمّ يعودون في الفجر إلى بيوتهم. إنّهم شبّان في مقتبل العمر ينتمون إلى عائلات في الغالب فقيرة أو دون المتوسّطة وجدوا، بفضل ما تتيحه لهم الرياضة الشعبيّة الأولى من نجوميّة وما توفّره لهم من أموال لم يكونوا يحلمون بها، فرصا للتمتّع بملذّات الحياة والانجذاب

مكتبة الفكر الجديد

إلى عالم من السحر والفتنة يمثّل في عيونهم ارتقاء اجتماعيّا يجعل منهم أندادا لأبناء الذوات والعائلات الميسورة. تصوّر شخصا فقيرا من حيّ شعبيّ انقطع عن الدراسة وأخفق في ارتقاء السلّم الاجتماعيّ من خلال التعليم يجد نفسه في عالم الأضواء والملذّات والأجساد البضّة والوجوه الملاح والمغريات التي بلا حدّ. من يستطيع أن يقاوم كلّ ذلك؟ ولهذه الأسباب كان لا بد من تعويدهم على حياة لاعب كرة القدم، فهي قصيرة بالضرورة لأنّها محكومة بعوامل بيولوجيّة موضوعيّة وعليهم الالتزام بنظام صارم في الأكل والنوم والراحة والابتعاد عن كلّ ما قد يمسّ رأس المال الوحيد الذي يحوزونه: قدراتهم البدنيّة.

قاوم عماد بلخوجة هذا التيّار الذي كان يجرف نجوم كرة القدم التونسيّة بفرض نمط حياة صارم منضبط صحّيّ مناسب للاعب كرة قدم. لم يكن جمع اللاّعبين، من يوم الثلاثاء إلى يوم الأحد، في الفندق، مع راحة أسبوعيّة يوم الاثنين، كافيا لدرء جميع المخاطر. فاختار مرافقا للفريق مهمّته مراقبة اللاّعبين في الفندق ومدى انضباطهم وفق البرنامج المسطّر ووقت إخلادهم للنوم ومنع السهر ولعب الورق ومتابعتهم حتّى في غرفهم. فالعاشرة مساء هي ساعة النوم مهما تكن الظروف والسادسة والنصف صباحا هي ساعة الاستيقاظ للجميع.

أصبح الفندق معسكرا حقيقيّا كاد يخنق اللاّعبين أوّل الأمر فلم يقبلوا به بسهولة. ولكن عماد بلخوجة لم يتردّد لحظة في طرد لاعبَيْن من نجوم الفريق الذين جلبهم في عهده الجديد ومعاقبتهما لمدّة شهر بحرمانهما من اللّعب ومن منحة المباريات وغير ذلك من العقوبات حتى أجبرهما على التوقيع على التزام بالانضباط للتعليمات. فَهِم الجميع، وإن على مضض، أنّ مستقبلهم الماديّ والكرويّ والاجتماعيّ رهين التفرّغ كلّيّا للعمل ونسيان العائلة والأهل والأحباب والانقطاع للتمارين وإعادة تنظيم الوقت بطريقة يحدّدها المدرّب والمسيّرون.

مكتبة الفكر الجديد

لم يكن الفندق فخما ولكنّه كان مناسبًا، حديث التصميم، يشبه سلسلة فنادق «نوفوتيل». أثاثه لا يخلو من ذوق وزينته متقشّفة مشرقة، تحلّيه الألوان الوديعة الهادئة واللّوحات ذات الأشكال التجريديّة الأنيقة المتقنة. كانت غرف اللاّعبين مريحة وإن لم تكن فسيحة مصفَّفة على الجهة الشرقيّة من الفندق.

وقد استغلّ مصمّم الفندق الطابق السفليّ كلّه كقاعة محاضرات واجتماعات واسعة تتسع لألف شخص وإن كانت قابلة لأن تصبح ثلاث قاعات بفضل نظام من الجدران العازلة المتحرّكة التي تعيد تقسيم هذه القاعة الكبرى. وأضاف إلى ذلك أربع قاعات متوسّطة الحجم يمكن أن تضمّ مجموعات صغيرة لا تتجاوز العشرين شخصًا.

تبيّن للجمهور، على مرّ الأيّام، أنّ جميع الجلسات العامّة للفريق انتقلت من قاعة قصر بلديّة تونس إلى فندق الاتّحاد. وغادرت اجتماعات هيئته المديرة المقرَّ الخَرِب للجمعيّة بنهج الباشا. وهو مقرّ أصبح في ما بعد مجرّد مكان رمزيّ يذكّر بتاريخ النادي وبداياته ولم يعد له من دور. ثمّ استخدمه منير الزرقوني، الذراع المفتولة للاتّحاد التونسيّ، في بعض المناسبات حين يقرّر عماد بلخوجة تجييش الجمهور أو إطلاق الحملات ضدّ هذا اللاّعب أو ضد ذاك المسيّر وإعداد الشعارات التي تصدح بها الجماهير في المدارج قبل أن تتكوّن مجموعة «الألتراس» الخاصّة بالاتّحاد التونسيّ المسمّاة «بلو أند غولدن».

كانت للفندق وظائف أخرى مثّلت موارد مهمّة للفريق. فقد أصبحت الوزارات تعقد ملتقياتها وندواتها وبرامجها التدريبيّة في القاعة الكبيرة أو في جزء منها أو في إحدى القاعات الصغرى. وتوافدت أفواج مختلفة من تونس ومن خارجها على الفندق لأسباب مختلفة. كانت المعلّقة التي توضع في بهو الفندق كلّ صباح تشير إلى الجهات المنظّمة للاجتماعات أو اللّقاءات. فترى مثلا اجتماعا لمكتب استشارات أو لقاء

مكتبة الفكر الجديد

بين وفد أجنبيّ وجهة حكوميّة أو غير حكوميّة تونسيّة، أو حفل استقبال تنظّمه هذه الشركة أو تلك أو هذه الوزارة أو تلك.

وفي هذا كلّه لم يتخلّ عماد بلخوجة عن أسلوبه في التصرّف في الشاشيّات والطرابيش. لم يكن يدفع شيئا من جيبه. فإقامة اللاّعبين تُدفع من مال الجمعيّة مع تخفيضات مهمّة لا تقبل المنافسة بحكم أنّها سنويّة لا تتوقّف إلاّ مدّة عشرين يوما في الصيف وهي أيّام الراحة السنويّة للاّعبين قبل العودة للإعداد البدني والاستعداد للموسم الجديد.

أمّا الأموال المتأتّية من كراء القاعات فكان يقسمها إلى ثلاثة أقسام: قسم للمصاريف التي أنفقها الفندق، والثاني للمرابيح، والثالث للنادي بعنوان مساعدات من الفندق للنوادي والجمعيّات والمنظّمات وهذه بحسب القانون التونسيّ غير خاضعة للضريبة على الأرباح وتمكّن الشركات التي تسندها، ومنها شركة فندق الاتحاد، من امتيازات جبائيّة قانونيّة. فربح الفندق كما ربح آل بلخوجة، أكثر ممّا يُعتقد لأوّل وهلة. إذ أصبحت مساعدة النادي عاملا من عوامل تخفيف الضريبة على الشركات التي يمتلكها. إنّه ضرب من التهرّب الجبائيّ قانونيّ مائة بالمائة ولكنّ أكثر رجال الأعمال لا يعلمون أو قل لا يستطيعون مسايرة الذئب الشابّ في هذا الميدان.

وما يجود به عماد بلخوجة في السهرات التي يقيمها في ضيعته بمرناق للوزراء والقادة الحزبيّين ليست إلاّ فتاتا من الخيرات التي تدخل إلى جيبه من الفندق. فهي من ثمرات مردود كبير يأتي من كراء قاعات الاجتماعات بما أنّ الوزراء أصبحوا يرغبون من تلقاء أنفسهم في خدمة الفندق وصاحبه ذي الأيادي البيضاء عليهم ودعواته المضيافة لنخبة الطبقة السياسيّة الحاكمة.

وتروي بعض الألسن التي قد تنعت بالخبيثة، لأنّها من أعداء عماد

مكتبة الفكر الجديد

بلخوجة والاتحاد التونسيّ، أنّ الرجل قد خصّص غرفًا في الفندق بعيدة عن الأنظار في الطابق الثاني والأخير لكبار الضيوف والشخصيّات. وله فيه، هو وزوجته، جناح خاصّ. ولا يمكن الوصول إلى هذا الطابق المعزول عن الطابقين السفليّ والأوّل عبر بهو الاستقبال. فالمنفذ إليه من مصعد خاصّ من الجهة الخلفيّة يفتح بابه ببطاقة مغناطيسيّة تفضي عبر ممرّ يتوسّط الحديقة في الخلف إلى المصعد مباشرة.

والحقّ أنّني لم أر هذا المدخل رغم حضوري لندوة صحفيّة عقدها وزير الثقافة في فندق الاتّحاد للإعلان عن برنامج أحد المهرجانات الدوليّة. ولكنّ من حدّثني عن هذا الجانب المخفيّ منه أكّد لي أنّ الداخل والخارج إلى هذا المكان، والنازل والصاعد من هذا الطابق، لا يمكن لأحد أن يراه حتّى من الحرّاس المنتشرين في المدخل. إنّه مكان مغلق حقّا من المرجّح أنّه خُصّص لمتع كبار المسؤولين الذين يتركون سيّاراتهم الرسميّة ويستعملون سيّارات عادة ما تكون أرقامها على ملك عماد بلخوجة.

وأذكر أنّني عندما بدأت التحقيق، وأنا المغرم بالعناوين الجذّابة المثيرة على طريقة جريدة «ليبيراسيون» الفرنسيّة، فكّرت في أن أعنون القسم الخاص بهذه الحكاية بعنوان من قبيل «الفندق المريب» أو «مجمع الأسرار» أو «الفندق عماد الأموال» تلميحا لعماد بلخوجة.

كان كل شيء يدلّ على أن الهدف الأول لكل ما يقوم به عماد بلخوجة هو الربح، ولكنّني كنت أتساءل لماذا إذن يدفع كل هذه الأموال ويصرف كل هذا الوقت والجهد دعمًا لفريق رياضي؟. بيد أنّ سذاجتي منعتني من أن أرى منذ البداية أنّ عالم كرة القدم لم يكن بعيدا عن عالم المال والأعمال والسياسة بل هو صورة مصغّرة منه.

مكتبة الفكر الجديد

الاتحاد، برازيل تونس. حقّق عماد بلخوجة، في فترة وجيزة وخلال موسم كرويّ واحد، ما كان يتطلّب من فرق أخرى سنوات من العمل والبذل. فبعد أسبوع من انتخابه انتدب مدرّبا برازيليّا من طراز رفيع. فقد كان من محبّي طريقة اللعب البرازيلية، بل كان يرى أنّ كرة القدم برازيليّة **أو لا تكون: جماليّة في اللّعب ومهارات نادرة ساحرة وصلابة جسمانيّة** في غير عنف أو خشونة. إنّها كرة تعتمد المهارات الفرديّة والمباغتة والمراوغة والسرعة بالخصوص. كان يحلم بأن يجعل من الاتحاد التونسيّ برازيل تونس. لذلك لا بدّ من برازيليّ يشرف على صنع لعب الفريق. وهكذا استدعى أوّل برازيليّ، ليدرّب فريقا تونسيّا. كان هذا في حدّ ذاته حدثا تاريخيّا يشبه لقاء المنتخب الوطني في لقاء ودّي مع البرازيل تحت الأضواء الكاشفة لملعب المنزه. ويذكر الجميع إلى الآن فنيّات الجوهرة السوداء الأخرى محيي الدين هبيطة لاعب الأولمبي للنقل وبالخصوص تصدّي الحارس العملاق عتّوقة لتصويبة صاروخيّة من «ريفيلينو» كلّفته خلعا في الكتف الأيمن. أمّا اليوم فقد جعل عماد بلخوجة الكرة البرازيليّة جزءا من المشهد الكرويّ التونسيّ.

وقّع العقد المجزي مع المدرّب البرازيلي الملقّب بـ«زينهو». وهو لاعب قديم قدير حاصل على شهادات في التدريب الرياضيّ صادف أن تخلّى فريقه البرازيلي عنه تحت ضغط الجمهور لإخفاقه في الحصول على الألقاب التي وعد بها. كان أوّل ما قام به المدرّب خلال الأسبوع الأوّل هو استبقاء خمسة لاعبين فقط من الفريق القديم، مدافعَيْ محور وظهير أيمن ولاعب وسط ومهاجم رأس حربة، اعتبرهم قابلين للتحسّن بعد اختبار فنّيّ.

طلب تعزيز الفريق بانتدابات من أعلى طراز، فأطلق عماد بلخوجة عيونه وعددا من اللاّعبين القدماء الموالين له لإعداد قائمة أوّليّة باللاّعبين الموهوبين المغمورين في النوادي الصغيرة. جهزت القائمة

مكتبة الفكر الجديد

الأولى في يومين تقريبا. أصبح مركّب الاتحاد التونسيّ من الصباح إلى المساء خليّة نحل يتوافد عليها اللاّعبون طامعين في مكان في الفريق العريق ينتزعونه بمواهبهم وبالفنّيّات التي تخزّنها أرجلهم. جلبوا أهمّ اللاّعبين من فرق نادي الملاّسين وأريانة الرياضيّة والاتحاد المغربي ونادي حمّام الأنف ومستقبل المرسى ومن نوادٍ من جهة الوطن القبليّ مثل بني خلاّد وقرمبالية ومنزل بوزلفة ومن نوادٍ أخرى مثل ماطر ومنزل بورقيبة. بعد أسبوعين أصبح الرصيد البشريّ الذي اصطفاه زينهو كافيا. استبقى بصفة أوّليّة ثلاثين لاعبا أغلبهم من الشبّان الموهوبين.

شرع في عمل شاق طيلة عشرة أيّـام. ركضوا خلالها آلاف الكيلومترات على رمال شواطئ قربة وبني خلاّد وقليبية والمرازقة قرب نابل وغيرها من المناطق القريبة من الحمّامات حيث أقاموا في فندق على ملك السيّدة بلخوجة. ففي ذلك الوقت كان فندق الاتّحاد مايزال مجرّد مشروع. كانت تعليمات المدرّب زينهو واضحة: كلّ يوم شاطئ جديد. تبدأ الحصص الصباحيّة في السادسة صباحا لمدّة أربع ساعات مقسّمة على مراحل. يعود بعدها اللاّعبون إلى الفندق للغداء والرّاحة ثمّ ينطلقون حوالي الرابعة بعد الزوال في اتّجاه المركّب الرياضيّ لإجراء تمارين أخرى دون كرة تهدف إلى تقوية العضلات قبل العودة إلى الفندق ثانية لحصص التمسيد وإزالة الإرهاق. ورغم هذا النظام الصارم، لم يتخلّ إلاّ لاعبان اثنان عجزا عن مجاراة النسق. وكان هذا بالنسبة إلى زينهو إشارة إيجابيّة.

ولكنّ الاختبار الحقيقيّ لم يبدأ بعد حسب المدرّب البرازيليّ. بدأت التدريبات الخفيفة بالكرة ليتثبّت زينهو من مهارات كلّ لاعب. غيّر في المقابلات التطبيقيّة مراكز اللاّعبين. لم يعد أحد منهم يعرف مركزه الذي سيسنده إليه المدرّب. فكنت ترى مهاجما اليوم يسجّل أهدافا جميلة بالرأس يصبح من الغد قلب دفاع، أو تعتقد أنّ المدافع

مكتبة الفكر الجديد

الأيمن القادم من جمعيّة بني خلّاد قد أبلى البلاء الحسن في الذود عن الجهة اليمنى وإيقاف جميع الكرات والتسرّبات منها ولكنّك من الغد تجده في خطّة وسط ميدان هجوميّ.

وقد انزعج عماد بلخوجة بعض الانزعاج من هذه الطريقة في اختبار اللاّعبين. لكنه لزم الصمت. كان يرى النتائج بسرعة مذهلة. تأكّد من أنّه يملك أفضل مجموعة من المواهب الكرويّة.

بعد مرور ثلاثة أسابيع طلب عقد جلسة عمل مع المدرّب. كان متخوّفا. الموسم على الأبواب ولم تتبيّن له ملامح الفريق ولا التشكيلة ناهيك عن الخطّة التكتيكيّة. وكان ردّ زينهو صارمًا إذ عبّر عن امتعاضه من التدخّل في عمله وأوضح أنه ليس ساحرا ليصنع فريقا من لاشيء مهما تكن المواهب المتوفّرة فيه. مازال برنامجه يتطلّب تدريبات أخرى. طالب بمحاسبته بعد ثلاثة أشهر وعد خلالها بإكساب الفريق شخصيّة فنّيّة واضحة. كرّر أكثر من مرّة طلبه من محيط الفريق عدم التدخّل في عمله. كان له ما أراد. منحه عماد بلخوجة بطاقة بيضاء.

لاحظ الجميع أنّ فترة صنع الفريق الجديد وخلق اللّحمة بين عناصره لا تعتبر في عرف الفنّيين والمختصّين في التدريب طويلة. فمنذ المقابلة الأولى التي فاز فيها الاتحاد التونسيّ بهدفين نظيفين تجلّت شخصيّته الكرويّة بوضوح للجمهور والمتابعين.

لقد كان العمل الذي قام به زينهو ممتازا. فالمسألة لا تتعلّق بالمراوغة أو السرعة أو المباغتة كما قد يظن المتفرّج العاديّ. فهذه نتيجة وليست وسائل. فكيف للاعب لم يتدرّب على العدو ولم يقوِّ عضلاته ولم يتعلّم التحكّم في تنفّسه وتوزيع جهده على كامل توقيت المباراة أن يكون سريعا؟ وكيف للاعبين لا يتحرّكون وفق خطّة محكمة وبأسلوب معيّن في اللّعب أن يباغتوا الفريق المنافس؟ أمّا المراوغات

مكتبة الفكر الجديد

فهي ليست غاية في ذاتها إذ ينبغي أن توظّف لصالح اللّعب الجماعيّ والوصول إلى المرمى وليس من أجل الإبهار وإبراز الفنّيات الفرديّة.

وقد ارتكز العمل الحقيقيّ الذي قام به المدرّب الجديد لإضفاء أسلوب اللّعب البرازيلي على الاتّحاد التونسيّ على عدّة أعمدة. فالسرعة التي تُلاحَظ مردّها تدريب اللاّعبين على عدم احتكار الكرة وتقليل عدد لمسات الكرة بالرجل والمسارعة بتمريرها. إذ درّب زينهو اللاّعبين على اللّمسة السريعة الثابتة. وهذا ما يتطلّب لعبا جماعيّا في الهجوم بالخصوص للوصول إلى مرمى المنافس بعد لمستين لا أكثر. ولكنّ المراوغات الاستعراضيّة التي تعجب الجماهير وتنتزع آهاتهم غير منصوح بها في الكرة البرازيليّة إلاّ إذا كان اللّعب مباشرة بين مهاجم ومدافع فلا حلّ حينئذ، عند المواجهة رجلا لرجل، إلاّ المراوغة وهو ما يبرز بالخصوص في التسرّبات من الجناحين.

ولكنّ هذا الأسلوب السريع في اللّعب لا يؤتي ثماره إذا اكتفى اللاّعب بتمرير الكرة كأنّه يتخلّص منها. فعليه ألاّ يتوقّف بعد تمريرها إلى زميله بل يسارع إلى مساندة من وصلت إليه بالتمركز في الاتجاه المقابل لاتجاه الكرة. وهذا ما يمكّن حامل الكرة من رؤية واضحة شاملة للميدان فلا يضطرّ إلى تمريرها إلى لاعب متمركز في منطقة ضغط قد تفتك منه فتكون مصدرا لخطر الكرات المرتدّة والهجْمات المعاكسة. صار لاعبو الاتحاد التونسيّ يستعملون ظاهر الرِّجْل في تمرير الكرة ويتّخذون موقعا هجوميّا حالما يمرّرونها فيتمركزون في موضع يسمح لهم بتلقّي تمريرة من حامل الكرة. هذا هو سرّ اللّعب السريع الجماعيّ.

بيد أنّ هذا الأسلوب البرازيليّ الذي أدخله زينهو في الاتحاد لم يكتمل إلاّ حين تعلّم اللاّعبون اللعب بكرات أرضيّة. فللاّعب التونسيّ نزعة إلى اللّعب المباشر والتمريرات الطويلة، حتّى إن لم تكن مجدية أو من المرجّح ضياع الكرة إثرها، مثلما عنده نزعة اقتحام صفوف المنافس

مكتبة الفكر الجديد

اعتمادا على فنّياته أو قوّته البدنيّة. ولكنّ لاعبي الاتّحاد أصبحوا يتقنون الكرات الأرضيّة القصيرة والسريعة ولا يلجأون إلى الكرات الطويلة من خارج منطقة الجزاء إلّا سعيا إلى المباغتة والتهديف أو لتغيير مجرى اللّعب عند الهجوم. وهذا كسب ليس بالهيّن.

لقد ظهرت قوّة الاتّحاد التونسيّ خاصة في الاتقان الواضح الدقيق لطريقة التمرير الثلاثي. وهي طريقة تطبّق فنيّا على صورتين إمّا أفقيّا وإمّا عموديّا. وتقتضي الطريقة الأولى تسرّب المهاجمين عبر جناحَيْ الملعب، أمّا الثانية فتعتمد التسرّب من وسط الميدان. وفي كلتا الحالتين يكون المهاجم مسنودا بلاعب في ضلع دفاعيّ وآخر في ضلع هجوميّ يمكن له دائما أن يمرّر لأحدهما الكرة.

وقد يسّرت عملَ المدرّب البارع نوعيّةُ اللاّعبين المنتَدَبين وما يتمتّعون به من مهارات فرديّة، إضافة إلى حلمهم بالنجوميّة في فريق لم يتصوّروا يوما الاقتراب من مركّبه الرياضيّ فما بالك باللّعب فيه. كانوا مجموعة من الشبّان بحيث لا يتجاوز معدّل الأعمار في الفريق الثانية والعشرين وأكبرهم في الخامسة والعشرين من العمر. وقد شكّك المراقبون في قدرة الفريق على تحقيق نتائج في القريب العاجل لنقص الخبرة، وقلّة عدد المباريات في الأقدام كما يقال. لكن مرّة أخرى انتصر الطموح والإرادة والعمل المنظّم والتخطيط المحكم على الخبرة والسنّ.

لقد كان الفريق صورة من رئيسه الشاب الذي لم يتجاوز وقتها الخامسة والثلاثين!

الأسطورة الجديدة. فاجأ الاتحاد التونسيّ جميع المتابعين منذ بداية الموسم بنجومه الجدد، ومدرّبه المثير للجدل في صفوف الجمهور، وبأسلوب لعبه غير المألوف. كانوا فعلا يشاهدون نسخة تونسيّة من فريق برازيليّ يهزم بسهولة الفرق الأخرى ويمتّع الجماهير باللّعب

مكتبة الفكر الجديد

الجميل السريع والفنّيّات الفرديّة العالية والتخطيط المحكم في الدفاع والهجوم وفي وسط الميدان.

غير أنّ قطاعا من الجماهير التي لا يعجبها العجب بدأت تتذمّر من الوجه الجديد للفريق، وأصبح بعض الصحفيّين والمعلّقين في الإذاعة والتلفزيون يطرحون قضايا من قبيل الفرق بين اللّاعب الذي هو من أبناء الفريق ولاعب اشتراه الاتّحاد التونسيّ ومدى استعداده للعب من أجل القميص وإخلاصه في محبّة ألوانه والدفاع عنها. تساءلوا في خبث أحيانا عن الحاجة إلى مدرّبين أجانب لا يفهمون عقليّة اللاّعب التونسيّ، فليس التدريب مجرّد خطط تكتيكيّة بل هو قبل كلّ شيء معرفة بواقع اللاعبين ونفسيّاتهم. تهكّموا من فريق مثل أبناء القطط لكلّ واحد نَسَب كرويّ وأب مختلف عن الآخر كما يقول المثل الشعبيّ التونسيّ. أسرف البعض في التهجّم فسمّى الاتّحاد التونسيّ اتّحاد اللّقطاء.

كان هذا النقد صادرا على الأرجح من الفرق الأخرى التي طفق الاتحاد التونسيّ يفوز عليها فريقا إثر آخر. فقد تميّزت بداية الموسم الرياضيّ 1984 - 1985 بأداء ممتاز للاتحاد التونسيّ أنبأ بوضوح للفنّيين والمتابعين بموسم استثنائيّ للفريق منذ الجولات الثلاث الأولى. وبالفعل انتهى الموسم بحصول الفريق على ثنائيّ الكأس والبطولة مثلما وعد عماد بلخوجة الجماهير في الجلسة العامّة حتّى قبل انتخابه رسميّا.

سنَتَها كان أبطال كرة القدم التونسيّة ثلاثة على ما أفرزه استطلاع للآراء قامت به صحيفة محلّيّة لدى الصحفيّين الرياضيّين في تونس: عماد بلخوجة في مجال التسيير الرياضيّ، والاتحاد التونسيّ في باب الفرق المتميّزة، وباغندا في صنف أفضل اللاّعبين. واستطلاع الآراء هذا سنّة دأبت عليها صحيفة «صدى الملاعب» فتعرض النتائج في الأسبوع الأخير من السنة الإداريّة حيث ينتظم حفل تكريميّ لأبرز الوجوه الرياضيّة المتوّجة في الاستفتاء.

مكتبة الفكر الجديد

لم يكن هذا اللاّعب الشابّ وقتها محبوبَ جماهير الاتّحاد ولم يقدّم أروع مبارياته ولم يبرز ما في قدميه من فنّيّات ساحرة. لقد اشتهر اسمه بعد أن سجّل في ثمانية مقابلات عشرين هدفا فلفت انتباه الجميع. وقتها عرفوا أنّه موهبة كرويّة مغمورة كانت في ناد صغير هو «نادي الملاّسين» وانتدبه الاتحاد التونسيّ من بين المنتدبين الجدد. واتفق جميع المتابعين والمحلّلين الرياضيّين على أنّ هذا الشاب ذا العشرين عاما، من مواليد ديسمبر من سنة 1964، هو النجم الحقيقيّ الذي لم تنجب كرة القدم التونسيّة نظيرا له. رأت فيه خلاصة النجوم التي عرفتها كرة القدم التونسيّة في كأس العالم بالأرجنتين سنة 78. إنّه حلم الجمهور الرياضيّ في تونس الذي وجد في باغندا خصالا ذكّرته بالفترة الذهبيّة للكرة التونسيّة. فلباغندا من تميم الحزامي سرعتُه ومراوغاتُه، ومن حمادي العقربي لمساتُه السحريّة، ومن المرحوم محمّد علي عقيد حُسنُ التعامل بالرأس مع الكرة، ومن نجيب غمّيض السخاءُ في اللّعب، ومن طارق ذياب حُسنُ قراءة الملعب ومجرى اللّعب. ولباغندا، علاوة على كلّ هذا، سرّ آخر فاتن يُدرَك ولا يوصف كالملاحة في وجه الحسناء وكالألق في الجواهر.

فرغم نحافته النسبيّة كان يتميّز بقوّة نادرة تجعله قادرا على اللّعب بنفس المستوى طيلة المباراة مع مرونة في التحرّك وسرعة مذهلة. ومن مميّزاته إتقانه اللّعب بالرأس بفضل قفزه العموديّ فوق بقيّة اللاعبين والمدافعين مهما كانت قامتهم. وفنّيّا كان باغندا يرتجل في يسر وسلاسة أدقّ الحركات الفنيّة وأكثرها أناقة فيبهر بمراوغاته كل مَنْ يشاهد المباراة حتى لو كان من مشجّعي الفريق الخصم، وأكثر ما يلفت الانتباه لعبه في الثنائيّات ضدّ المدافعين، حتّى اضطرّت الفرق الأخرى إلى تكليف بعض اللاّعبين بمهمة محاصرته محاصرة لصيقة. لكنّ محاولاتهم كانت تبوء، في الأغلب الأعمّ، بالفشل.

لم يكن باغندا في البداية لاعبًا أساسيّا. وقد يكون زينهو أراده مفاجأة

مكتبة الفكر الجديد

خبّأها للوقت المناسب. وممّا جعلني أذهب هذا المذهب قصاصة احتفظت بها من جريدة «صدى الملاعب» فهمت منها أنّ الاتّحاد التونسيّ انتصر على الترجّي الرياضيّ التونسيّ في الأحد الثالث من شهر أكتوبر سنة 1984. ففي تلك المباراة عوّض باغندا مهاجم الفريق ونجمه القديم رياض الفالح الذي أصيب في رأسه بعد اصطدام عفويّ مع أحد مدافعي الترجّي. كانت النتيجة متعادلة ولم تتبقّ إلاّ بضعة دقائق لتعلن صفارة الحكم عن نهاية المباراة. كانت الكرة لدى لاعبي الأحمر والأصفر الذين ضغطوا على دفاع الاتّحاد لتسجيل هدف الانتصار. وبالفعل توصّلوا إلى الحصول على مخالفة قريبة جدّا من منطقة الجزاء مع إقصاء مدافع من فريق الأزرق والذهبيّ. يتقدّم رأس حربة الترجّي المعروف بقوة تسديداته ويسدّد في العارضة الخامسة. فيستعيد لاعبو الاتّحاد الكرة. وفي هجمة معاكسة مباغتة بتمريرات ثلاث تصل الكرة إلى باغندا. يراوغ بحركة فنّيّة قلب دفاع الترجّي. ويجد نفسه وجها لوجه مع الحارس الذي لم يستطع رغم الارتماءة الانزلاقيّة إيقافه. ألقى اللاّعب الأسمر لغما مدوّيّا في شباك الفريق المنافس. انتهت المباراة بفوز الاتحاد وأصبح باغندا بطلا يردّد الجمهور اسمه. فقد أهداهم انتصارا ظنّوا أنّه مستحيل.

يومها انتهى المشوار الكرويّ لرياض الفالح وبدأ نجم باغندا في الصعود.

يومها ولد لاعب كبير وتلألأت الجوهرة السوداء.

بيد أنّ ما لم يخطر ببال المراقبين آنذاك أنّ القدر كان يخفي حادثا سيدمّر مسيرة باغندا الكرويّة حتّى قبل أن يصل إلى قمّة مجده، قمّة تنبّأ بها له مدرّبه زينهو الذي كان يسمّيه «بيلي» بسبب تشابه في خصائص اللّعب بينه وبين الجوهرة السوداء للكرة البرازيليّة والعالميّة. ولكن ربّما كان قدر هذه البلاد أن تطفئ النجوم الوليدة في سمائها وتقضي على الأساطير حتّى قبل أن تكتمل قصّتها.

مكتبة الفكر الجديد

المركاتو

مكتبة
الفكر الجديد

نظام شيوعيّ بقيادة رأسماليّة! حين استقرّ الفريق مع مدرّبه البرازيلي ولاعبيه المنتدَبين الجدُد، ومنهم باغندا، في صائفة 1984 لم يتخلّ عماد بلخوجة عن لاعبي الفريق الذين لم يستبقهم زينهو ضمن المجموعة التي استقر عليها رأيه. فقد وقّع معهم عقودا مقابل أجر شهريّ، وخصّص لهم مدرّبا تونسيّا ليحافظوا في البداية على لياقتهم البدنيّة واستعدادهم للمباريات. بدا للجميع أنّه يضع خطّة بديلة للفريق في حال فشل المدرّب البرازيلي في الفترة القليلة المتبّقية لبداية بطولة موسم 1984 – 1985. استمرّ ذلك إلى أن توقّفت البطولة لفترة قبيل نهاية السنة الإداريّة 1984.

لم يعد جمهور المركّب الرياضيّ للاتّحاد يهتمّ بغير المجموعة الجديدة والمدرّب الذي يتكلّم بلغة الإشارات مع اللاّعبين ويصرخ في وجوههم برطانة برازيليّة لا يفقهون منها شيئا. كان ذلك قبل أن يوفّر عماد بلخوجة مترجمًا وقبل أن يتعلّم زينهو عددا من الجمل الفرنسيّة بلغة مكسّرة يبلّغ بها تعليماته للاّعبين.

وفي غفلة من الجميع تقريبا كان المدرّب التونسيّ يعيد مع مجموعة اللاّعبين القدامى نفس التمارين التي يكلّف بها المدرّب البرازيليّ

مكتبة الفكر الجديد

مجموعته ونفس المقابلات التطبيقيّة. ولا أحد فهم الحكمة من ذلك ولا وجد ما يبرّر المصاريف التي ينفقها الفريق عليهم.

أحدث عماد بلخوجة خليّة مصغّرة محدودة العدد لدراسة مشاكل اللّاعبين المنتدَبين الجدد الاجتماعيّة والنفسيّة. وقّع معهم عقودا لخمسة مواسم تنازلوا فيها عن حرّيّة التنقّل متى شاؤوا إلى أيّ فريق إلاّ بغرامة ماليّة كبيرة خياليّة بالنسبة إليهم. منح في تلك العقود للاتّحاد التونسيّ حقّ بيعهم أو إعارتهم في أيّ وقت إلى أيّ فريق تونسي أو أجنبيّ. وضع في العقد ما ينصّ على فرض نظام العمل والعقوبات التي يجرّها كلّ خرق أو تهاون وغير هذا من البنود التي نقل أغلبها محامو عماد بلخوجة من عقود الاحتراف الفرنسيّة والإسبانيّة والإيطاليّة. انتقوا ما أرادوا وأسقطوا بنودا عديدة لصالح اللاّعبين. منح اللاّعبين، بمقتضى العقد نفسه، أجورا شهريّة ومكافآت مضبوطة. فاللاّعبون متساوون عنده كأسنان المشط.

كانت العقود في حدّ ذاتها شيئا جديدا في كرة القدم التونسيّة لطالما طالب به اللاّعبون ولكنّهم لم يكونوا واعين بحقوقهم ولا هم قادرون على الدفاع عنها. فقد عُرف في تلك الفترة لاعب المنتخب الوطني وأحد نجوم ملحمة الأرجنتين المدافع خالد القاسمي الملقّب بالمجاهد بمحاولته ضمان حقوق اللاّعبين ومستقبلهم.

ولكنّ الكرة التونسيّة لم تتطوّر نحو الاحتراف الحقيقيّ لأسباب قانونيّة وسياسيّة بالخصوص. فالوزير الأوّل، آنذاك، محمّد مزالي، وكان وقتها رئيس اللّجنة الوطنيّة الأولمبيّة التونسيّة ونائب رئيس اللّجنة الأولمبيّة الدوليّة، صرّح، متباهيا بالمفهوم الأصيل للرياضة، أنّ تونس والدولة التونسيّة لن ترضيا بأن يصبح اللاّعبون خيولَ سباقٍ تُباع وتُشترى. كان يلمّح إلى دعوة بعض المسؤولين الرياضيّين، ومنهم عماد بلخوجة، إلى فتح الباب أمام الاحتراف. وهو نفس موقف الأستاذ

مكتبة الفكر الجديد

مصطفى الشريف المحامي الذي كان ينتمي إلى شقّ أنصار مزالي في الحزب الاشتراكي الدستوري الحاكم آنذاك. ولكنّ ماء التجارة باللاّعبين كان يسري تحت بناية الروح الرياضيّة فيهدمها شيئا فشيئا. فلا رادّ للمال وسطوته. إنّ رنينه، كما قال لي يوما سي عبد الحميد التميمي، **يعلو ولا يُعلى عليه.**

أنشأ عماد بلخوجة من خلال خليّة المشجّعين صندوقا لمساعدة العائلات المعوزة للّاعبين تهدى منه في عيد الأضحى الخرفان وتقدّم المساعدات في بداية السنة المدرسيّة وتسدّد فواتير المستشفيات والمصحّات ويزوّج اللّاعب الراغب في الاستقرار العائليّ، فقد شجّع عماد بلخوجة كثيرا اللاّعبين على الزواج. كانت هذه المصاريف وغيرها من المصاريف الثانويّة التي لا تدخل في ميزانيّة الجمعيّة مفيدة لرعاية عائلات اللاّعبين ولراحتهم الاجتماعيّة والنفسيّة خصوصا أنّهم أصبحوا يقضون الأسبوع كلّه تقريبا بعيدين عن أُسَرِهم.

وأتذكّر أنني شبّهت وقتها ما فعله عماد بلخوجة للاّعبين بالمجموعات اليهوديّة الأولى التي استوطنت أرض فلسطين في ما يشبه الكولخوزات الشيوعيّة. بيد أنّها شيوعيّة برأس مدبّر رأسماليّ! وقد أعجبني هذا التشبيه وقتها وأضحكني كثيرا.

لاعبون برتبة وسطاء. في بداية الموسم أُلحق عدد من اللاّعبين القدامى الذين كان يشرف عليهم المدرّب التونسيّ بالفريق الثاني (يسمّى فريق الآمال) وشاركوا في المقابلات الرسميّة وأبلوا البلاء الحسن.

وعند توقّف البطولة في أسبوع عطلة رأس السنة لاحظ المتابعون أنّ الاتّحاد التونسيّ قد وزّع اثني عشر لاعبا على فرق أخرى من فرق الدرجة الأولى. فكان نصيب نادي حمّام الأنف ثلاثة لاعبين واتحاد

مكتبة الفكر الجديد

المنستير وشبيبة القيروان لاعبَيْن لكلّ منهما. أمّا مستقبل المرسى فكان نصيبه خمسة لاعبين. وقد قدّمت هذه التنقّلات من الاتحاد إلى الفرق الأربعة المذكورة على أنّها جزء من سياسة الهيئة المديرة في التعاون مع الفرق الصديقة في تونس. وهي تمكّن لاعبين ممتازين من فرصة اللّعب في فرق محترمة تحتاج إلى خدماتهم بما أنّ بنك احتياط الفريق يزخر باللاّعبين. وقد ألحّ عماد بلخوجة على أنّ هذه التنقّلات ليست من باب التفريط في أبناء الفريق بقدر ما تدخل في إطار الإعارة. ولكنّه تكتّم على مبالغ هذه الصفقات بل نفى تماما أن تكون هناك صفقات، مؤكّدا أنّ الجامعة التونسيّة على علم بجميع التفاصيل وبنود الاتفاق مع الفرق المستقبِلة. بيد أنّه وضّح أن المسائل الماليّة قد نوقشت فعلا بما يحفظ حقوق اللاّعبين بالخصوص. أمّا الاتحاد التونسيّ فله من الرجال من يكفونه حاجته وأكثر، خصوصا بعد ما شاهده الناس من وجه جديد للفريق وسيطرته المطلقة على ذهاب البطولة إذ جاء في المرتبة الأولى بعيدا عن وصيفيه بتسع نقاط محرزا بذلك لقب بطولة الخريف.

كانت هذه أكبر عمليّة إعارة في تاريخ كرة القدم التونسيّة. فريق برمّته مع لاعب احتياطي ينتقل في فترة وجيزة إلى فرق أخرى تلعب في نفس البطولة ونفس الدرجة! وحده عماد بلخوجة كان يعرف سرّ الحكاية. ولكنّ وجوها منها انكشفت لبعض العارفين بكواليس الكرة التونسيّة وخباياها مع كرّ الأيّام. فهؤلاء اللاّعبون الاتّحاديّون وزّعوا على فرق لا تراهن على اللّقب ولا على المراكز الأولى. والأرجح أنّ لهم وظائف ومهامّ متعدّدة.

فأحد المدافعين المعارين إلى مستقبل المرسى قام في الجولة الثانية من إيّاب البطولة باستفزازات متكرّرة لهدّاف الترجّي. كانت حركات لا أخلاقيّة. فما كان من المهاجم، كما شاهد الجميع في التلفزيون، إلاّ أن اعتدى على المدافع المشاكس بلكمة واضحة. كان هدّاف الترجّي

مكتبة الفكر الجديد

معروفا بلعبه النظيف فاستغرب الجميع أن يأتي تلك الحركة العنيفة غير الرياضيّة. المهمّ أنّه عوقب بخمس مباريات حُرم خلالها الترجّي من خدمات هدّافه. وأوّل لقاء بعد الحادثة في الأسبوع الموالي، كان حسب الروزنامة، هو لقاء الترجّي ضدّ الاتّحاد التونسيّ. إنّها صدفة مريبة!

طبعا لم يكن يوجد أيّ دليل وقتها، وإلى الآن لا وجود لدليل، ولكنّ الجميع، حتّى من أنصار الاتّحاد، متأكّدون أنّ العمليّة مدبّرة بما أنّ هؤلاء اللّاعبين المعارين كثيرا ما كانوا يدخلون في مشاكسات أو استفزازات مع عدد من لاعبي الفرق المنافسة وأحيانا يتعمّدون إصابتهم بإصابات بالغة تحرمهم من المشاركة في اللقاءات الموالية. حدث هذا مع الإفريقي والنجم والنادي الصفاقسيّ بنفس الطريقة تقريبا وفي مقابلات تسبق اللّقاء ضدّ الاتّحاد التونسيّ. إنّنا نحتاج إلى إيمان العجائز لنسجّل هذا كلّه في دفتر الصدفة بحبر الحظّ الذي يقف دائما لصالح الاتّحاد!

وقد تداولت بعض الألسن أخبارا عديدة لا يمكن اعتبارها تجاوزات من الناحية القانونيّة، ولكنّها ممارسات على الأقلّ غير معهودة في كرة القدم التونسيّة تدعو إلى شيء من الارتياب. فقد كانت المنافسة بين النجم الساحلي والاتّحاد التونسيّ شديدة في موسم 1985 - 1986. وكان حظّ النجم في قرعة الكأس خوض دربي[1] الساحل مع اتحاد المنستير الجار اللّدود والدّابّة السوداء للنجم. كانت مقابلة صعبة جدّا على الفريقين لكنّ النجم كان أحرص على الفوز بها لأنّه فقد الأمل في البطولة بعد انتصار الاتّحاد عليه في سوسة وفي ملعب المنزه. وبالمقابل كان الاتّحاد يلعب بدوره مقابلة تصنّف ضمن دربي العاصمة الثاني مع الترجّي الرياضيّ التونسيّ. غير أنّ طريق الانتصار، رغم صعوبة التكهّن

(1) مصطلح أنكليزي يعني مقابلة رياضيّة بين فريقين ينتميان إلى مدينة واحدة أو مدينتين متجاورتين.

مكتبة الفكر الجديد

بالنتيجة في دربي العاصمة، كانت مفتوحة أمام باغندا ورفاقه. فالترجّي كان يمرّ سنتها بفترة فراغ تشبه الفترة التي عاشها الاتّحاد من قبل. وقد انتهى دربي الساحل بانتصار اتحاد المنستير بهدف نظيف.

وتبدو الأمور، في الظاهر، عاديّة. لكنّ الأخبار التي تسرّبت من أفواه اللاّعبين في المقاهي وحتّى بعض المسيّرين بعد مدّة أنّ عماد بلخوجة وعد لاعبي اتحاد المنستير بمنحة فوز تحفيزيّة قدرها ألف دينار لكلّ لاعب في حال الانتصار على النجم. وقد سلّم نصف المبلغ للّاعبين الأساسيّين قبل المباراة صبيحة اللّقاء وحالما أعلن المدرّب عن التشكيلة. لم تتمّ الصفقة مباشرة بل بواسطة لاعب الوسط المعار للفريق فريد بن عصمان ونجم الاتّحاد السابق المهاجم يوسف الفاهم. وكلّ من عرف الحكاية وما فيها فهم الوجه الاستثنائيّ الذي ظهر به الفريق يومها والاندفاع البدني المفرط والحرص الكبير على النتيجة والنشاط الذي ميّز أبناء المنستير.

- «هل يعتبر هذا طبيعيّا في المنافسة الرياضيّة؟ رأيي نعم. وما الخلل القانونيّ في ما وقع؟ لا خلل. وأين المساس بالميثاق الرياضيّ؟ لم أره».

هذا بعض ما سمعته من أنصار الاتّحاد دفاعا عن هذه الأساليب الجديدة التي أدخلها رجل الأعمال الشابّ.

أما أغلب أنصار الاتحاد المنتشين بنتائج الفريق الإيجابيّة فشعارهم: «في الكرة كما في الحياة، البقاء للأقوى». وإذا أسرفت أمام أحدهم في الاحتجاج بالأخلاق والقيم والمبادئ الرياضيّة ردّ عليك ساخرا من كل هذا الكلام.

حتى العقلاء من محبي الفريق، والذين لا يتحمّسون كثيرا في حبّهم له، يردّون بوضوح:

مكتبة الفكر الجديد

- «الكرة تغيّرت.. وعلى الآخرين أن يطوّروا طرق عملهم كما فعل الاتّحاد».

في أنّ المصيبة إذا عمّت... فعلا، كان الأمر في ما يبدو مسارا بدأه الاتّحاد ولا رجعة فيه. وليس أدلّ على ذلك من نتائج الانتخابات التي أجريت في الجلسات العامّة لمختلف النوادي الكبرى في صائفة 1985. فقد جاءت نتائجها بالنسبة إلى الفرق المتنافسة تقليديّا على البطولة (أي الترجي والإفريقي والنجم والنادي الصفاقسي) لتؤكّد هذا التوجّه الجديد: مسؤولون من رجال الأعمال والعائلات الثريّة في العاصمة أو سوسة أو صفاقس، وهيئات متكوّنة من المموّلين الأساسيّين للفريق، ووعود بإحضار مدرّبين أجانب من أعلى طراز، وانتدابات مكثّفة لتطعيم الفريق بأفضل ما يوجد في الساحة ولا مانع من انتداب لاعبين أفارقة ممتازين، وتوجّه نحو الألعاب الجماعيّة والتخلّي تدريجيّا عن الألعاب الفرديّة... وما إلى هذا ممّا اعتُبر من عوامل نجاح الاتّحاد التونسيّ بعد أزمة خانقة وركود كاد يذهب بريحه. بهذا طالب الجمهور واقتنع المترشّحون. فانتصر توجُّهُ عماد بلخوجة نهائيّا في الرياضة التونسيّة لنجاعته ومردوده الثابت وقُبِرَتْ إلى الأبد فلسفةُ الأخلاق الرياضيّة والشقشقة الوطنيّة التي دافع عنها الأستاذ مصطفى الشريف ونظراؤه في الفرق الكبرى.

غير أنّ سيطرة الاتّحاد تواصلت لسنوات. فقطاره كان قد أخذ سَبقًا مهمّا على بقيّة القطارات المنافسة وظلّ يأتي بالجديد في حين أنّ المجدّدين الذين تأثروا بتجديده انهمكوا في تقليده.

بعد أن انتُخبت الهيئات الجديدة في تلك الصائفة شرعت تبحث في سبل تحقيق وعودها. كان الاتّحاد بقيادة مسيّره يستعدّ لسنة

مكتبة الفكر الجديد

الخمسينيّة. سنة أراد فيها الثنائيّ (البطولة والكأس) بداهة، ولكنّ حصوله عليهما في الموسم المنقضي كان قد أهّله للمشاركة على الصعيد الإفريقيّ إمّا في بطولة إفريقيا للأندية البطلة وإمّا في بطولة إفريقيا للأندية الفائزة بالكؤوس، وعلى الصعيد الإقليميّ شارك في كأس شمال إفريقيا.

كانت المجموعة المتوفّرة للمدرّب زينهو قد انسجمت في ما بينها ووجدت السلاسة المطلوبة ونفخ فيها المدرّب روح التكامل والعمل الجماعي حتّى أضحى غياب أي لاعب أمرًا لا يؤثّر في أداء الفريق.

شرع عماد بلخوجة في انتدابات جديدة لم تكن منتظرة. لم يفهم كثيرون ماذا يحدث. أصبحت البلاد سوقا لبيع اللّاعبين وشرائهم طيلة الصيف. صارت الصحف تتحدّث يوميًا عن صفقة تاريخيّة مع لاعب كاميروني أو بوركيني أو ماليّ أو غيني أو غاني سيلتحق بالاتّحاد ثمّ نسمع به، من الغد، في ناد منافس. ويتناقل الناس في المقاهي أرقاما خياليّة بالملايين تُصرَف على جلب اللاّعبين وعمولات سماسرة بدأت أسماؤهم تنتشر شيئا فشيئا.

الدجاجة التي تبيض ذهبا. ظهرت لأوّل مرّة في تونس كلمة «مركاتو» يردّدها الجمهور كلّما تحدّث أحدهم لصديقه عن لاعب جديد في فريق جديد على سبيل الإعارة أو الانتداب. انتقلت عبارة «المركاتو» الإيطاليّة للدلالة على سوق كرة القدم التي انتصبت بين ليلة وضحاها فكثر فيها الباعة وعارضو السلع.

وكنتُ، أوّلَ ما سمعت هذه الحكايات عن نخاسة لاعبي كرة القدم ونزيف العملة الصعبة والأموال الطائلة التي يتحدّث عنها الناس، أتساءلُ عمّا يفسّر ازدهار هذه السوق فيما البلاد على حافة الإفلاس تعيش حالة

مكتبة الفكر الجديد

انهيار مكّن البنك الدولي وصندوق النقد الدولي من أن يصولا ويجولا في البلاد ويمليان شروطهما شاهرَين أظافرهما، أظافر الوحش، في وجه البقيّة الباقية من القطاع العام داعين إلى شدّ الأحزمة واتّباع سياسة التقشّف.

كانت عبارة مضاربة في اقتصاد سوق تحتيّ غير شفّاف البتّة أحسن وصف لما يقع في دنيا الرياضة ببلادنا. فعماد بلخوجة كان يشترى لاعبين أفارقة بعشرة آلاف أو حتى خمسة آلاف دينار ليبيعهم بعد أيام أو أسابيع بمائة ألف دينار أو يزيد. فارتفعت أجور اللاّعبين بسرعة جنونيّة وزادت أسعار تنقّلاتهم بطريقة مذهلة. ثمّ نشأتْ بصورة مكثّفة ومتواترة خلافات بين اللاّعبين اللاّمعين أو على الأقلّ المرغوب فيهم وبين نواديهم الأصليّة. ظهرت تبعا لذلك خلافات لا حصر لها بين الفرق حول هذا اللاّعب أو ذاك ومَن استقدمه أوّلًا؟ ومن سطا عليه وأغراه بما يفوق سعره الحقيقيّ في السوق؟ وصلت المعارك إلى أولياء أمور اللاّعبين خصوصا حين يكونون شبّانا يحملون في أرجلهم وعودا تبدو واضحة. فكنت تجد رئيس الجمعيّة يفاوض أبا أو أخا أو عمًّا في ركن من فندق على رؤوس الأشهاد. وحكاية لاعب مولديّة منّوبة والصراع بين الترجّي الرياضيّ والنادي الصفاقسي حول مَنْ سبق الآخر في الاتصال به معروفة شائعة منشورة في الصحف بعد أن وصلت إلى القضاء ليقول فيها كلمته التي لم تكن منصفة للنادي الرياضيّ الصفاقسيّ ولم يكن بمقدوره أن يتّهم القضاء بالرشوة.

إنّها الدجاجة التي تبيض ذهبا. ولعماد بلخوجة دور محوريّ في تربية هذه الدجاجة بعد أن فتح السوق وأضحى يتحكّم في بورصتها. ظلّ على تلك الحال طيلة السنوات العشر التي ترأس فيها الاتّحاد التونسيّ. والغريب أنّه لم يكن يظهر في الصورة أبدا. كان كعادته ابن أمين الشوّاشين الذي يتقن توزيع الشاشيّات ويجني منها الأرباح دون أن

مكتبة الفكر الجديد

يتورّط في أوساخ تلك الأنشطة المشبوهة التي تعتمد الطعن في الظهر والضرب تحت الحزام.

اختار أوّل الأمر لاعبين ومدرّبين ومسيّرين قدامى من أبناء الاتّحاد. شرع عن طريق أحد المحامين المطّلعين على عالم كرة القدم بإيطاليا بالخصوص في تدريبهم على مهامّ متعدّدة. فمنهم المخبر الذي يمدّ المكلّف بأسماء اللاّعبين المهمّين الذين يمكن أن يكونوا موضوع صفقة مربحة. ومنهم من درّبه على إتقان دور حائش الطرائد وجالب الزبائن الذي يدخل وسيطا يزعم للشاري أنّ له بضاعة ممتازة ويوهم البائع أنّ لها شاريا مخلصا جدّيّا موثوقا في ذمّته الماليّة. ومنهم من أصبح يلاحق اللاّعبين ويدرس وضعيّاتهم في كامل السرّيّة ويتنقّل المسافات البعيدة إن لزم الأمر لإعداد تقاريره الدوريّة. فللسلعة تاريخٌ وصلاحيّةٌ. لذلك تحتاج إلى أن تُدرَس دراسة علميّة منظّمة على مدى أشهر. فالمعلومة التي يوفّرها المخبر لا تعدو أن تكون منطلقا. ومنهم أخيرا من يتعلّم بعض ما ينبغي فعله في هذه المرحلة أو تلك من مسار الانتداب يساعد به المكلّف بالانتداب أو لنقل الوسيط الأساسيّ.

كلّ هذا الجيش من المتدخّلين وفّره عماد بلخوجة في وقت وجيز وبمواصفات ما انفكّت تتحسّن من عمليّة إلى أخرى. غير أنّ وراء هذا متدخّلين آخرين لا يظهرون في الصورة كذلك ولكن بدونهم لا يتمّ أيّ شيء. وهؤلاء هم أصدقاء الذئب الشابّ من مستشاريه القانونيّين وبعض المصرفيّين والسماسرة. بيد أنّ الدور الحاسم كان بيد المحامين الذين يعدّون الأوراق اللاّزمة ويتابعون الإجراءات.

وقد مثّل فندق الاتّحاد في الصيف وطيلة شهر من منتصف ديسمبر إلى منتصف جانفي من كلّ سنة جديدة سوقا يكثر زوّارها. وهي في الحقيقة سوق خاصّة باللاّعبين الذين يرغب الاتّحاد في انتدابهم. فيؤتى بهم من المطار مباشرة عبر الباب الخلفيّ للفندق إلى الطابق الثاني

مكتبة الفكر الجديد

الذي أسميته «بيت الأسرار». يتركون هناك رفقة وسيط لبقٍ خدوم، ليّنٍ لا يُعصَر ويابسٍ لا يُكسَر، مع حارس أنيق ببدلته السوداء وربطة عنق حمراء داكنة وقميص أبيض كالحليب. وحين يحصل الاتفاق في كنف السرّيّة التامّة يحضر رئيس البلديّة بنفسه حاملًا دفتره والأختام اللاّزمة مع عونَيْن أحدهما للتسجيل والآخر لقبض معلوم التسجيل فيُوقّع العقد ويُسجَّل ليصبح عقدا قانونيّا كالزواج المسيحيّ قوّة وارتباطا أبديّا في السرّاء والضرّاء ولكنّه يتيح لعماد بلخوجة الطلاق بمجرّد التلفّظ كأجدادنا من المحمّديّين الأقحاح.

وكم كان اللاّعبون الأفارقة في مرّات كثيرة ضحايا لهذه الآلة التي لا دين لها ولا شرعة غير دين الربح السريع وشرعة انتهاز الفرص. فحظّهم من الدراسة قليل وتجربتهم مع الوسطاء مفقودة. يأتون باحثين عن المجد معتقدين أنّ بياض مخاطبيهم معبرٌ لهم نحو فريق أوروبّيّ كبير. بل إنّ جلّ اللاّعبين التونسيّين من هذا الصنف المخدوع الذي لا يعرف كيف يحمي حقوقه أو يفاوض ليكون عقده متوازنًا حقوقًا وواجبات. وهذا ما وقع لباغندا أيضا وربّما كان سببا في ما تعرّض له من مشاكل وسببًا في اختفائه والاعتداء عليه بالخصوص.

والمفارقة أنّ هؤلاء الوسطاء الذين صنعهم عماد بلخوجة هم الذين يتكلّمون باسم اللاّعب الجديد ويتفاوضون حول الأجر الشهريّ والمنح وبقيّة الحقوق! إنّهم يجعلون اللاّعب كمن يرغب في الحصول على حقّه فيذهب إلى محامي الخصم ليدافع عنه أمام المحاكم.

ولكنّ العمليّة لا تخلو من خبث أيضا حسب ما يعلمه العارفون بأسرار الميدان. فليس للاّعب ثمن محدّد وإنّما هو خاضع لتقلّبات السوق ومدى حرص رؤساء الجمعيّات على انتداب اللاعبين وإمكانيّات الفريق الماديّة وغير هذا من المتغيّرات. وقد ذهب في وهم جماهير الكرة أنّ مهارات اللاعب هي المحدِّدة للتفاوض في العقود.

مكتبة الفكر الجديد

فباغندا مثلا لا يساوي ماليّا أكثر من خمسة آلاف دينار، رغم أهدافه الخمسة والأربعين التي سجّلها في موسم 1984 - 1985 محقّقا بذلك رقما قياسيّا. وهو سعر لا يسمح حتّى باقتناء سيّارة. وهذا شأن جميع اللاعبين الذين انتدبهم عماد بلخوجة في تلك الصائفة التي انتُخب فيها. زدْ على ذلك أنّ أجره الشهريّ لا يتعدّى الثلاثمائة دينار. وهو ما يفوق في الحقيقة أجر مدرّس في التعليم الثانويّ في تلك الفترة بقليل رغم الفارق في الدراسة والشهادات والمهامّ. لكن لا ننسى أنّ عمر اللاّعب قصير قد تنتهي حياته الرياضيّة بسرعة إن أصيب بكسر في الرجل أو أيّ حادث شغل في الميدان (أي أثناء اللّعب). أمّا المنح والمكافآت التي يحصل عليها فإنّه لا يعوّل عليها كثيرا لأنّها متغيّرة رغم أنّني أتصوّر أنّ نصيب باغندا منها كان كبيرا نسبيّا بحكم مشاركته في جميع المقابلات وتسجيله لذاك العدد الوافر من الأهداف.

ومقابل مثال باغندا روى لي شاكر دمّق، المسؤول المالي بإدارة الصحيفة وقد أصبحنا أصدقاء بعد ما نشرتُه عن باغندا، أنّ أحد النوادي اشترى لاعبا مغربيّا جلبه وسطاء من مجموعة عماد بلخوجة، فتعمّدوا رفع راتبه والمنحة الشهريّة والمبلغ المقبوض عند توقيع العقد فقط نكاية في الفريق الذي نافسهم عليه، ولإيقاع خسارة ماليّة به وبرئيسه الذي عاند عماد بلخوجة فتنازل عنه متصنّعا الهزيمة في هذه الصفقة. والواقع أنّ زينهو لم يرَ فائدة في إلحاقه بالفريق لتقدّمه في السنّ ولأسلوب لعبه الأنانيّ وعجزه عن مجاراة النسق السريع للفريق. وقد توهّم رئيس الفريق المنافس أنّه انتصر بذلك على أخطر رئيس جمعيّة في البلاد. هذا عدا عن أنّ العمولة التي قبضها الوسيط كان نصفها من نصيب عماد بلخوجة. لم يكن هذا الرئيس غير الخبير بالانتدابات يعرف وقتها أنّ نصيب الوسيط من الصفقة يرتفع كلّما انخفض راتب اللاّعب والعكس بالعكس. فطبّق ما أوهمه به من نسبة العشرة بالمائة من الصفقة

مكتبة الفكر الجديد

التي بلغت ثلاثمائة ألف دينار مع عمولة إضافيّة من باب الإكراميّة بعد أن أفهمه أنّ عماد بلخوجة مستعدّ لمنحه ضعف ذاك المبلغ فكان نصيب الوسيط ما يناهز الأربعين ألف دينار، وله نصف ذلك المبلغ في الواقع بما أنّ النصف الآخر من نصيب بلخوجة. وقد أقسم رئيس الاتّحاد حين أحضر إليه الوسيط العشرين ألف دينار ألاّ يلمس منها مليّما واحدا وأمر المسؤول المالي للفريق بتسجيلها هبة منه للاتّحاد التونسيّ يشتري بها لاعبا أو لاعبين!

كلّ شيء بالقانون.. يحيا القانون! هذا إذن بعض الكعك الذي يباع في «المركاتو» فيأكل منه الجميع تقريبا، رؤساء نوادٍ ومسيّرين ووسطاء ومن والاهم، يأكلون منه نصيبَهم بعد أن ركبوا كالقراد على ظهر اللاّعب. وكلّ شيء يتم بطريقة قانونيّة وبعقود مسجّلة تحمي حقوق جميع مَن لهم علاقة بعملية البيع والشراء. فالمهمّ في هذه الانتدابات والإعارات خلال «المركاتو» بموسمَيه الصيفي والشتوي إنّما هو رفع التحدّيات الرياضيّة وتحسين أداء هذا الفريق أو ذاك وإثراء الرصيد البشريّ وتغيير الأجواء أحيانا لعلّ هذا اللاّعب أو ذاك يجد أجواء مريحة في فريق غير فريقه فيقدّم الإضافة المرجوّة.

غير أنّ شاكر دمّق حدّثني يومًا عمّا سمّاه بالتقييد المحاسبيّ المزدوج. كان يتحدّث عن ميزانيّات الفرق التي قدّمت في الجلسات العامّة خصوصا الاتحاد التونسيّ والترجّي الرياضيّ والنجم الساحلي. وأكّد لي أنّ أيّ عمليّة حسابيّة تنطلق من الواقع المشاهد وما يوجد على الورق تكشف بسهولة استحالة أن تكون الميزانيّات المصرَّح بها كافية حتّى لخلاص أجور اللاّعبين والمدرّب وإطار التسيير وتغطية مصاريف السكن والنقل وغيرها ممّا يتّصل باليوميّ العاديّ. أمّا إذا دخلنا في باب شراء اللاّعبين فيصبح الكشف عن حقيقة الميزانيّات المخصّصة لذلك

مكتبة الفكر الجديد

من سابع المستحيلات. ولم يكن لشاكر دمّق، وهو الخبير بالأموال وبياناتها المحاسبيّة، من تفسير لذلك إلّا وجود قائمة ماليّة أخرى وحسابات سرّيّة. فالفرق بين التعهّدات الفعليّة لفريق مثل الاتحاد التونسيّ وتعهّداته المحاسبيّة فرق شاسع لا يمكن لأيّ مراقب مصاريف أو ملمّ بأبجديّات التسجيل المحاسبي ألّا يتساءل عنه.

بيد أنّه قدّم لي تفسيرَين مترابطين وجدتهما، وقتها، مقنعَيْن. أحدهما عاينه في ما ذكره أمين مال النادي من مصاريف مكتبيّة بلغت فيها مصاريف النسْخ الأربعين ألف دينار واقْتُنِيَتْ بنصفها صناديق حفظ الأرشيف واشتُريت بنصف العشرين الألف دينار أوراق وأقلام وحبر صينيّ... نعم حبر صينيّ! فمثل هذه التقييدات المدعّمة بفواتير ولا شكّ لا يمكن إلاّ أن تكون عمولات غير قانونيّة ورشاوى لمن أسدوا الخدمات.

وحين سألته عمّا يدعو أمين المال إلى مثل هذه الطرق غير السليمة التي لا تتطلّب من العارفين بالمحاسبة فطنة في اكتشافها، أجابني شاكر دمّق بحذره الفطريّ ملتفتا يمنة ويسرة كمن يبوح بسرّ لا يريد أن يسمعه أحد:

– «أنا متأكّد أنّ العقود المسجّلة غير العقود الفعليّة... معنى ذلك أنّ في الأمر تهرّبا جبائيّا وتزييفا للفواتير وتبييضا لأموال...»

– «ومن أدراني أنّك تخلط بين عشقك للنادي الصفاقسي وكرهك للاتحاد وبين استنتاجاتك هذه؟»

– «ومن قال إنّ فريقي المفضّل لا يفعل مثل فريقك المفضّل وأنهما، معًا،لا يفعلان مثل الاتّحاد التونسيّ؟».

الفنّ ورأس المال. حين بدأت التحقيق في أسباب اختفاء باغندا أو

مكتبة الفكر الجديد

الاعتداء عليه، لم أكن أعرف هذه الألاعيب الجهنّميّة وهذا الاقتصاد الموازي المشبوه. واصلت متابعة المسألة مدفوعا برغبة في فهم السياق الذي وقع فيه ما وقع على نحو يخرج عمليّة الاعتداء من صفحات الجرائم والمحاكم. إنّها أكثر من مجرّد جريمة عاديّة. كنت أبحث عن صلة مّا بين هذه الأجواء المتعفّنة وما أفترضه من اعتداء رأس المال الجشع على موهبة فنيّة كرويّة نادرة.

(لتعلم أيّها القارئ أنّ ما أقدّمه لك ليس خرافة تنتهي نهاية سعيدة ترسم على شفتيك البسمة وتشرح قلبك أو تتوّج بنهاية مؤلمة تستدرّ من عينيك الدمع فتتركك مفعَمًا بالأسى والحزن فينقبض لها وجدانك. فإذا كنت تبحث عن هذا أنصحك أن تغلق دفّتي الكتاب حالاّ لأنك لن تجد بغيتك. وإذا كنت تتحرّق لمعرفة حقيقة ما وقع لباغندا فلن تصل إلى مطلبك إلاّ بعد صبر في تتبّع خيوط الحكاية وخلفيّاتها وسياقاتها. فأنا لا أروي لك الحدث بما أنّك منذ الصفحات الأولى صرت تعرفه بل أسعى جاهدا إلى فهم ما وقع ودواعيه. فسؤالي الحقيقيّ هو لماذا حصل ما حصل؟ وكيف تمّ ذلك؟ وهذا باب مفضٍ إلى الافتراض والتأويل ويعسر الحسم فيه بمجرّد تقرير وقائع متماسكة مقنعة).

إنّ القرائن التي جمعتها تفيد أنّ للمسألة صلة بما كنت أتحدّث عنه. فباغندا ضحيّة، حسب ما أفترض، من ضحايا هذا الاقتصاد الخفيّ. لقد مرّت على جثّته عجلة المركاتو فدهسته وطحنته. نعم! هو افتراض ولكنّ الشهادات والقصاصات التي جمعتها تدلّ جميعها، إذا ما وصلنا ما تفرّق منها، على ما أذهب إليه وأزعمه أو هو على أقلّ تقدير تفسير مقنع لما حدث.

فقد وجدت قصاصات من صحف كثيرة تفيد أنّ باغندا أصبح مباشرة بعد موسم 1986 – 1987 مطلوبا من عدّة فرق خصوصا أنّه تُوِّج للمرّة الثالثة على التوالي هدّافا للبطولة. ولم يكن الخبر مباشرا واضحا يجيب

مكتبة الفكر الجديد

عن الأسئلة الأساسيّة التي يطرحها المرء في العادة من نوع، مَنْ؟ متى؟ أين؟، بل وجدت تصريحا قدّمه عماد بلخوجة إلى التلفزة التونسيّة نقل في صحيفة محلّيّة مباشرة بعد تتويج الاتّحاد التونسيّ. وقد ورد فيه ما يلي:

«صرّح رئيس الاتّحاد التونسيّ في غمرة التتويج بالكأس لمذيع برنامج «الأحد الرياضيّ» ردًّا على سؤال حول الأخبار التي راجت عن اتصالات بنجم الفريق وهدّافه باغندا من طرف فرق تونسيّة عديدة تطمع في خدماته، أنّ اللاّعب المذكور ملتزم بعقد لمدّة سنتين أخريين مع الاتّحاد وكلّ هذه المحاولات فاشلة لأنّ التفاوض يكون مع الهيئة المديرة وليس مع اللاّعب. وبعد إلحاح المذيع في السؤال عن مدى استعداد الفريق للتفريط فيه ردّ السيّد عماد بلخوجة أنّ باغندا لاعب شابّ ومازال لم يقدّم بعد المطلوب منه للاتّحاد التونسيّ الذي صرف عليه أموالا طائلة وأكّد أنّه مازال من المبكر الحديث عن نجوم في الفريق بما أنّ بروز باغندا يعود إلى أسلوب اللّعب الجماعي وما كان له أن يسجّل تلك الأهداف لولا الخطط التكتيكيّة التي يرسمها المدرّب زينهو، ولا شيء يؤكّد أنّ مردود باغندا سيكون مماثلا لمردوده في الاتّحاد إذا انتقل إلى فريق آخر، تونسيّ أو أجنبيّ. مستدلّا على ذلك بأنّه كان لاعبا مغمورا في فريقه الأصليّ وهو اليوم يحتاج إلى مزيد من النضج التكتيكي».

ورغم هذا الخبر الذي لا يحدّد الأندية التي اتصلت بباغندا فإنّ ذكرها في الجمع يجعلنا نتصوّر المبالغ التي عُرضت عليه. وهي مبالغ ضخمة ولا شكّ ، أو على الأقلّ لا تقارَن البتّة مع المبلغ الذي اشتراه به عماد بلخوجة. وإذا استحضرنا تعدّد الفرق الراغبة في انتدابه وتنافسها الحتميّ للفوز بالصفقة وإن بصفة مبدئيّة، تأكّدنا من أنّ المزايدات كانت كبيرة والمبالغ أضخم ربّما ممّا نتصوّر.

مكتبة الفكر الجديد

وعلى الرغم من شحّ المعلومات فقد وجدت قصاصة من جريدة رياضيّة كانت تصدر في ذلك الوقت بعنوان «صدى الملاعب»، وهي من الصحف التجاريّة، وقد ورد في ركن منها تحت عنوان «أخبار وأسرار» السرّ التالي:

«بلغ إلى علمنا أنّ فريقا كبيرا من العاصمة عرض على أحد لاعبي الاتّحاد التونسيّ الذين برزوا بصفة خاصّة، مبلغ خمسين ألف دينار للانتقال إليه مع راتب شهريّ يقدّر بألف دينار عدا المكافآت عن كلّ مباراة ومنحة التسجيل. ولكنّ فريقا آخر من الساحل ينافس على لقب البطولة عرض عليه مبلغ سبعين ألف دينار من دون أن يحدّد مصدرنا المقترح المقدّم حول الأجر الشهريّ وبقيّة الامتيازات وإن أكّد على السكن الراقي والسيّارة».

لنفترض أنّ هذه المعلومات التي قرأتها واحتفظت بها غير مطابقة تماما للواقع من جهة المبالغ المذكورة على الأقلّ. المهمّ بالنسبة إلى التحقيق الذي كنت أجريه أنّني لم أقرأ تكذيبا للخبر بل إنّ تصريح عماد بلخوجة للتلفزة الوطنيّة يؤكّد وجود مساع في هذا الاتّجاه. أضف إلى ذلك قيمة المبالغ المقترحة في حدّ ذاتها. وهي مبالغ، بالمقاييس التونسيّة في ذلك الوقت، مغرية يسيل لها لعاب أيّ لاعب حتّى إذا خفّضنا منها، من باب الاحتياط، إلى النصف بل الثلث. إنّها أرقام لم يكن باغندا، ولا غيره من اللاّعبين، يحلم بها. فهو فعليّا لا يحصل عليها في الاتّحاد التونسيّ.

كلّ هذا، إذا صحّ وثبت، يمكن أن يكون عامل توتّر بين اللاّعب وناديه. بيد أنّني لم أجد في الاتصالات التي قمت بها، ولا في الوثائق المصوّرة التي جمعتها، ما يفيد أنّ مسألة انتقال باغندا إلى فريق آخر بعد موسمه الثالث في الاتحاد التونسيّ قد كان لها تأثير في علاقته بناديه. وأنا أرجّح أن التصريح الواضح والصارم لعماد بلخوجة للتلفزة الوطنيّة

مكتبة الفكر الجديد

كان حاسما في معالجة هذه المسألة. فلا ننسى أنّ الصحيفة التي نقلت الخبر صحيفة شعبيّة غير مهنيّة لا أحد يثق فيها من الصحافيّين الجادّين.

ولكنّ الأمر مختلف بالنسبة إليّ. فقد جمعت عنه معطيات قليلة والحقّ يقال، ولكنّها قد تدعّم افتراضي عن صلة الاعتداء الفظيع على باغندا برغبته في الانتقال إلى فريق آخر أو سعيه إلى ذلك أو لنقل شروعه في الإجراءات المفضية إلى اللّعب لحساب فريق من الأرجح، حسب معلوماتي، أن يكون أجنبيّا وهذا بطبيعة الحال دون موافقة فريقه ورئيسه.

فالمعلومة الأولى التي عندي أنّ عماد بلخوجة انتدب في «مركاتو» شهر جانفي للموسم الرياضيّ 1986 - 1987 مهاجمًا من مالي يشغل موقع قلب هجوم يتمتّع بفنّيّات عالية وقوّة جسديّة محترمة ومهارة في اللّعب بالرأس بوّأته لأن يكون قلب هجوم المنتخب الماليّ. كانت صفقة مرتفعة الثمن ولا ريب بحكم مميّزات هذا اللاعب. وعلى كلّ حال شغل في الاتّحاد التونسيّ موقع قلب الهجوم مباشرة بعد اختفاء باغندا. بل استعمله عماد بلخوجة لتعويض باغندا حتّى قبل اختفائه وبلغت به النقمة على الجوهرة السوداء حدّ إنزاله للعب في الفريق الثاني (فريق الآمال).

ولم يكن مكانُ هذا اللاّعب الماليّ مقعدَ الاحتياط كما قد يُظنّ بل كثيرا ما عوّل عليه زينهو في مباريات حاسمة خصوصا خلال التصفيات المفضية لبطولة إفريقيا للأندية الأبطال أو بطولة إفريقيا للأندية الفائزة بالكؤوس. وفي أسوإ الحالات كان يتقاسم المباراة مع باغندا شوطا بشوط مهما يكن الوجه الذي يظهر به والأهداف التي يسجّلها.

وقد أزعج هذا باغندا. إذ اعتبر أنّ عماد بلخوجة تعمّد أن يخلق بينه وبين اللاّعب الماليّ منافسة كان المدرّب زينهو يبرّرها بالحرص على

مكتبة الفكر الجديد

الاقتصاد في مجهود اللاّعبين لأنّ ماراطون المقابلات مرهق خلال ذلك الموسم، كما في الموسم السابق، والفريق يلعب على خمس واجهات محلّيّة وإقليميّة وإفريقيّة. ولكنّ باغندا كان متأكّدا من أنّ هذه المنافسة كانت لإذلاله حتّى لا يظلّ النجم البارز في الفريق. واستقرّ في ذهنه أنّ عماد بلخوجة لا يحبّه ويعامله بقسوة لا مبرّر لها.

لم يترك عماد بلخوجة أيّ مناسبة يجتمع فيها باللاّعبين تمرّ من دون أن يزعج باغندا بكلام قاس. فهو حينا يدعوه إلى الانضباط والعمل الجاد. ويستنقص من جهده. وحينا يقول له بأنّه لم يكن شيئا يذكر وأنّه وليّ نعمته الذي انتشله من المستنقعات ليصنع منه لاعبًا. وفي إحدى المرّات خاطبه أمام جميع اللاّعبين، من دون مناسبة، قائلا:

- «باغندا.. لا تنس أنّي أعرف عنك كلّ شيء... فلا تتخابث... أنا من صَنَعَك وأستطيع أن أجعل الناس ينسونك بين ليلة وضحاها... أفهمت؟».

وأنا أتصوّر أنّ باغندا أعجز من أن يردّ على مثل هذا الاتّهام المباشر ومثل هذا التهجّم أمام جميع اللاّعبين. فهو شاب ينحدر من عائلة فقيرة يقف أمام وليّ نعمته ابن الذوات ورئيس النادي. ولكنّي أتصوّر أنّه سبّه في قلبه سبّا مقذعا من النوع الذي تعلّمناه في حيّنا وكنت أسمع باغندا في البطاح يرتّله على مسامعنا كالأناشيد المدرسيّة.

منعرج كوناكري. دعا عماد بلخوجة باغندا إلى مكتبه في فندق الاتّحاد صحبة لاعب آخر من حيّنا أيضا ليسَخْسِخَهما بعد أن بلغته أنباء عن سهرهما ليلة الأحد بعد المباراة وليلة الاثنين، وهدّدهما بفسخ العقد لإخلالهما ببنود حول الانضباط. اتّهمهما بأنّهما لا يتمتّعان بعقليّة اللاّعب المحترف الذي يحترم التزاماته مع فريقه. عاقبهما بالحرمان

مكتبة الفكر الجديد

من منحة ثلاث مباريات. وهدّد باتخاذ إجراءات أخرى في حال تكرار صنيعهما. واعتبر هذا مجرّد تنبيه.

غير أنّ أخطر وثيقة حول هذا الموضوع ضمّها ريبورتاج عن مقابلة بين الاتّحاد وفريق إفريقيّ من غينيا نشرته صحيفة تونسيّة ناطقة بالعربيّة في عدد صدر يوم الأحد. وقد دارت المباراة يوم السبت. أشارت الصحيفة إلى أنّ صاحب الريبورتاج وبقيّة حواشي المقال من مبعوثها الخاص إلى العاصمة الغينيّة كوناكري.

سرد التقرير سير المباراة بعد عرض تشكيلة كلّ فريق. انتهت المقابلة بنتيجة بيضاء، وهو ما يعتبر أمرا إيجابيّا للاتحاد في انتظار مباراة العودة. غير أنّني وضعت فقرة من فقرات الريبورتاج في دائرة بالقلم الأحمر وأشّرت على فقرة أخرى في مؤطّر خارج المقال بسهم غليظ.

أمّا الفقرة فقد ورد فيها الكلام التالي:

...وقام زينهو في الدقيقة 16 من المباراة بتغيير في الهجوم إذ عوّض باغندا الذي أضاع فرصتين واضحتين للتهديف في الدقيقة 4 والدقيقة 13. ولكنّ هذا التغيير لم يغيّر في النتيجة وظلّ الاتّحاد في وضعيّة دفاعيّة في أغلب الفترات.

أمّا المؤطّر وسط المقال فقد تضمّن معلومة بدت لي خطيرة أنقلها هنا لأنّه من الممكن إذا استعدنا سياق المباراة أن نرى فيها قرينة على ما نحن بصدد البحث فيه:

عبّرت الجماهير القليلة التي رافقت الاتّحاد التونسيّ إلى كوناكري عن استغرابها من التغيير المبكر الذي قام به المدرّب البرازيلي زينهو في الدّقيقة 16 واعتبروا أنّ بقاء باغندا على الميدان كان يمكن أن يجعل الفريق يعود بنتيجة الفوز إلى تونس. فقد تراجع هجوم الاتّحاد منذ خروج باغندا الذي كان يحاصره لاعبان غينيّان محاصرة لصيقة.

مكتبة الفكر الجديد

ولكنّ خروجه مكّن قلب الدفاع قائد الفريق المنافس من تنظيم صفوف دفاعه بطريقة أفضل كما حرّر قدمَي لاعب الوسط الذي كُلّف بمحاصرة باغندا بصفة أساسيّة فأصبح يعاضد الهجوم معاضدة أكبر ممّا قوّى الضغط على دفاع الاتّحاد.

وقد لاحظ الجميع حالة الغضب التي كان عليها باغندا عند مغادرته للميدان والتحاقه مباشرة بحجرة الملابس. وقد حاولنا الاستفسار عن أسباب هذا التغيير فرفض المدرّب التعليق مكتفيا بالقول إنّه تغيير تكتيكيّ. فما الذي يحدث بين الاتّحاد ونجمه الصاعد وهدّاف البطولة لموسمَيْن متتاليين؟

إلى هنا ينتهي المقال وهو مليء بالمعطيات التي يلخّصها الاستفهام في الجملة الأخيرة منه. فبقطع النظر عن مدى صحة جميع ما ورد في المقال المصاحب للريبورتاج فإنّ تهجّم عماد بلخوجة من مقاعد الاحتياط على باغندا وهو في الميدان أمر في حدّ ذاته يدلّ على وجود مشكلة تتجاوز إهدار لاعب لفرصتين. وقد ذهب أغلب المتابعين العارفين بكواليس الفريق آنذاك إلى أنّ عماد بلخوجة اتّهم صراحة باغندا أكثر من مرّة بالتخاذل وتعمّد إهدار الفرص ومنها فرصتا المباراة مع الفريق الغينيّ. لذلك سارع المدرّب بتعويضه بالمهاجم الماليّ الذي لم يكن حظّه من التهديف كبيرا مثل باغندا. لكنّ لباغندا وأهدافه سحرا خاصّا لا يراه الجمهور في غيره. لذلك لم يتخلَّ عماد بلخوجة عنه وإن ظلّ يهدّده في كلّ مرّة ويهينه أمام المدرّب والمسؤولين واللاّعبين والجمهور أيضا.

ولا يمكن أن يكون إهدار الفرص مبرّرا لكل ذلك. فللمسألة في ظنّي أسباب أخرى أعمق لخّصها مبعوث الجريدة إلى كوناكري بتساؤله عمّا يقع بين الاتّحاد و«بيلي تونس» كما يسمّيه المدرّب والجمهور.

مكتبة الفكر الجديد

وفي تقديري مثّلت هذه الوثيقة عن مباراة كوناكري، خلال تحقيقي، منعرجا مهمّا. فقد دفعتني إلى افتراض ما افترضته من صلة بين حدّة ردود فعل عماد بلخوجة تجاه باغندا وبين نجوميّته التي أسالت لعاب الفرق الأخرى. فمن له هذه المعلومات، رغم شحّها، لا يحتاج إلى عناء كبير أو ذكاء وقّاد ليستنتج أنّ المسألة مرتبطة بحرص استثنائيّ على استبقاء باغندا في الاتّحاد مع خوف شديد من انتقاله إلى فريق آخر. فغلظة بلخوجة يفسّرها، في رأيي، الخوفُ أكثر ممّا تفسّرها هفوات اللاّعب إن وجدت أو تقصيره أو تخاذله.

البروليتاري والديكتاتور. إنّ لأمثال ابن أمين الشوّاشين بنية نفسيّة تسلّطيّة عمادها الغطرسة وإرضاخ الآخرين لمشيئته وتدمير من لا يسايره منهم. فمن المعروف لدى هؤلاء المصابين بلوثة السلطة وعشقها أنّ من يحيطون بهم أدوات لتحقيق أهدافهم لا يستحقّون منهم تفهّما لمشاعرهم أو أمانيهم ولا مشاركة لهم في ما يرغبون فيه وما يحلمون به. وقد رسّخ نجاح الفريق في الموسم الأوّل الذي أشرف فيه عماد بلخوجة على رئاسته اعتقادا في عظمته وجعله يبالغ في تقدير إنجازاته وقدراته. ثمّ يأتي باغندا، ولم يكن من قبل شيئا يذكر، لينافسه النجوميّة. هيهات.. هيهات!

ابن حيّ شعبيّ فقير يريد أن يصبح نجما يسبّح الجمهور بجمال لعبه وفنّيّاته وأهدافه صباح مساء! هذا اللاّشيء سيحجب بنور نجوميّته الشمسَ التي أشرقت على الاتّحاد التونسيّ فأخرجته من ظلام الهزائم وغيهب التدحرج إلى الدرجة الثانية. فلا نجم حقيقيّا غير عماد بلخوجة أمّا هذا «الحثالة الحقير الفقير» الذي جعل منه ذو الحسب والنسب إنسانا مشهورا فإلى الجحيم إذا لم يعرف حقيقته وحجمه ودوره.

مكتبة الفكر الجديد

وفي جميع الحالات علينا ألاّ ننسى أنّ عماد بلخوجة لاعب سابق. صحيح كان لاعب كرة يد لكنّه لم يكن نجما في الفريق بل مجرّد لاعب لم يعمّر طويلا في الملاعب.

غير أنّ ما لم يحسب له عماد بلخوجة حسابا، رغم النظام المتقن الذي بنى عليه دعائم الاتّحاد التونسيّ، أنّ باغندا وأمثاله، وقد تربّوا في بيئة لا أفق لها غير العدم، تستوي عندهم الحياة والموت بل الموت أرحم أحيانا. ويصدق عليهم وصف كارل ماركس للبروليتاريا في «البيان الشيوعيّ». فهم إذا خسروا لن يخسروا غير القيود والفقر ليربحوا لحظات في الحياة ما كانوا يحلمون بها أبدا. فباغندا يلعب الكرة لأجل متعة اللّعب ولا يطلب شيئا غير عشب وكرة وحذاء رياضيّ وقميص وفريق منافس. بل حتّى هذه الأشياء هي من الرفاهيّة التي لم تكن تخطر بباله.

فكم لعب في بطاح بيضاء وفي أزقّة وأنهج إسفلتيّة، وكم ركض وراء كرات بلاستيكيّة أو حتّى كرات مصنوعة من الجوارب النسائيّة المحشوّة بأوراق جرائد وموادَّ أخرى ليّنة، وكم صوّب من كرات وراوغ دفاعات فرق منافسة وهو حافي القدمين لا حامي لقاع رجله من قطع الزجاج والجروح الغائرة، وكم مرّة لعب عاريَ الصدر إلاّ من سروال أو تبّان. فالقمصان وألوانها والأحذية وماركاتها وأرضيّات الملاعب بعشبها الطبيعيّ أو الاصطناعيّ ليست هي التي تسجّل الأهداف. يلعب ليرضي شيئا داخله ينصبّ كلّه في رجليه. ولا يلعب كما يتوهّم عماد بلخوجة للاتّحاد أو لغيره. فأنا أتصوّر، على حدّ معرفتي بشباب حيّي الذين كنت أشاركهم سنيّ المراهقة مباريات الأحياء، أنّ باغندا خُلق فقط ليداعب الكرة، بكرةً وأصيلا، فهي سبب وجوده كلّه. هل أبالغ؟ ربّما! ولكنّكم لا تعرفون شبّان الأحياء والمواهب التي تنبت كالفطر في الأزقّة والبطاح. وهؤلاء يريد عماد بلخوجة أن يروّضهم ويدخلهم في

مكتبة الفكر الجديد

قوالبه الجاهزة فإذا فاضوا عن القالب غَضِبَ. إنّهم خيول حرون جسّاسة تأبى القيود وتحبّ الخبب والركض والسباق في الساحات.

ولئن أَحْكَم عماد بلخوجة القيدَ على باغندا بعقد الإذعان الذي دفعه للتوقيع عليه لمدّة سنوات خمس، فإنّه لم يحسب حسابا ربّما لكون هذا البروليتاريّ الرثّ الذي اعتاد طيلة حياته على عدم الإذعان يمتلك نفس إنسان، له رغبات دفينة ويمكن أن تكون له طموحات.

وممّا زاد باغندا تعنّتا وفتح له منفذا للخلاف مع عماد بلخوجة أنّه أصبح مطلوبًا، ولمّا تكتمل بعد مغامرة بلخوجة مع الاتّحاد، من فرق أوروبيّة كانت تتابع النجوم في مسابقتَيْ الكأس والبطولة. جاء الوسطاء من مرسيليا وباريس ومونبيليي، وجاؤوا من ميونيخ وزوريخ ولياج. اتصلوا بعماد بلخوجة فأوهم بعضهم بالموافقة المبدئيّة ورفع الأسعار بطريقة غير مسبوقة ووعد وأمهل وسوّف ثمّ امتنع تماما عن الموافقة على أيّ صفقة قبل صائفة 1988. فالاتحاد يراهن على خمسة ألقاب في موسم الخمسينيّة. ولم يرجع الوسطاء الأجانب بغير الوعود رغم أنّ بعضهم كان حريصا على أن تتمّ الصفقة في «مركاتو» الشتاء، ولكنّ موقع عماد بلخوجة التفاوضيّ كان أقوى.

وعندما تكلّم فريق شبيبة الملّاسين عن منحة تكوين باغندا، وهي مفهوم جديد دخل وقتها الكرة التونسيّة بعد فتح سوق البيع والشراء، غضب عماد بلخوجة أوّل الأمر. ثمّ أرسل محامين للتفاوض مباشرة مع رئيس الجمعيّة فلم يكن لشبيبة الملّاسين مستشار قانونيّ. اعتقدوا أنّهم طلبوا مبلغا ضخما. طالبوا بعشرة ألاف دينار. قبل محامو الاتحاد شريطة أن يكون هذا المبلغ في صيغة مساعدات عينيّة. لم يفهم رئيس الشبيبة ذلك أوّل الأمر. كانت الصفقة واضحة: اتفاقيّة يتعهّد فيها الاتّحاد التونسيّ بمساعدة الفريق سنويّا بالكرات وأحذية اللاّعبين والأقمصة وبقيّة الملابس الضروريّة من جوارب وتبانات وبدلات رياضيّة مختلفة.

مكتبة الفكر الجديد

كان العرض مغريا وزاد عليه وعدا بإمكان تخصيص حافلة بخمسة وعشرين مقعدا على ذمّة الفريق. أمّا المقابل فهو سهل جدّا: منح الاتّحاد الأولويّة في انتداب لاعبي شبيبة الملّاسين وعدم تمكين أيّ فريق آخر من لاعب دون موافقة الاتّحاد. وتدوم هذه الاتفاقيّة خمس سنوات قابلة للتجديد.

ضرب رئيس الشبيبة أخماسه في أسداسه. قلّب المقترح على وجوهه فوجده أفضل ممّا طلب. عرض سخيّ لا يفرّط فيه إلاّ أحمق. تمّ التوقيع بسرعة في فندق الاتّحاد حيث أكرم عماد بلخوجة ضيفه كما لم يكرمه أحد من قبل، وعاد مع أعضاء الهيئة المديرة التي صاحبته إلى الفندق بهدايا شخصيّة ثمينة: لكل عضو ساعة يدويّة مذهّبة ومعشّقة بالفضّة ومجموعة متناسقة من حافظات النقود وحافظات كنّش الصكوك وحاملات مفاتيح عليها شعار الاتّحاد التونسيّ الأزرق والذهبيّ مصنوعة كلّها من الجلد الفاخر.

لم يدفع الاتّحاد ملّيما واحدا لشبيبة الملّاسين لا نقدا ولا عينا. استخدم عماد بلخوجة جزءا من هبة قدّمها رجل أعمال تونسيّ من عشّاق الاتّحاد يشتغل في إيطاليا للفريق صادف أن كانت ألوانها ممّا لا يتناسق مع لونَي الفريق وممّا يكرهه الذئب الشابّ لأنّه يذكّره بفريق آخر انتصر على الاتّحاد زمن مصطفى الشريف بستّة أهداف ظلّت إلى اليوم وصمة عار في سجلات الفريق.

واستعمل أيضا بعض معارفه للتوسّط باسم الاتّحاد في الكرات والأقمصة التي كانت تحمل رمز ماركة عالميّة شهيرة لكنّها كانت مقلّدة في الصين. هذا كلّ ما في سخاء عماد بلخوجة. أمّا الحافلة فلم تأتِ إلى اليوم. ومقابل هذا اشترى بلخوجة من شبيبة الملّاسين مدافعا وحارس مرمى ولاعبَيْ وسط وجناحا أيسر ليبيعهم بعد ذلك بمبالغ ضخمة. كان يشتري اللاعبين في «مركاتو» الصيف ليبيعهم في «مركاتو» الشتاء

مكتبة الفكر الجديد

والعكس بالعكس. وبين الشتاء والصيف وبحسب حالة السوق تتغيّر بورصة اللاعبين انتدابا جديدا أو إعارة.

ثورة البرّاكة. بعد أزمة منحة التكوين بدأت بالنسبة إلى عماد بلخوجة محنة جرْي الفرق الكبرى جميعا وراء باغندا. فقد تعدّدت أهدافه البديعة وكثرت الاتصالات باللّاعب مباشرة عبر وسطاء تونسيّين وأجانب كلّما عاد باغندا إلى بيته بعد المباريات.

منذ الاتصالات الأولى تكفّل منير الزرقوني (وزارة داخليّة الفريق!) بمراقبة باغندا ووضع العيون في كلّ مكان. وكانت التقارير مرعبة: سهرات في «البرّاكة» بضاحية سيدي بوسعيد.

كانت البراكة على ملك إخوة من سودان تونس تبيّن أنّهم من مشجّعي فريق آخر غير الاتّحاد. ولم تعرف عيون منير الزرقوني المبثوثة هنا وهناك داخل العلبة الليليّة وخارجها أين يخفونه حالما يتجاوز عتبتها. ولكنّه يغادرها أوّل الصباح في سيّارة صديق من أصدقائه أو محبّ من محبّيه في حالة سكر أو تخدّر.

زارت بعضُ الوجوه الأجنبيّة غير المألوفة في المكان البرّاكةَ من حين إلى آخر. كانت مصحوبة بحسان أجنبيّات. بدا ذلك لعيون الزرقوني أوّل الأمر عاديّا. فهذه العلبة اللّيليّة، وقتَها، كانت من أشهر ما يوجد في الضاحية الشماليّة لا يدخلها إلاّ من يوافق الإخوة الثلاثة والحرس الغلاظ في الباب على دخوله. لكنّ هذه الوجوه لم تكن تُرى طيلة السهرة. تختفي بصفة مفاجئة. وكثيرا ما شوهد أحد أصحاب البرّاكة يحيّونهم بطريقة ودّيّة تدلّ على سابق معرفة أو تنبئ، على الأقلّ، بوجود تفاهم مسبق. وبناء على هذه الملاحظة ربط الزرقوني في تقاريره بين تواتر اختفاء باغندا والزائرين غير

مكتبة الفكر الجديد

العاديّين في مكان خاصّ من العلبة الليليّة. رجّح أنّهم يسعون إلى إغراء الجوهرة السوداء.

أنكر باغندا هذه الاتّهامات جملة وتفصيلا حين واجهه بها عماد بلخوجة. اعترف بالسهر إلى ساعة متأخرة لكنّه أقسم أنّه يحبّ الرقص ولا يغادر المرقص ما إن يتجاوز عتبة العلبة اللّيليّة. يذهب إليها لأنّها تضع الإسطوانات الإفريقيّة التي تطربه وتثير رغبته في الرقص. طلب منه أن يرسل معه إن شاء شخصا ليراقبه عن كثب حتّى لا تصله من الحسّاد والكائدين أخبار ينقلونها لتحطيم صورته في عيني وليّ نعمته. كاد عماد بلخوجة يشكّ في التقارير وفي وزير داخليّته. طلب منه بلهجة الآمر ألّا يذهب إلى تلك الأماكن وأن يحترم بنود العقد ويحافظ على صحته ولياقته. كان حازمًا. أراد قطع دابر هذه الحكاية واستئصالها من جذورها.

يومها بدأت القطيعة بين البروليتاري والديكتاتور. رفض باغندا الانصياع للأمر معتبرا أنّ في الرقص، كما في الكرة، حياتَه كلَّها، وهو ليس مستعدّا للتخلّي عن أحدهما. حاجج عماد بلخوجة بأنّ أداءه على الميدان ممتاز ويسجّل الأهداف كالعادة ويمكّن الفريق من الانتصار في مباريات صعبة. لم يؤثّر عليه السهر أبدا، بل هو ضروري بعد أسبوع من العمل الشاقّ والتمارين اليوميّة والشعور بالاختناق في الفندق.

غضب عماد بلخوجة ولكنّه لم يردَّ على الفور. كان لعناد باغندا أثر سيء في نفسيّة الديكتاتور المتكبّر المتغطرس. أتصوّر منسوبَ الحقدِ الذي خزّنه تجاه باغندا. والأرجح عندي أنّ عدم ردّه عليه في الحال لم يكن حبّا فيه أو تسليما بحقّه في الرقص أو اعترافا بوجاهة حججه. لقد كان ببساطة في حاجة إلى خدماته لتحقيق حلمه بالخماسيّة والألقاب التي يدفع الغالي والنفيس للحصول عليها. فحتّى اللاّعب الماليّ، على قيمته ونجاعته، لم يكن بديلا حقيقيّا لباغندا الذي ظلّ يدهش الجميع

مكتبة الفكر الجديد

بمباغتته للفرق المنافسة وقلبه لمجرى اللّعب حين لا ينتظر أحد ذلك. كان يسجّل أهدافا تبدو مستحيلة.

ففي إحدى المباريات الإفريقيّة كانت ضربة البداية في الشوط الثاني للاتّحاد التونسيّ. وما إن مرّر إليه زميله الكرة ولمح حارس مرمى الفريق المنافس متقدّما حتّى أسكنها الشباك معلنا تغيير النتيجة التي كانت إلى حدّ تلك اللّحظة بيضاء. وعاد الفريق من «كامبلا»، على ما أذكر، منتصرا بهدفين نظيفين. الهدف الآخر أضافه باغندا في الدقيقة التسعين إثر هجوم معاكس عدا فيه عدوا يعجز عنه بطلنا الأولمبيّ محمّد القمّودي. كان الفريق المحلّيّ كلّه في الهجوم باحثا عن تعادل في اللّحظات الأخيرة قبل صافرة الحكم. انفرد باغندا بالحارس. راوغه. سجّل الهدف رغم عرقلة الحارس له عرقلة واضحة كادت تسقطه أرضا.

هذا بعض ما يمكن أن يجعل عماد بلخوجة يدير لسانه ألف مرّة قبل طرد باغندا من الاتّحاد أو معاقبته عقابا يسيء إلى الفريق قبل أن يسيء إلى شخص لا يعرف الخسران إليه سبيلا. ولا شكّ أنّ باغندا في ما أقدّر يدرك بحدسه هذا الأمر ويتعامل معه بشيء من الاستخفاف وعدم المبالاة. بل ربّما كان هذا الاستخفاف وهذه اللاّمبالاة سرّ توفيقه ونجاحه لأنّه يلعب بشوق حقيقيّ وبدافع أعمق من ضغط النتيجة والانتصار، فتأتي الأهداف على نحو طبيعيّ دون إفراط في الحسابات والتقديرات. وقد لا يلائم هذا الذي جُبل عليه باغندا عقلانيّةَ الكرة الحديثة وتطبيقات النظريّات والخطط المرسومة. ولكنّ المدرّب البرازيلي الذي كان بدوره لاعبا موهوبا وتعامل من قبل مع المواهب، عرف في ما يبدو كيف يترك لباغندا متعة اللّعب بحرّيّة مع صرامة اتّباع الأسلوب البرازيلي في الأداء. والواقع أنّ موهبة باغندا كانت تناسب بطبيعتها الأسلوب البرازيليّ على الأقلّ في المراوغة والمباغتة والتحكّم في الكرات الأرضيّة. فمن ميزات باغندا، مذ كنّا

مكتبة الفكر الجديد

نلعب في الحيّ مع بعضنا، أنّه يصعب علينا جميعا افتكاك الكرة من رجليْه كأنّها مشدودة إليهما بمغناطيس.

واعتقادي أنّ حرص بلخوجة على باغندا استثنائيّ لا يناسب عنجهيّته المفرطة. فقد صدر مقال بجريدة «الـرأي» المعارضة في عدد صودر بسرعة من الأكشاك (بسبب مقال آخر على الأرجح يتعلّق بخلافات القصر) يروي فيه كاتبه الواقعة التالية:

فجّر أحد اللاّعبين الدوليّين الجزائريّين السابقين في حديث خصّ به صحيفة فرنسيّة قنبلة إعلاميّة خطيرة متّهما رئيس الاتّحاد التونسيّ شخصيّا بالضغط عليه خلال شهر رمضان لإجباره على الإفطار. واعتبر ذلك سببا في سوء علاقته بالاتّحاد ومغادرته للفريق منذ أشهر.

وحسب اللاّعب الجزائريّ مرزاق إبراهيمي بقي خلال اليوم الأوّل من رمضان في غرفته بالفندق ولم يصطحب زميله في الغرفة إلى التمارين الصباحيّة متمسّكا بأداء فريضة الصيام. وبعد أقلّ من ربع ساعة دعاه عماد بلخوجة إلى مكتبه محاولا في البداية إقناعه بالالتحاق بزملائه في الحافلة لإجراء التمارين كالعادة مذكّرا إيّاه بأنّ جميع اللاّعبين في الاتّحاد لا يصومون بأمر من طبيب الفريق، وفسّر له تفاصيل كثيرة عن تراجع أداء الرياضيّين جرّاء الصوم. ثمّ أمام إصرار مرزاق إبراهيمي على حقّه في الصوم ذكّره بأنّه لاعب محترف على ذمّة الفريق ثمّ إنّه على استعداد لإحضار إمام جامع الزيتونة المعمور ليستصدر فتوى تبيح له الإفطار.

غير أنّ كلام عماد بلخوجة لم يقنع اللاّعب الجزائريّ الذي تمسّك بالصوم، فما كان من رئيس النادي إلاّ أن جمّد نشاطه وبدأ في مضايقته إلى أن طلب فسخ العقد الذي يربطه بالاتّحاد فتمّ له ذلك بعد أن غرّمه بمبلغ محترم مهدّدا إيّاه بتعطيل مسيرته الرياضيّة ولو لعب في المرّيخ.

مكتبة الفكر الجديد

وقد صرّح مرزاق إبراهيمي للصحيفة الفرنسيّة أنّه عاين بنفسه مجاهرة اللاّعبين بالإفطار بشكل عاديّ مؤكّدا أنّه رغم الصعوبات التي يلاقيها للعثور على عقد مقبول فإنّه غير نادم على تشبّثه بما يرضي ربّه.

حكاية سويسريّة. تعرّفت في زيارة لأخي صلاح الدين في سويسرا إلى الحبيب زغروبة (أو زقروبة لا أذكر بالضبط، فاسمه كان مكتوبا على بطاقة الزيارة بالحروف الأعجميّة ولم أتبيّن نطقه جيّدا). رجل أعمال تونسيّ من أصدقاء أخي. هاجر إلى سويسرا منذ أكثر من عشرين عاما حيث تزوّج سويسريّة من عائلة تملك مصانع للشكولاطة الرفيعة.

عندما جاء سي الحبيب في زيارة إلى تونس اتصل بي ليوصل إلى العائلة بعض الهدايا التي أرسلها صلاح الدّين. دعوته إلى قهوة في فندق «الأنترناسيونال». طفقنا نتجاذب أطراف الحديث في ذكرياتي عن سويسرا وعن حياة التونسيين والعرب هناك. وفي سياق حديث عن الأعمال وعن النظام وحُسن التدبير لدى السويسريّين وعن التونسيين في تلك البلاد، ورد ذكر باغندا.

زار باغندا سويسرا في شهر جويلية المنصرم، أي شهر جويلية من تلك السنة 1987، وقام باتصالات مع فريق «أف. س. زوريخ» وأجرى اختبارين، طبّي وفنّي، ناجحَيْن ولكنّ الصّفقة لم تتمّ. وقد أرجع السبب إلى خداع الوسيط التونسيّ وعدم معرفته بعالم الأعمال، وسذاجة اللاّعب وتركه حبل مستقبله على غارب من يهمهم المال ولا يشغل بالهم مستقبل اللاعب في عالم الرّياضة.

ولم تكن علاقتي بسي الحبيب تسمح لي بطلب المساعدة للحصول

مكتبة الفكر الجديد

على معلومات دقيقة وتفاصيل عن لقاءات باغندا في زوريخ، أو عن الوسيط الجشع. لكنّ المعلومة التي وفّرها لي مهمّة جدّا.

هذا اللقاء دفعني إلى البحث عن الأخبار المتعلقة بتلك الرحلة السويسرية لباغندا. بدأت من مراجعة أرشيف صحيفتنا وبعض الصحف الأخرى ابتداء من أوائل شهر جويلية 1987 إلى يوم الاعتداء على باغندا. تثبّتُ ونقّبتُ فلم أجد ولو إشارة. سألت عددا من أصدقائي الذين لا تفوتهم شاردة أو واردة من أخبار الاتّحاد فلم يذكروا هذه الرحلة السويسريّة ولم يسمعوا بها قطّ وإن أصبحت بعد أن تحدّثت عنها منتشرة في المقاهي ولدى الجمهور تُذْكر كلّما ذُكرت مناقب باغندا ونجوميّته التي قُصِفَتْ في المهد. كنت تسمع هذا يراهن على أنّه لو التحق بنادي «أف. س. زوريخ» لحصل على الكرة الذهبيّة، والآخر يزايد زاعما أنّ الدولة السويسريّة كانت ستمنحه الجنسيّة ليلعب في فريقها الوطنيّ، مثلما فعلت مع غيره من اللاعبين الأتراك مثلا. وتوسّعت دائرة تلك المعلومة لتتحوّل إلى قصّة كاملة عن انتقاله إلى ريال مدريد أو «البرسا» أو لعبه في البوندسليغا مع أغوال ألمانيا أو إضفائه على الكالشيو نكهةً جديدة تزيد الكرة الإيطاليّة ذات الطابع الدفاعيّ إمتاعا على إمتاع.

هل كان باغندا سيلعب في «أف. س. زوريخ» أم لا؟ ذاك هو السؤال الذي لم يكن أحد يعرف إجابة واضحة عنه في تونس. ولكنّني لا أستطيع أن أكذّب الحبيب زغروبة في المعلومات التي قدّمها. فالرّجل مطّلع على خبايا عالم الأعمال في سويسرا ولم يكن ليمرّ على حكاية باغندا لو لم يُذكر اسمه أمامه. وهو في كلماته القليلة قدّم تفاصيل واضحة عن وسيط غير نزيه، وصفقة لم تتمّ، واختبار طبيّ وآخر فنّيّ. ولا شكّ أن هذا لم يكن اختراعًا لا مبرّر له.

المهمّ عندي أنّ الاعتداء على باغندا جاء بعد هذه الرحلة التي من المفترض أنّه قام بها إلى سويسرا للّعب لفائدة هذا الفريق السويسري.

مكتبة الفكر الجديد

ولا يمنع عدم ذكر الخبر في الصحف تأكيد مثل هذا الافتراض. فإخفاء المعلومة وعدم ظهور رئيس الجمعيّة أو من يمثّله في الصورة لممّا يزيد الافتراض قوّة. فلا معنى له إلاّ أنّ الاتّحاد ورئيسه الذئب لم يكونا على علم بما دبّر باغندا ونوى وشرع فيه. لقد تصرّف من دون الرجوع، كما ينصّ العقد، إلى الآمر الناهي في الاتحاد التونسيّ. بل من دون علم الشخص الذي لولاه، كما يعتقد عن حقّ أو باطل، لما كان لباغندا أصلا وجودٌ في دنيا النجوميّة. فهل من تطاول وتمرّد ونكران جميل وتحدٍّ ولؤم وقلّة معروف أكثر من هذا؟ ألا يستحقّ باغندا وأمثاله العقاب والتأديب ليكون، على الأقلّ، عبرة للمتطاولين، أو لمن تسوّل لهم أنفسهم اللّعب في الوقت الضائع وتسجيل الأهداف بالحيلة والمسارقة في غفلة من الحَكَم ومساعديه؟

هذا هو تقديري للمسألة وإذا أراد المحقّقون النزهاء البحث عن الجناة فعليهم تتبّع هذا الخيط لأنّه مفضٍ بالضرورة إلى المخطّطين والمدبّرين والمموّلين. أمّا المنفّذون فهم مجرّد أدوات الجريمة.

إلى مَنْ توجَّه التهم؟! على حدّ ما أوصلني إليه بحثي واطلاعي على بعض خفايا الاتّحاد التونسيّ فإنّه يمكن توجيه إصبع الاتّهام إلى عدد من الأشخاص اعتمادا على قرائن قد لا ترقى إلى درجة الحجّة القاطعة ولكنّها تحمل أدلّة على الرغم من الغموض الذي يحفّ بملفّ باغندا. فالمدبّر في رأيي هو مؤدّب باغندا نفسه، وأقصد بكلّ وضوح عماد بلخوجة. ففي تاريخه، مذ كان تلميذا، اعتمد مثل هذا السلوك لتصفية حساباته مع من يختلف معهم أو يريد تلقينهم الدرس الذي يراه، أو أحيانا إيذاءهم هكذا من دون سبب واضح أو مقنع. فما بالك والسبب في تصرّف باغندا أكثر من مقنع.

مكتبة الفكر الجديد

فلتتصوّر أنّ خطّة باغندا نجحت وانتقل إلى الفريق السويسريّ. لتتصوّر لحظة تداعيات ذلك على الفريق. فأيّ انضباط يمكن لبلخوجة فرضه؟ وأيّ عقد يمكن للّاعبين احترامه خصوصا أنّه عقد يفتقد إلى الصبغة القانونيّة تامّة الشروط بالنسبة إلى الرياضة التونسيّة ما دامت كرة القدم في تونس تقوم على الهواية لا الاحتراف، ولا وجود لعقد احتراف تَعْترفُ به سلطة الإشراف. فما فعله عماد بلخوجة ومحاموه إنّما هو في نهاية الأمر ضرب من التحيّل القانونيّ بنقل عقد عامّ من مجال إلى آخر لا يخضع لمثل هذا النوع من الالتزامات. أو لنقل إنّه في أحسن الأحوال إيجاد لصيغة في التعاقد تكرّس واقعًا ملتبسًا يعرفه الجميع، وهو واقع الاحتراف أو شبه الاحتراف، ولكن لا أحد يريد وضعه، آنذاك، في إطاره القانونيّ السليم.

لتتصوّر باب جهنّم الذي سيفتح لو ذهب باغندا. فكم لاعب سيطلب المغادرة ويفسخ فعليّا عقد الإذعان غير القانوني الذي يشبه الاستعباد. فما معنى البقاء مدّة خمس سنوات على ذمّة الفريق من دون تنصيص على الحقوق الماديّة والزيادات والضمان الاجتماعيّ والتقاعد وغير ذلك من حقوق اللاّعبين؟ وما معنى أن يوقّع لاعب عقدًا من دون أن يكون له محام يفهم لغة العقود بل يؤتى باللاعب في حفل توقيع يرى فيه الجميع يوقّع فيحذو حذوهم ومن دون أن يفهم ماذا يفعل. نعم! القانون لا يحمي المغفّلين ولكنّ واقع الحال هو استغفال منظَّم منهجيّ يستغلّ ثغرة قانونيّة، ويستثمر رغبة شبّان في حمل الزيّ الأزرق والذهبيّ لفريق عريق، فيوقع بهم ليسلّموا رقابهم لمخادعين يستثمرون في البشر لا في كرة القدم.

وشخصيّا لا يساورني أيّ شكّ في أنّ الرأس المدبّر هو عماد بلخوجة. أمّا التنفيذ فلا يحتاج إلى تفكير معمّق، فالأراذل في أحيائنا الشعبيّة والطامعون وأتباع بلخوجة من السفلة يُعَدّون بالعشرات بل

مكتبة الفكر الجديد

المثات. بيد أنّني لا أتصوّر أن يكون على هذا القدر من الغباء، فالعمل في مثل هذه الجرائم يتمّ على نحو غير مباشر. قد تتّجه الظنون، أوّل الأمر، إلى منير الزرقوني. فهو الرابط بين بلخوجة والمنفّذ أو المنفّذين. غير أنّني أستبعد ذلك جدّا ليس لنبلٍ في الزرقوني، فهو رجل المهمّات القذرة وسجلّه في الخساسة حافل، بل لأنّ إشرافه على هيئة الأنصار بصفة رسميّة يجعل اللّعبة مكشوفة فيصبح الوصول إلى طالب الخدمة بعد القبض على الجناة والمنفّذين أمرا يسيرا. وإذا أمكن لي أنا أن أتخيّل الأمر، ولا خبرة لي في الإجرام، فكيف يغيب هذا التسلسل المنطقيّ عن داهية مثل عماد بلخوجة يشتغل دماغه بسرعة آلة الغسيل؟

الواقع أنّني لا أملك إجابة شافية عن المنفّذين وليس من مهامي أن أحدّد الوقائع بالضبط فغايتي هي التعمّق في الدواعي وبيان الخلفيّات ولا دخل لي في التفاصيل الفنيّة. بل إنّ ما يدعّم رأيي في أنّ الفاعل الحقيقيّ أراد إخفاء العمليّة الإجراميّة بدوافعها «المركاتويّة» التي أفترضها هو ما أُشيع بين الناس من أنّ باغندا تعرّض لحادث وهو في حالة سكر، وأثبتت التحاليل آثارا للمخدّرات في دمه. وما أنا متأكّد منه هنا أنّ منير الزرقوني هو مصدر الإشاعة فقد انطلقت حسب أبناء حيّنا من مقهاه ومن أفواه أعوانه على أنّه سرّ عظيم لا يعرفه إلاّ المقرّبون من رئيس الجمعيّة.

وهذه حكاية تستحقّ أن تروى. فإن لم تفد كثيرا في معرفة الدافع الحقيقيّ الذي وقر في ذهني فإنها تفيد في معرفة جوانب من حياة النجم الآفل بسرعة، بيلي تونس، الجوهرة السوداء باغندا.

مكتبة الفكر الجديد

«النيغرو» والغادة الحسناء

مكتبة
الفكر الجديد

صراع الرّوايات. بعد أن أنكرت هيئة الاتّحاد التونسيّ وقوع حادث لباغندا، وسفّهني رئيس النادي مُدخلًا الاضطراب على الجريدة التي أشتغل فيها، لم يكن من الممكن إخفاء الخبر لمدّة طويلة. فقد تساءلت الجماهير عن سبب غياب باغندا أوّل الأمر، ثمّ أصبح تصديق روايتي المضطربة التي لم أنشرها باسمي كاملا مصدرا لكلّ السيناريوهات التي تفسّر ابتعاد نجم الاتّحاد عن الميدان.

اتصل بعض أبناء الحَيّ، في اليومين الأوّلَين، بأفراد من العائلة مستفسرين عن باغندا مستوضحين مدى صحّة الخبر. لكنّ العائلة كانت على كلمة واحدة: باغندا خارج تونس للتداوي من إصابة. فلمَ لمْ تنشر الصحف هذا الخبر العاديّ الذي يعلي من شأن الفريق الحريص على سلامة لاعبيه ومداواتهم في أفضل المصحّات الأجنبيّة؟ لا أدري إلى الآن هل كانت العائلة تعتقد ذلك فعلًا أم إنّها تعيد ما أمرها عماد بلخوجة وأعوانُه بأن تردّده على مسامع النّاس. تحمّس بعض أبناء حيّنا لهذا الخبر وتداولوه في ما بينهم مؤكّدين ألّا أحد يمكن أن يعرف حقيقة مكان باغندا وما أصابه فعلا لا تقوّلا أكثر من عائلته. دامت هذه الرواية أقلّ من أسبوع. واعتبرها الجميع من باب الحبوب المهدّئة. فكيف تقول

مكتبة الفكر الجديد

العائلة هذا ولا أحد من الصحافيّين استطاع الحصول على المعلومة من مصدر رسميّ في الفريق الذي يلعب فيه؟ من يريد إخفاء الخبر ولماذا؟

نعم بإمكاننا أن نكذب على الناس ولكنّ حدسَهم قويّ وحبل الكذب قصير. لذلك حصل إجماع على أنّ ما قالته العائلة كان بداعي الخوف، أو الرشوة. وبالتالي فهي إمّا أن تكون مشاركة فيه أو مذعنةً له مكرهةً عليه لأمر مّا. والأغرب أنّ العائلة كلّها، وقبل أن يمرّ على الحادثة أسبوع واحد، لم يعد لها أثر في الحيّ. فقد رُوِي أنّها انتقلت إلى مكان مّا في الضاحية الشماليّة، وقيل إنها انتقلت إلى أحد الأحياء الراقية الجديدة. لم ير أحدٌ هذا الانتقال المزعوم عدا بعض الهمس في المساكن المجاورة ولدى باعة الخمر خلسة ومروّجي «الزطلة»[1]. تركوا، حسب بعض الشهادات، كلّ شيء في البيت المتداعي الذي يكاد يسقط رغم التحسينات التي أُدخلت عليه. أحكموا غلقه ليغادروا ولمّا يتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود. فهل كانت مغادرة طوعيّة؟ لا أظنّ ذلك. الأرجح عندي أنّها عمليّة ترحيل قسريّ تمثّل جزءا من مخطّط إخفاء الخبر وكفّ الألسن وتوجيه غضب الجمهور لينصبّ على العائلة التي صمتت على ما حصل لباغندا.

لكن الجمهور الذي أحب باغندا يحتاج إلى مادّة لتمضية الوقت في المقاهي فراح، حين بانت هلهلة حكاية العائلة وتهافتها، يتداول حكاية أخرى مفادها أنّ باغندا في فرنسا على وجه التحديد ولكن لسببٍ أخطر من مجرّد التواء في الكاحل أو تمزّق عضليّ في المتقاطعات الأربعة كما تقول الرواية الأولى.

وعندما لم يظهر أي توضيح لسبب غياب باغندا، راحت الإشاعات، خاصة بين أبناء حيّنا، تتحدث عن أمور خطيرة حصلت معه تستدعي

(1) نوع من المخدّرات يعرف بالقنّب الهنديّ.

مكتبة الفكر الجديد

التكتم على حالته. وشاع أنّ باغندا تعرّض إلى حادث مرور شنيع ليلة الأحد على الطريق التي تربط بين قمّرت والمرسى في مستوى «البحر الأزرق»، حوالي الساعة الرابعة صباحا. وتقول الشهادات إنّ باغندا لم يحترم إشارات المرور وتجاوز الضوء الأحمر. فكاد يصطدم بسيّارة تتحرّك للخروج على يمناه بعد أن اشتعل الضوء الأخضر لسائقها. فما كان من باغندا إلاّ أن اتّجه إلى اليسار وفقد التحكّم في المقود ليجد نفسه في الطريق الموازية بعكس اتجاه السير.

حضرت دوريّات الأمن والحرس الوطنيّ والإسعاف وتم نقله إلى مستشفى المرسى القريب حيث تبيّن أنّه أصيب في فقرات الظهر والنخاع الشوكيّ مع كسر في الزّنار الحوضيّ فنُقل على جناح السرعة إلى مستشفى «القصّاب» لتقويم العظام بمنّوبة. لكنّ رئيس الجمعيّة ما إن بلغه النبأ حتّى أمر بنقله إلى فرنسا على عجل للتداوي هناك.

وما لا يعلمه الجميع، وإنّما يردّدونه من باب التخمين، أنّ الأطبّاء في تقريرهم ذكروا أنّه كان في حالة سكر وعثروا على آثار مخدّرات في دمه. وهذا ما أكّده تقرير الشرطة العدليّة حسب ما أسرّ لي سي عثمان ضابط الأمن حين زرته في مكتبه لمساعدتي على استخراج وثيقة من وزارة الداخليّة بعد الحادث.

وبالمقابل كذّب سي عثمان الأقاويل التي تحدّثت عن وجود فتاة من فتيات اللّيل مع باغندا في السيّارة ألهتُه عن القيادة. وقد نسج الخيال العقيم حكاية طويلة عريضة كما لو كانوا يشاهدون شريطا سينمائيّا من الأشرطة الإباحيّة. هكذا هم أبناء حيّنا يقتلون الوقت ويملأون الفراغ بمضغ الحكايات التي يختلقونها ويثرونها بكلّ ما هو مثير. فلم يكن المقصود بذلك باغندا المحبوب لديهم لإبداعه الكرويّ بل الغاية الأساسيّة إنّما هي تطريز الحكايات وزخرفتها بالغرائب والنوادر

مكتبة الفكر الجديد

المنعشة للحواسّ المتبلّدة والخيالات العميقة الثاوية فيهم والرغبات المكبوتة التي لا تجد غير الكلام تتحقّق فيه.

ولستُ أخفي توجّسي من هذه الحكاية رغم ما أكّده لي سي عثمان. فالجميع يعلم أنّ عماد بلخوجة يتوفّر على شبكة من العلاقات واسعة لم يسلَم منها الأمن نفسه ورجاله وحتّى المسؤولون فيه، بل خصوصا المسؤولين. فما الذي يمنع من أن يكون ما حرّره حرس المرور ثمّ الشرطة العدليّة واطّلع عليه سي عثمان أو بلغه ما فيه مزيَّفا محرَّفا مكتوبا بتعليمات من هذه الجهة أو تلك؟ فالرّجل القويّ المتنفّذ قادر على ما لا يخطر على بال.

من يسرق بيضة يسرق دجاجة. الثابت عندي عيانا، قبل أن يكون خبرا، أنّ باغندا من الصنف الذي لا يمكن أن يُقال عنه «كان على خُلُقٍ» ولا أزيد. فمعاقرته للخمور معروفة عنه منذ مراهقته لظروف قد أرويها في ما بعد. وكلّنا، نحن أبناء الأحياء المجاورة للحيّ الذي عاش فيه، نعرف مخالطته لمستهلكي المخدّرات وبائعيها بالتفصيل ولا نستغرب أن يكون منهم وشارك في الترويج لها من باب الحاجة. أمّا سيرته مع الجنس الآخر فكان يرويها في الحيّ متفاخرا متندّرا بمغامراته مع النساء المتصابيات، أو اللواتي بالكاد تشبهنَ النساء، ويبحثن عن فرخٍ، أو شابٍ، أسمر مثله.فليس لهنّ من دين غير المال.

وليكن واضحا أيضا من الآن: إنّ باغندا على قدراته الفنّيّة والبدنيّة ليس اللاعب المثاليّ الذي يحافظ على صحّته ونظامه في الحياة. فلا يتورّع عن إتيان المفاسد التي تهدم جسم اللاعب ويبيع مجده الكرويّ المتوقّع من أجل لذّة زائلة لا يهتمّ بما تتركه من أثرٍ مدمِّرٍ عليه.

ولا شكّ أنّ عماد بلخوجة قد أزعجته نزوات باغندا الكثير، ولم

مكتبة الفكر الجديد

يستطع ترويضَه تماما في الموسم الأوّل الذي التحق فيه بالفريق، خصوصا أنّ «وزير داخليّة» الاتحاد التونسيّ، منير الزرقوني، لم يشكّل وزارته ولم يختر أعوانه بالسرعة المطلوبة.

وكان بلخوجة قد تدخّل أكثر من مرّة في أكثر من حادثة لإنقاذ باغندا من مشاكل أوقعته فيها نزواته. وقد أخبرني سي عثمان بعض الحكايات عن تصرفات باغندا. فقد ألقت الشرطة القبض عليه في ملهى «الرانش» بالحمّامات بعد أن اعتدى على حريف نبّهه إلى أنّ الفتاة التي يتحرّش بها في حلبة الرّقص هي صديقته فلم يتردّد، ربّما تحت مفعول السكر، من لكمه وركله. ولولا تدخّل أعوان الحراسة وتسليمه للشرطة لواصل تهجّمه على الرّجل. وكاد يقضي ليلته في الإيقاف لو لم يتدخّل عماد بلخوجة فور علمه بالخبر. وبطريقته الخاصّة، لفْلَفَ الحكاية وسجّلها على أنّها مجرّد خلاف بين شابّين في ملهى يتطلّب التفهّم أكثر ممّا يتطلّب العقاب.

وتدخّل عماد بلخوجة، بعد حوالي أربعة أشهر من انتداب باغندا وصعود نجمه بالأهداف المذهلة التي سجّلها، لينقذه من سجن محقّق. فقد كان مع جمع من أصدقائه على متن سيّارة مكتراة في الأحياء الحزاميّة للعاصمة. كان باغندا يقود السيّارة بطريقة جنونيّة وصادف أن أوقفتهم شرطة المرور فلم يمتثل للتعليمات، بل واصل سيره متحدّيا. لحق بهم شرطيّ على درّاجة ناريّة حتّى كادت تصبح العمليّة مطاردة ليليّة. ولمّا اقترب الشرطيّ بدرّاجته من السيّارة على اليسار قام باغندا بحركة بهلوانيّة صدم بها الشرطيّ وألقاه أرضا هو والدرّاجة. ولكن من سوء حظّه، إن جاز الحديث هنا عن سوء حظّ، أن كانت وراءهم سيّارة شرطة تطلق صفّارة الإنذار في ذاك اللّيل الشتوي القارس. أوقفت المجموعة وعلى رأسها باغندا.

كانت التهم ثقيلة جدّا: المجاوزة الممنوعة، والسياقة في حالة

مكتبة الفكر الجديد

سكر، وعدم الامتثال لشرطة المرور. وهذه جميعا يمكن التغاضي عنها. أمّا أخطرها فهي محاولة القتل العمد لموظّف في حالة أداء لمهامه. بيد أنّ عماد بلخوجة أخرجه من هذه الورطة كالشعرة من العجين قبل أن تصل إلى القضاء: اشترى عونًا بالرشاوى مقابل الصمت ودفع مبلغا كبيرا للشرطيّ راكب الدرّاجة الذي لم يصب بأذى كبير وتغيّر المحضر «بتعليمات من فوق».

لم أذكر هاتين الحكايتين إلاّ لأؤكّد أنّ لعماد بلخوجة مداخل إلى كلّ شيء. فقد غيّر محضرَيْن لم يتجاوزا عتبة مركزَيْ أمن من المراكز المنتشرة في العاصمة لصالح باغندا. فما الذي يمنعه من تغيير محضر آخر يورّط باغندا وينقذ غيره أو يتستّر عليه؟ أما نزق باغندا، وهو نوع من التمرّد المألوف لدى أمثاله من أبناء الأحياء الشعبية، فأعرفه وكانت لي فيه تجارب عشتها كواحد من أبناء هذه الأحياء.

كدت أقتل باغندا! لم تكن وقائع من هذا النوع غريبة على باغندا. فأنا ما زلت أذكر عدة حوادث تسبّب بها نزَقه وتباهيه واستعداده للدخول في معارك من دون أن يحسب حساب النتائج. وما زلت أذكر على وجه الخصوص حادثة خطيرة وقعت لي معه قبل أن يصبح نجما مشهورا وقبل أن أصبح أنا صحافيّا. فباغندا ابن حيّ مجاور لحيّنا بباب الجديد. كانت بيننا مباريات عديدة أشغل فيها أنا موقع حارس مرمى ويلعب فيها باغندا في مركز قلب هجوم. أنا أكبر منه بأربع سنوات. لكنّه بدأ اللّعب معنا وهو صبيّ. أغرت مهارته وفنيّاته الفريق المنافس، حرصا على الانتصار، بالتعويل عليه ولمّا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره.

كنّا نلتقي في ساحة معقل الزّعيم لإجراء مقابلة في كرة القدم أسبوعيًّا، نستعدّ لها ونتّخذ لنا مدرّبا يكبرنا سنًّا ونختار حَكَمًا محايدًا من

مكتبة الفكر الجديد

حيّ ثالث. وتجرى في الحقيقة مباراتان متتابعتان إحداهما لفئة الأداني والأخرى للأكابر. وعبارة الأداني يُقصد بها من هم دون العشرين. ولا يلتحق بفريق الكبار إلاّ من لهم مواهب في كرة القدم. وكنت أنا وباغندا من هؤلاء. فقد كانت قامتي تسمح لي بأن ألتحق بفئة الأكابر ولم أكن قد تجاوزت الثامنة عشرة. وقد تألّقت في حراسة المرمى. كنت يقظًا مرنا متحفّزًا للانقضاض على الكرة، حتى حين ينفرد بي لاعب من الفريق المنافس فأربح دائمًا الثّنائيّات وأقفز أكثر من بقيّة المدافعين والمهاجمين لألتقط قبلهم الكرات في الهواء خصوصًا عند ضربات الزاوية (الكورنر) والتّوزيعات العالية.

وأذكر إلى الآن آخر مقابلة لعبتها في الحيّ. كانت المقابلة حماسيّة سجّل خلالها فريقنا هدفين. بدت النّرفزة على لاعبي فريق الحيّ الآخر. وسرعان ما انقلبت النرفزة، بسبب باغندا، إلى معركة.

بدأت الحرب أثناء ضربة زاوية (كورنر) تحصّل عليها الفريق الآخر. كنت أنظّم صفوف الدّفاع كالعادة وأنتظر التنفيذ من الجهة اليسرى. بدأ باغندا استفزازاته التي لا أحبّها لبذاءتها. كان وقتها أقصر منّي ومعروفًا بخداعه للدّفاع وانتظاره للكرات المرتدّة. اشتهر بتحرّكاته ودورانه في منطقة الجزاء (وهي في بطحاء الحيّ منطقة وهميّة إذ لا خطوط ولا مستطيلات!) عند تنفيذ ضربات الزاوية أو المخالفات المباشر منها وغير المباشر.

لم يشأ ان يحترم نفسه وينتهي عن بذاءاته. فقد كنت واقفًا أستعدّ لتلقّف الكرة، فإذا به يهمس في أذني قائلاً: «ظاهر فيك تلعبها!» (وهي كناية في لغتنا التونسيّة فيها اتهام للمخاطب بأنّه مأبون!). أمسكت أعصابي ولم أردّ على الاستفزاز. خاطبته بحديث الرّجل للرّجل ولكن يبدو أنّ سوقيّته غلبت رجولته. كنت مركّزًا على المسار المحتمل للكرة. اكتفيت بلعن «باغندا» وتهديده. وفجأة لم أشعر إلاّ بيد تلمس مؤخّرتي.

مكتبة الفكر الجديد

التفتّ فرأيت «باغندا» يضحك ويتحثرب كعادته. حينها ثارت ثائرتي فوقع ما وقع.

كان «باغندا» يجري باتّجاه وسط الميدان، يراوغ الهواء متعرّجًا ذات اليمين وذات الشّمال وأنا ألاحقه إلى أن أمسكت به فأوقعته أرضًا وهو يسبّ ويلعن ولم يترك لي والدًا أو والدة أو أختًا أو خالة أو عمّة لم يمسّها بمُقْذِع الأوصاف المنحطّة. فأخذت ألكمه إلى أن أدميت منه الأنف والفم وتركت عينيه مزرقّتين رغم سمرة وجهه الدّاكنة.

سارع الجميع إلى الفصل بيننا وانتزاع «باغندا» من تحت رجلَيَّ. وحدث ما كان يحدث في مثل تلك المعارك بين الأحياء إذ بدأت الحجارة تتهاطل وخرجت العصيّ من حيث لا ندري. كادت تذهب أرواح كثيرة لولا مرور دوريّة أمن من المكان.

هَرَبَ مَنْ هرب من أبناء الحيَّيْن وانتقل تصويب الحجارة في اتّجاه شاحنة الأمن. ففي أحيائنا نتخاصم ونتقاتل ويموت منّا من يموت إذا لزم الأمر ولكن ما إن نرى رجل أمن يحاول أن يتدخّل حتى يصبح هدفًا للمتخاصمين جميعًا. هكذا كنّا نكره رجال الأمن من شدّة خوفنا منهم ومن شدّتهم معنا وإهانتهم لنا وأخذ بعضنا بجريرة بعض ومعاملتنا على أننا متَّهَمون ومجرمون بالفطرة.

وأذكر أنّ المعركة هدأت يومها بتدخّل الكبار من «باندِيّة»[1] الحيّيْن الذين لعبوا دور الحكماء وأصدروا تعليماتهم للفروخ جميعًا بالتزام الهدوء وإلّا نالوا ما يستحقّون من عقاب. فسكت الجميع تحت التّهديد وحمدت اللّه في سرّي على أنّهم انتزعوا باغندا من بين يديّ لأنّني

(1) كلمة فرنسيّة الأصل تعني قاطع الطريق واللصّ وعموما الشقيّ الذي لا يتورّع عن الأعمال الإجراميّة.

مكتبة الفكر الجديد

اعتبرت الإهانة كبيرة وفي لحظة الغضب تلك كنت قادرا على اقتراف جريمة قتل.

كان ذلك آخر عهدي بباغندا إلى أن سمعت باسمه في الاتّحاد التونسيّ نجمًا صاعدًا.

من عفو الذاكرة. لا أذكر متى استُعملت كنية باغندا لتسمية فتحي، ولكنّي أذكر جيّدا أنّ الكنية السائدة قبل ذلك هي كنية تقال لذوي البشرة السوداء: «الكَحلة» هكذا بالتأنيث تقال للرجل والمرأة من السودان عندنا. كانوا ينادونه أحيانا بصفات تحمل دلالات عنصريّة مثل «النيغرو». ويوصف في مباريات الأحياء بالـ«وصيف»[1] و«الحثروب» لكثرة تحرّكه وتفلّته ومراوغاته. وأكاد أجزم أنّ لا أحد يعرف اسمه الحقيقيّ إلاّ مَنْ درس معه تلك السنوات القليلة التي أمضاها في المدرسة ليغادرها من دون أن يستطيع النجاح في مناظرة السادسة من التعليم الابتدائيّ. فقد كان غربال انتقاء التلاميذ دقيقا جدّا في تلك الأيّام ينخّل الناس تنخيلا ليستصفي في مرحلة أولى النخبة ثم يزيدها تنخيلا حتّى لا يبقى منها إلاّ من رحم ربّك، والبقيّة نفايات لا أعرف أين يُلْقى بها. أمّا باغندا وبقية أترابه وأترابي من حيّنا والحي المجاور فقد كنت أعلم أين ألقى بهم ذلك النظام التربوي الذي كان يركّز على عدم إتاحة الوقت للأولاد للّعب، وعلى تربيتهم تربية امتثالية تخضع لسلسلة تبدأ من كبار السن والأهل، وصولًا إلى السلطة ورأسها. وهكذا كان التمرّد وكره أعوان الأمن، وحتى المعلّمين، صفة عامّة، خاصّةً لدى أولئك الذين كان يلفظهم نظام التعليم وجلّهم من الفقراء.

(1) تعني في أصلها الفصيح الخادم من الغلمان والجواري واستقرّت في الدارجة التونسيّة تسميةً لذوي البشرة السوداء.

مكتبة الفكر الجديد

ومن عجيب المفارقات التي لا يفهمها المتحدّثون عن التمييز العنصريّ والطبقيّ، وأنا منهم، أنّ باغندا كان صديقا حميمًا لأحمد، ابن معلّمنا سي الشاذلي. لا أحد فهم سرّ هذه الصداقة التي لم تنقطع حتّى بعد مغادرة باغندا للمدرسة. فقد ظلاّ يلتقيان يوميّا تقريبا إلى أن انصرف كلّ إلى سبيله. تحصّل ابن معلّمنا سي الشاذلي على منحة للدراسة خارج البلاد نظرا إلى تفوّقه في الباكالوريا فانكبّ يعدّ مناظرات المدارس الكبرى بفرنسا. وقد التقيت أحمد بعد الحادثة بأكثر من سبعة أشهر واستقيت منه معلومات ثمينة عن طفولة باغندا ومراهقته. وهو الوحيد الذي فهم أسباب حرصي على تتبّع حكاية باغندا ومعرفة سرّها. وكان شديدالحماسة لمعرفة ما حصل لباغندا الذي يعتبره صديقًا له. لكنّ المدّة التي تبقّت له قبل العودة إلى فرنسا كانت قصيرة جدّا. ترك لي رقمه في باريس لكنّني بعادتي الفاسدة في عدم الحفاظ على العلاقات الكثيرة التي تتاح لي لم أتّصل به بعدها أبدا.

حدّثني أحمد، أوّل ما حدّثني، عن يتم باغندا. ففهمت أنّ هذا الجانب قد يكون سببًا للعطف الخاص الذي يكنّه لصديقه. كان أبوه «قصادريّ»[1] في حانوت قريب من الحمّام ومن المدرسة، توفّي وباغندا في السنة الرابعة من التعليم الابتدائيّ. وكان فتحي بركة (قبل أن يلقّب بباغندا) تلميذا عاديّا بشوشا حييّا يحبّ الدراسة. ولكنّ أكثر ما يؤلمه أن يناديه المعلّمون بـ«الوصيف» بدل أن يسمّوه مثل بقيّة التلاميذ باسمه. أعلم أحمد أباه سي الشاذلي بذلك فسوّى المسألة مع جميع المعلّمين في المدرسة. لكن تدخّله لم يمنع هذا المعلّم أو ذاك من استعمال الوصف المؤلم، في أحايين كثيرة، سهوا أو قصدا.

ولكنّ وفاة الوالد خلقت شخصا جديدًا. أصبح قليل العناية بدروسه

(1) من يصنع الأواني النحاسيّة و يلمّعها وهي من المهن السائرة نحو الانقراض.

مكتبة الفكر الجديد

وأقلّ رغبة في الدراسة، كثير الكوابيس عند النوم يراها ليلا ويرويها صباحا لصديقه. شيئا فشيئا، أصبح باغندا، ولم يسمَّ حينها بهذا الاسم، مشوِّشا من الطراز الأوّل لا تنفع معه العقوبات المختلفة من الضرب بالمسطرة على الأصابع، إلى رفع الرجل اليمنى في الركن طيلة الحصّة، إلى استدعاء أمّه والتنبيه عليها من عواقب ما يفعله ابنها. ثمّ بدأ يتغيّب عن المدرسة ويدخل بالتدريج، رغم صغر السنّ، عالم الانحراف ولا من رقيب.

أصبحت مهجة الفتى في البطاح والأنهج، يركل الكرات برجله صباح مساء. وحين يئست أمّه من عودته إلى المدرسة ألحقته بحانوت نجّار الحيّ علّه يتعلّم حرفة لقادم الأيّام. لقد كان مدير المدرسة واضحا في كلامه إذ دعاها إلى التفكير في مستقبل مهنيٍّ لابنها الذي لا يصلح للدراسة.

انتهت تجربة النجارة بسرعة مثلما بدأت ليعود إلى الشارع. فقد كان صاحب الحانوت يكلّف الصبيّ بقضاء الشؤون الصغيرة له ولصانعه حمّادي باشا. ثمّ أخذ يكلّفه ببعض الأعمال البسيطة خصوصا حكّ الخشب وتليين ملمسه بالورق الكاشط. وهو عمل روتينيّ متكرّر يتطلّب جهدا وصبرا لم يكن الصبيّ بقادر عليهما باضطرابه البادي وحيويّته الفائقة. كلّفه يوما بكشط نوع من قشرة الموبيليا كان يغلّف بها الخشب وتتطلّب تعاملا لطيفا دقيقا إلى أن ينعم ملمسُها ويلمع لونُها قبل دهنها بموادّ للتلميع. فما كان منه إلاّ أن أخذ مبردا يسمّيه أهل الصناعة مبرد ذيل الفار واستخدمه لصقل قشرة الموبيليا. فكانت النتيجة مبهرة. قلّد حمّادي باشا الصبيَّ في ذلك معترفا بنباهته وتفطّنه إلى سرعة تلك الآلة الصغيرة في تحقيق المطلوب بجهد أقلّ.

ولكن حصلت الكارثة: ثقب باغندا قشرة الموبيليا ثقوبًا عديدة بما أنّ المبرد كان حادّا دقيقا وكانت القشرة المطلوب تليينها وتنعيمها

مكتبة الفكر الجديد

رقيقة. تطلّب إصلاح ما فسد من «المعلّم» حسّونة نزعَ اللّصاق كلّه من القشرة التي غلّف بها باب الصُوان وإعادةَ تركيبها مع ما في ذلك من خسارة للمال والجهد والوقت.

لم يشرب باغندا ماء «الجافيل»، لكنّه جرّب الكحول وتعلّم متعة شمّ الغراء واللّزاق.

وفي حانوت نور الدّين صانع الأحذية وجد باغندا عالمًا آخر شبيها بعالم حمّادي باشا ومختلفا عنه في الوقت نفسه. كان نور الدّين فنّانًا في ابتداع أشكال الأحذية وتصميمها، يقلّد ما يراه في أرجل الناس خصوصا ما يرد من الخارج ويضيف إليه من عنده تغييرات تجعله أنموذجا جديدًا خاصّا. كان يتعامل مع مغازة لبيع الأحذية بالشارع الرئيسي في تونس معروفة بجودة بضاعتها، ورث صاحبها عن الإيطاليّ، مالكها الأصليّ، الاسم التجاريّ علاوة على الأصل التجاريّ. كان نور الدّين يشتغل بروح الحرفيّ المتقن لعمله والفنّان الذي يُعجَبُ بما تصنع يداه ولكنّه كان في الآن نفسه مجبرا على إنتاج عدد معيّن أسبوعيّا من الأحذية للرجال والنساء حتّى يحافظ على حضوره وتميّزه في مغازة «رافائيلّلو». لذلك شغّل معه ابن الحيّ «لسعد» لتركيب الأحذية في القوالب وتكفّل هو بقصّ الجلد وتفصيله وابتداع الموديلات وإتمام دقائق الحذاء. أما باغندا فكان دوره يقتصر، كالعادة، على قضاء الشؤون الصغيرة كاقتناء المأكولات فيُرسَل لإحضار صحن تونسيّ أو صحفة لبلابي أو قارورة مشروب غازيّ أو علبة سجائر.

لم يتعلّم شيئا عن الجلد والأحذية لكنّه تعلّم التّغزّل بالنساء والتحادث معهنّ بالألغاز. فقد كان نور الدّين زير نساء، عادة ما يتوقّف عن العمل بعد الزوال ليوارب باب الحانوت حين تفد عليه هذه الحسناء

مكتبة الفكر الجديد

أو تلك في سفساريّها[1] الذي تسارع بنزعه فيحادثها ويلاطفها ويداعبها واضعا مرّة يديه على خدّها أو شعرها ومرّة على كتفها أو ظهرها أو فخذها. وحين تصبح الابتساماتُ ضحكاتٍ يطلب من باغندا مغادرة الحانوت مغلقًا وراءه الباب، فيبقى إمّا وحده وإمّا مع لسعد إذا كان في الحانوت امرأتان.

ولسعد هذا مجرم حقيقيّ. لا يتورّع عن استعمال إزميل لتفصيل الجلد ذي ذؤابةٍ وطرفٍ رقيقين حادّين حين يتخاصم مع شخص في الحيّ. وقد حضر باغندا مرّة معركة استعمل فيها لسعد تلك الشفرة لفتح فلحٍ، فلح بالعرض، غائرٍ في بطن أحد من تخاصم معهم.

في هذه الأجواء تربّى باغندا. ولكنّها أجواء، مقارنة بما سيعيشه في ما بعد، تعتبر مدرسةً للأخلاق الحميدة وتعليم الفضائل!

عائلة باغندا السعيدة. بدأت تجربتا النجارة والسكافة في حياة باغندا بالتزامن مع الدراسة التي لم ينقطع عنها تماما في البداية، وإن تواتر هروبه من المدرسة. ظلّ يتردّد على حانوت صانع الأحذية لوقت قصير بعد أن طُرد من الدراسة لتجاوزه السنّ المسموح به وتعدّد الرسوبات. حينها بدأت حياة باغندا الحقيقيّة.

كان أصغر إخوته. ووجد نفسه، حين توفّي أبوه وهو في العاشرة، وحيدا تقريبا. فأخوه «الحطّاب» غائب منذ سنوات في ألمانيا بعد أن تدبّر أمره مع سائحة ألمانيّة تزوّجته زواجا شكليّا ليتحصّل على الإقامة وربّما الجنسيّة. ولا أحد يعرف بالضبط ماذا يفعل في ألمانيا. لكنّ أبناء جيله ومن هم في سنّه يؤكّدون أنّه يتحصّل على مال كثير لأنّه يشتغل في

(1) السفساري قطعة طويلة من القماش تغطّي بها المرأة كامل جسمها خارج البيت وهو يقوم مقام الحجاب.

مكتبة الفكر الجديد

عمل خطير قد يذهب بحياته: «يختبرون الأدوية الجديدة في جسمه في أحد المخابر الألمانيّة المنتجة للدواء. لذلك كان ينتفخ أيّاما حتّى كأنّه بدين أو ينصل شعره ويتساقط أيّاما أخرى وينحل نحولا ينبئ بالموت الزؤام»، هذا ما كان يُروى عنه.

ترك الحطّاب العائلةَ منذ سنوات وتدبّر حياته على شفير الموت في ألمانيا. لم يكن يزور العائلة بصفة منتظمة. وإذا عاد عادت معه بقرته الألمانيّة الحلوب «أولغا». يزور العائلة نصف يوم ويمضي بقيّة الأيام في فندق بالحمامات أو سوسة أو طبرقة.

فماذا بقي لباغندا بعد أن فقد قدوة الأب وقدوة الأخ الأكبر؟

أما الأخ الثاني فيكاد باغندا لا يعرفه، بل لا يعرفه جلّ أبناء الحيّ. فقد دخل السجن منذ تسع سنوات (تاريخ مغادرة باغندا للمدرسة نهائيّا سنة 1979). كانت التهم ثقيلة: قتل طفل بعد الاعتداء عليه بالفاحشة. وهي قضيّة هزّت الحيّ والرأي العام في البلاد وقتها هزّا عنيفا وحُكم فيها على «سعد اللّه» بالإعدام لكنّه لم ينفّذ وقُلِبَ بعد سنوات إلى حكم بالمؤبّد.

والوحيد الذي فتح اللّه عليه من آل بركة هو الأخ الثالث في ترتيب الذكور قبل أصغرهم سنّا، باغندا. فقد تعلّم اللّحام واشتغل منذ سنوات في ورشة ميكانيكيّ لإصلاح السيّارات. كان صالح الشخص الوحيد الذي يخشاه الأخ الأصغر وينصاع لأوامره. حاول، دون اقتناع كبير، تشغيل باغندا معه تحت إلحاح الأم لكنّ هذه المهنة لم تستهو باغندا الذي كان يرى أخاه يعود منهَكًا كلّ يوم. ترك الأمر بين الفتى والأمّ التي سلّمت أمرها لله. تحوّل صالح، بعد ترحالٍ في المفاسد، إلى شابٍّ يؤدّي صلواته ويقوم بواجباته الدينيّة إلى أن تزوّج أختا متحجّبة من بني جلدته واستقرّ في غرفة ببيتٍ على ملك عائلة زوجته قريبٍ من بيتهم. كان أبناء

مكتبة الفكر الجديد

الحيّ يقولون: «سبحان اللّه يُطلِع الزهرة من عفن الزّبالة». ولكن لم يكن من الممكن أن يصبح صالح قدوة لباغندا الذي انزلق في أوحال الحيّ ثمّ غرق شيئا فشيئا في العفن. وحين رُحّلت العائلة من الحيّ بعد الحادثة التي تعرّض لها باغندا لم يُسمع عن صالح خبر.

بيد أنّ للنساء في عائلة باغندا السعيدة حياة أخرى. ولولاهنّ لضاع الفتى ضياعا تامّا. فنساء العائلة مثال في الكَدّ والعمل. أخته الكبرى سعديّة كانت تعتني بالبيت في غياب الأمّ وتصحبها في الأعراس لتمدّ لها يد المساعدة. وأمّا الأخت الصغرى، وهي الرابعة بعد الحطّاب وسعد اللّه وسعديّة، فتشتغل «حارزة» في الحمّام تدلّك أجساد النساء وتطيّبها. أصابها من مهنتها تلك ربو بسبب الرطوبة زاده التدخين تعقيدا إلى أن أشفقت عليها صاحبة الحمّام فشغّلتها مشرفة على «الحارزات»[1] ثم قابضة للأموال. ولا أثر لها هي أيضا في الحمّام ولا في الحيّ شأنها شأن بقيّة أفراد عائلة بركة.

هذه عائلة باغندا السعيدة: كلّ يبحث عن طريقه ولا يجد وقتا للفتى الذي يُنسى عادة طيلة اليوم في الشوارع يلهو ويلعب. وحدها الأم حاولت أن تتدبّرَ له عملًا أكثر من مرّة ثمّ أعيتها الحيلة فتركته لمصيره يتدبّر أمره. هم اعتادوا، وهو اعتاد على عدم السؤال عمّا يفعله حتّى حين يتغيّب في اللّيل عن البيت ولا يعرفون أين يبيت والولد لم يتخطّ السادسة عشرة.

هل كان ابن أمّه؟. كانت أمّ باغندا «فتيحة الكَحْلة»، كما ينادونها في الحيّ، امرأة فحلة عمول معروفة في الأحياء المجاورة ملمّة بكثير

(1) مفردها «حارزة» وهي المرأة التي تنظّف أجساد النساء في الحمّام وتساعدهنّ على صنوف مختلفة من زينتهنّ.

مكتبة الفكر الجديد

من أسرار النساء بحكم مهنتها. وفي الحقيقة لفتيحة عملان أساسيّان معروفان. فهي حنّانة تعتني بالعروس من الألف إلى الياء تزيّنها وتطيّبها وتنمّص الزوائد من الشعر في جسمها كلّه وتصحبها إلى الحمّام لتسلّمها إلى عريسها نظيفة نقيّة طاهرة. وهي إلى ذلك من عازفات البنادر في فرقة التيجانيّة[1] والمنشدات فيها بصوتها الجَهْوريّ العميق الطالع من أغوار الصدر مليئا بالحزن والأسى. فصوتها بعبارة الموسيقيّين العالمة ليس من صنف «ألتوس» أي صوت النساء والأطفال العميق، بل هو من الصنف الذي يسمّيه الغربيّون «طينور» نسائيّ شديد كالصوت الرجالي «طينور».

كنت أعرفها. فهي حنّانة أختي الكبرى جويدة. وأذكر منها، وأنا صبيّ، كيف كانت تضع عجين الحنّاء في فمها تلعّبه بلسانها وتخرجه متماسكا ليّنا كالسويق المخلوط بالزيت فتخضّب به اليد أو الرجل باسطة على الكفّ ذلك العجين الأسود. كنت مندهشا وأنا أنظر إليها بعين الطفل الشغوف المستكشف.

وأذكر أيضا أنّني رأيت فتيحة الحنّانة، بعد سنوات من الحادثة التي تعرّض لها ابنها وبعد ترحيل العائلة من الحيّ، في مناسبة لا تخطر على بال.

فقد أعدّ الموسيقار المبدع سمير العقربي حفلا عظيما للإنشاد الديني والصوفي أخرجه في حلّة جديدة. وكان من بين الواقفات على الركح بالمبخرة امرأة سوداء البشرة ملحِمَة في غير إفراط بسبب قوامها المديد، عريضة عرضًا لم يفقدها رشاقة الحركة على الركح. وضعت المبخرة أرضا وأخذت تترنّم بصوت ملأ أرجاء المسرح فعمّ الخشوع. كان صوتًا آتيا من أغوار الأعماق، قويّا شديدا، وحَنونًا رقيقا في امتزاج

(1) إحدى الطرق الصوفيّة.

مكتبة الفكر الجديد

مذهل، لم يزده ذاك الجسد الذي ملأ الركح بحضوره القوي إلاّ فتنة وسحرا.

كان هذا في أواسط التسعينات. وهذه المرأة السوداء كانت فتيحة الحنّانة. كتب بعد يومين من الحفل الصحفيّ والروائيّ حسّان بن عصمان واصفا إيّاها على ركح قرطاج:

«... نجمة ملقاة على قارعة الأعراس والحفلات الصوفيّة التقطها المايسترو سمير العقربي بحسّه الفنيّ المبهر وقدّمها لعشّاق الموسيقى نكرة بين النكرات لكنّها بثّت في آذانهم صوتا قويّا صادرا من غياهب السماء أحيانا، عميقا طالعا من بواطن الأرض أحيانا أخرى. وفي الحالتين عمّر صوت فتيحة وجدان المتفرّجين بلحظات من الحلم الصافي».

ولكن اليوم مَنْ يذكر هذا؟ ومن كان سيسمعها لولا فنّان تربّى في «باب سيدي عبد السلام الأسمر» في حيّ يشبه حيّها يستمع فيه من حين إلى آخر إلى مثل تلك الأصوات المجهولة تردّد الأناشيد الصوفيّة في مقام الصوفيّ الكبير؟ ولكنْ، إضافةً إلى الصوت المدهش، كانت فتيحة الحنّانة كما جاء في مقال حسّان بن عصمان «تدخل، حين تشرع في الرقص، عالما سحريّا يحملها بعيدا جدّا فتأخذها رعدة ويغيّبها عن الخلق والمكان والزمان انخطاف لا تقوم منه إلّا بعدما تمتلئ روحها بالمواجد والمكابدات فتستفيق شيئا فشيئا لتعود إلى حالها العاديّة».

وأنا أستعيد صورة فتيحة الحنّانة على مسرح قرطاج، تذكّرت ابنَها باغندا وهو يرقص في «البرّاكة». فقلت في نفسي لا شكّ أنّ في المسألة جانبا وراثيّا جعل الابن لأمّه عشقا للرقص وانتشاء به وصلابة في الجسم ومرونة مع رشاقة تجعل للمسه الكرة سحرا خالصا.

غير أنّ الفتى لم يأخذ فعلا من أمّه إلاّ هذا الجانب، فلم تكن بدورها

مكتبة الفكر الجديد

قادرة على العناية به وهو آخر العنقود، ولا يبدو أنّ حاله ستنصلح مهما فعلت، فالحتميّة التي يخلقها الوضع الاجتماعي أقوى من الحتميّة الوراثيّة.

عالم موبوء. وجد باغندا نفسه وحيدا تتقاذفه الظروف وما تحمله له الأقدار. كان يشقّ طريقه بثبات نحو عالم الجريمة والجنوح. اشتغل صبيّا من صبيان أحد المنحرفين الذي صنع ثروته من بيع الخمر خلسة في الحيّ. يأتيه الناس مترجّلين وراكبين ليشتروا أنواعا من المشروبات الكحوليّة خصوصا حين تغلق نقاط البيع القليلة في العاصمة في المساء أو أيّام الجمعة وأيّام الأعياد الوطنيّة والدينيّة. وعبارة «خلسة» تُستعمل في المحاكم حين يقبض على أحد هؤلاء، ومنهم «الرّوج» «معلّم» باغندا، أكثر ممّا لها دلالة في الواقع. وبسبب بيع الخمر خلسة كان يُحْكم على «الرّوج» بمدّة قصيرة ثم يعود إلى سالف عمله الذي لا ينقطع أبدا. قد يتوقّف أيّاما حتّى يبتعد الجواسيس والقوّادة. ويعود الفضل في ذلك إلى صبيان «الرّوج» تزوّدا وتوزيعا وجنيًا للأرباح بحسب هامش الربح المعروف سلفا. وهو هامش يختلف متناسبا مع بيع الجعة باردة أو لا، وقارورة الخمر أو النبيذ ونوعها وثمنها في السوق الرسميّة. ولكنّ الأسعار تشهد عند إلقاء القبض على «الرّوج» ارتفاعا طفيفا نظرا إلى كثرة المتدخّلين وضرورة احتساب نصيب المخبرين وبعض رجال الأمن الذين يرغبون أحيانا في الحصول على مشروب ليلتهم. فالتجارة مبدؤها كُلْ ومكّن غيرك من أن يأكل معك وإلاّ سدّت أبواب الرزق على الجميع.

كانت مهمّة باغندا، لصغر سنّه آنذاك، تنحصر في حمل الكيس المحشوّ جعة أو خمرا أو نبيذا إلى السيّارة الرابضة بعيدا عن الأعين فيضعه في الصندوق الخلفيّ. وكثيرا ما يتكرّم عليه صاحب السيّارة

مكتبة الفكر الجديد

الذي يكون قد دفع ثمن البضاعة مسبقا بمائة ملّيم أو مائتين على سبيل الإكراميّة وقلّما تقع في يده القطعة البيضاء من صنف الدينار حتّى من السيّارات الفخمة. كان نصيبه من العمليّة كلّها ما يجمعه من قضاء تلك الشؤون البسيطة.

ومن مهامّه الأخرى السهر على مراقبة المخبرين والوشاة والتأكّد من الوجوه غير المعروفة أو المشبوهة والدرّاجات والسيّارات التي تدعو إلى الرّيبة. فينقلب دوره حينئذ إلى نذير ومحذّر. وليس لباغندا أجر على ذلك لأنّ مهمّته هذه من باب الحفاظ على لقمة العيش كما ذكر له «الرّوج» وهي مهمّة يتكفّل بها كلّ الصبيان من باب حماية مورد رزقهم.

غير أنّ كرم «الرّوج» يبرز في السهرات حين تقلّ الحركة وينقص عدد المشترين بعيد منتصف اللّيل. فكلّ الحاضرين من الصبيان ومن أحباب «الرّوج» يشربون على حسابه ويطعمون من مائدته. هكذا يحبّ أن يكون أسوة بكبار «الباندية» أرباب الجود والشهامة والرّجولة. هنالك تعلّم باغندا ألاّ يسكر لأنّه عيب كبير أن يفقد الواحد منهم وعيه. والرجل الرّجل حقّا من يشرب مئة قارورة ويظلّ متماسكا وإلاّ اعتبر مثل «سميرة جغمة».

و«سميرة جغمة «هذه إحدى بنات اللّيل من الحيّ. تعود كلّ ليلة بعد أن تفرغ من عملها في «كاباريه» بوسط المدينة وهي في حالة سكر مطبق. تمرّ على «الرّوج» وجماعته، و«الرّوج» من وسطائها في البغاء الذين تدفع لهم مقابلا لحمايتها، ولا طلب لها دائما إلّا «جغمة»[1] من جعة أو نبيذ تتمّ بها كيْفَها ونشوتها قبل أن تخلد للنوم. وكثيرا ما ينفرد بها «الرّوج» وهي في تلك الحالة ليأخذ منها مالها فتسمع الجماعة

(1) جرعة.

مكتبة الفكر الجديد

بداية المعركة بينهما. معركة تنتهي بلطم على الوجه وركل لكتلة اللّحم المترنّحة تنهدُّ إثرها في انتظار الحلقة الجديدة من المسلسل المكرور في اليوم التالي.

أمّا يوم راحة «سميرة جغمة «من العمل في «الكاباريه» فلا يعني حقّا الرّاحة. إذ تلتحق منذ بداية السهرة، حوالي منتصف اللّيل، بالمجموعة وتبدأ الحكايات البذيئة عن الرّجال والنساء وحيلها معهم وعيوب كلّ واحد منهم. نشرة أسبوعيّة مفصّلة عن الرّجال المحترمين والباحثين عن اللذّة والأنس والرفقة الحمراء الطيّبة مستعدّين لدفع أموال طائلة على الويسكي والخمور والطاولات العامرة بالمآكل. كان باغندا حريصًا على الحضور، يضحك حقّا ويتمتّع بالسهر فعلا. وفي آخر السهرة قد يمكّن «الرّوج» أحد الحاضرين من سميرة بمقابل.

وأوّل امرأة لمسها باغندا، كما يلمس الرّجل المرأة، هي سميرة هذه ولم يبلغ وقتها السادسة عشرة. لم يعرف كيف أهداها له «الرّوج» وفرض عليها أن تعامله معاملة الرّجال ومن دون مقابل. من يومها، بدأت رحلة باغندا في البحث عن جسد يطفئ فيه نيرانه التي ما انفكّت تتّقد. ولم يجد حيلة إلاّ التردّد على ماخور «نهج سيدي عبد اللّه قشّ». إلّا أنّ نزيلاته كنّ يتعلّلن بالتعب أو غلق الحانوت لتجنّبه. ولم يفهم في البداية امتناعهنّ إلى أن فسّر له «الرّوج» الحكاية وصارحه بأنّهنّ عنصريّات. حذّره من أنّ ذهابه إلى هناك في تلك السنّ قد يعرّضه إلى حملات التفتيش فيعرفون حقيقته. لم يكن «الرّوج» يرضى بأن يسيء أحد لصبيّ من صبيانه. فتكفّل بأن يختار له بنفسه، من الحيّ وعاهراته، رفيقة تطفئ ناره في مكان آمن وليس في ذلك النهج الملعون.

تطوّرت تجارة «الرّوج». صار يروّج صنوفا من المخدّرات: حبوب الهلوسة و«الزطلة» والغبرة والحقن وغيرها. تبدّلت وجوه الزوّار وأصبحت اللّعبة خطيرة فعلا. يأتي الواحد إلى «الرّوج» أو صبيّ من

مكتبة الفكر الجديد

صبيانه في حالة هيجان يبوس الأيدي والأرجل ليأخذ نصيبه. اضطربت تجارة الخمور لأنّ مرابيح الموادّ المخدّرة أكثر. دامت المسألة ستّة أشهر تقريبا ثمّ قرّر «الرّوج» نقلها إلى مكان آخر في حيّ آخر. ظلّ يراقبها عن بعد. فهو يحبّ العمل النظيف ولم يعد يريد أن يتمرْمدَ في السجون. **كان يعرف أنّ أحكام ترويج المخدّرات قاسية جدّا. حرّم على صبيانه استهلاك** أيّ نوع منها. فلا فرق بين المروّج والمستهلك. لكنّ باغندا كان قد تعلّم استهلاك «الزطلة» وأحبّها من دون أن يعلم «الرّوج» بذلك.

هذا هو عالم باغندا الذي كبر فيه: خمر ومخدّرات وبائعات هوى من سقط المتاع وتجّار في السوق السوداء. خليط لا يجعل ممّن يحتسي منه ولو «جغمة»، مثل «سميرة جغمة»، إلاّ منحرفا أصيلا ومجرما من طراز رفيع. ولكن ما الذي أنقذ باغندا؟

لا شكّ عندي أنّ الحيّ الذي وضع باغندا أمام هذه الأخطار هو نفسه الذي أنقذه.

من ذكرياتي عن باغندا. لم يكن لأبناء جيلي في الأحياء من وسيلة للترفيه غير الكرة واللّعب في البطاح والأنهج والأزقّة. وأنا شخصيّا من جيل فتح عينيه على أمجاد المنتخب التونسيّ المتألّق في ملحمة الأرجنتين. فقد عمّر خيالنا عتّوقة والنايلي وذويب وغمّيض وطارق والعقربي وتميم وبن عزيزة... وكانوا أبطالا في عيوننا نحلم بأن نكون مثلهم.

اعتقدتُ في البداية أنّ موهبة باغندا هي التي أنقذته من التردّي في مهالك الكحول والمخدّرات وانتزعته من عالم الانحراف والجريمة المنظّمة. كنت أسمع كثيرا عن إبداعاته الكرويّة في المباريات بين الأحياء، ورأيت نماذج منها منذ أن فرض نفسه على فريق حيّه في

مكتبة الفكر الجديد

المباريات التي كانت تجمعنا. ولا أخفي، رغم معركتي معه التي رويتها واحتقاري لأخلاقه وسلوكه في الميدان (أعني في البطحاء)، أنّني كنت أتمتّع بمراوغاته وحركاته الفنّيّة وكنت أخشى أكثر ما أخشى تسرّباته نحو مرماي أو انفراده بي أو تصويباته من بعيد ، وأنا الحارس الذي يعوّل عليه رفاقه لإنقاذهم من المهاجمين الخطرين وتسديداتهم. ففي المقابلة التي وقعت فيها المعركة التي رويتها ما زلت أذكر كيف تسرّب باغندا من بين المدافعين ممّا أجبرني على الخروج لمواجهته. وأعترف أنّه بعد أن راوغني وكاد يدخل الكرة إلى المرمى اعتمدت على طول قامتي وأنا ملقى على الأرض لأمدّ يدي اليسرى وأعرقله فسقط أرضًا، ولم يمنحه الحكم ضربة جزاء كانت واضحة رغم احتجاج فريقه. كانت الكرة تلتصق برجله بحيث يصعب انتزاعها منه أو افتكاكها حتّى باليد.

واليوم بعد هذه السنوات كلّها لم أتخيّل أنّني كنت ألاعب شابّا من طراز عالميّ رغم إحساسي وإحساسنا جميعا بأنّ له من الخصال الكرويّة ما لا نملك. ولكنّ الناظر من داخل المباراة بحثا عن الانتصار فيها ليس كالناظر إليها وإلى اللاّعبين من الخارج.

واليوم أيضا، حين أتذكّر مبارياتنا في بطحاء معقل الزعيم أو القرجاني أو بطحاء الزاوية البكريّة في باب الأقواس أو حتّى بطحاء المرجانيّة وحديقة الحلفاوين، بعد اقتلاع النافورة من وسطها، أقول بيني وبين نفسي كم قَبَرتْ هذه البطاحُ من مواهب لم تجد من يهتم بها ليغرسها في الملاعب المعشبة حتّى تكبر وتورق وتزهر وتسمق. كانت المواهب على زماننا تنبت كالنَّجم في كلّ مكان، فتقتلعها الأرجل أو تدوس عليها دون أن تعرف قيمتها وما تخبئه من إمتاع وإبداع. ولكن هكذا هي الحياة في مجتمع لم يكن يرى سبيلا إلى المجد غير الدراسة، أمّا الرياضة والكرة فمن الملهيات التي لا تليق إلّا بالصدور التي لم يشرحها اللّه للعلم. ومن هذه الصدور صدر باغندا.

مكتبة الفكر الجديد

وحين أسمع اليوم عن مراكز تكوين اللاّعبين منذ نعومة أظفارهم، وما يحظون به من عناية وما يدخلونه من دولاب تجاريّ، وما يصنعونه لأنفسهم ولأولياء أمورهم من النجوميّة والمستقبل الجالب لأموال كثيرة أضحك في دخيلتي. فأنا مازلت أعتقد أنّ في الأمر سرّا لا يزيده التدريب الجيّد والعناية بالفنّيّات وتقنيات اللّعب إلاّ صقلا. لكنّه لا يصنع لاعبين أفذاذا أبدا، أو هو يصنع في أحسن الأحوال لاعبين بلا روح هم بمثابة البراغي في آلة تؤدّي دورها وكفى. أمّا ما يضفي على اللّعبة مسحة من المتعة التي تدخل البهجة على النفوس فشيء آخر لا ينفع فيه تدريب.

نعم ما زلت في هذا الباب محافظا قدَريّا لا أصدّق أنّ الإتقان صنوٌ للإبداع وإنّما هو فارق كالفارق بين العازف الماهر الحاذق الذي لا تجد له حسابيّا خطأ في نوطة، وبين العازف الذي يجعلك تحسّ أن النغمة تخرج من بين أصابعه مترعة بالسحر والفتنة.

وقد قدّرت أنّ هذه الدودة التي ظلّت تنخر عقل باغندا ووجدانه هي التي منعته من مواصلة السير في طريق الانحراف. وظللت على اعتقادي هذا مدّة إلى أن علمت في ما بعد أنّ ما شجّع باغندا على اللّعب في النوادي الرسميّة هو ارتباطه بمجموعة من الأنصار، أنصار الترجّي، فريق باغندا المفضَّل.

فتّش عن المرأة! «وراء الاعتداء امرأة». هذا ما أشاعه منير الزرقوني وعصابته لصرف الناس عن الحكاية الأصليّة. نسج حكاية غريبة حول تلك العلاقة. فالحكايات عن النساء دائما مثيرة للسامعين وأعْلقُ بالقلوب والعقول.

وأعترف بأنّ من حَبَك هذه الحكاية، مهما تكن نواياه مرذولة حقيرة، ذكيّ ملمّ بنفسيّات الناس وأهوائهم وما يشدّهم وما ينفّرهم وإن لم يأتِ

مكتبة الفكر الجديد

شيئا عجبا بقدر ما كان وفيّا للمثل القائل «فتّش عن المرأة» في كلّ شيء، خصوصا إذا كان التفتيش عنها مرتبطا بجريمة مثل التي وقعت لباغندا.

وأنا أروي هذه الحكاية رغم استبعادي لها. وعلى كلّ حال ما دمت لا أملك إلاّ التقريب والتخمين والافتراض فمن واجبي ألّا أقصي أيّ احتمال. فمن يعلم؟ ربّما كان ما نردّه على الآخرين هو الصواب. وربّما كانت الأسباب متضافرة متداخلة حتّى لا نعرف أيّ المصالح التقت بالأخرى وأيّ الدوافع كانت حاسمة في التنفيذ.

وممّا جعل لهذه الحكاية أثرا في نفوس سامعيها وأضفى عليها كثيرا من المصداقيّة، شيوع حديث عن وجود صور فاضحة مخلّة بالآداب لباغندا في أحد الفنادق الفخمة. وقد وجدت في صحيفة «صدى الملاعب» الشعبيّة خبرا أرجّح أنّه صيغ انطلاقا من هذه الحكاية وإن لم يكن فيه دليل على أنّه يتعلّق بباغندا. وهذا الأسلوب منتشر في صحفنا التي تغطّي عدم مهنيّتها بإخفاء العناصر الأساسيّة في الخبر وعدم تسمية الأشياء بأسمائها وعدم تحديد المكان والزّمان. فكلّ شيء إمّا مبنيّ للمجهول أو هو مجهول بحيث لا يتبقّى من الخبر إلاّ هيكله العامّ. وإذ أنقل ما وجدته في قصاصة قديمة من هذه الصحيفة البائسة في ركنها المشبوه «أسرار وأخبار» فإنّني أجزم بقدرة أيّ كان على كتابة مثل هذه التقوّلات والأكاذيب يوميّا.

«علمت صدى الملاعب أنّ صورا مخلّة بالآداب يظهر فيها لاعب تونسيّ شابّ لامع من جمعيّة عريقة من جمعيّات العاصمة مع مجموعة من الحسناوات في فندق راقٍ لم تحدّد مصادرنا مكانه. وتظهر الصورة وجود مشروبات كحوليّة على الطاولة. وقد استاء كلّ من اطّلع على الصور لحالة التردّي الأخلاقي التي وصل إليها بعض اللاعبين التونسيّين».

مكتبة الفكر الجديد

لم أشاهد الصور بدوري ولكن نُسجت عنها حكايات كثيرة. سمعت آراء عديدين في مقهى «الحاج الشمنططّو». بعضهم يدين التفسّخ الأخلاقيّ كأنّهم أئمّة مساجد لا يغادرونها صباح مساء. وبعضهم الآخر يعتبر ذلك طبيعيّا من شبان جرت في أيديهم الأموال بعد فقر وكبت. ولكنّ جلّ التعاليق التي بدت تتحلّى بالرّصانة والموضوعيّة ذهبت إلى أنّ ما يدعو إلى الاستنكار في هذه الصور، إذا ثبت وجودها وصحّ وصف ما فيها، هو هذا السلوك الذي لا يليق بلاعب محترف شابّ يفترض فيه الحفاظ على لياقته البدنيّة بتجنّب السهر والابتعاد عن تناول المسكرات واتّباع نظام غذائيّ صحّيّ. وزاد بعض الذين لم يروا عيبا في ما أتى باغندا أنّ هذا موجود حتّى في البطولات الأوروبيّة، إذ انتشرت فضائح اللاّعبين رغم أنّ تقاليد الاحتراف عندهم راسخة منذ سنوات. وتباروا في ذكر أسماء بعينها من اللاّعبين الإيطاليّين والأنجليز والفرنسيّين. ولم تكن حجّتهم هذه لتبرئة باغندا ممّا أتاه بل لبيان أنّ الأمر لا يقتصر عليه إنما هو متفشّ في البلدان المتقدّمة فما بالك ببلدان لم تنطلق فعليّا في الاحتراف ومازال اللاعب فيها متروكا على هواه. بل زاد فريق من المتحدّثين في المقهى توضيحا وتنافسا في سرد حكايات من هذا القبيل عن نجوم في الكرة التونسيّة، يقسم هذا بأنّه رآه في ملهى، والآخر شاهده مع بائعات هوى، والثالث يذكّر بأنّه معروف بتعاطيه للمسكرات والمخدّرات، والرابع يجزم أنّ سيرته في عمومها لا تختلف عن سير «الباندية» ونمط عيشهم. كأنّهم بذلك يؤكّدون أنّ المصيبة إذا عمّت خفّت.

ماذا وقع في جوهرة الساحل؟. «...يقضّي باغندا عطلته السنويّة في جوهرة الساحل». هذا ما أوردته إحدى الصحف الشعبية.

وبالمقارنة بين الأحداث التي وقعت من يوم انتهاء الموسم

مكتبة الفكر الجديد

الرياضيّ 1986 - 1987 إلى أوائل الموسم الموالي وليلة الاعتداء على باغندا يصبح توقيت الراحة السنويّة لباغندا مهمّا إذ يفسّر عديد المعطيات ويؤكّد بعض الفرضيّات. هل هي قبل رحلته إلى سويسرا أم بعدها؟ وهل لها سبب آخر غير الذي رُوِيَتْ لأجله الحكاية أم لا؟ فما الذي يمنع باغندا من التفكير في اللّعب مع فريق آخر إسبانيّ أو فرنسيّ بعد أن باءت مساعيه للّعب مع «أف. س. زوريخ» بالفشل ويكون مكان المفاوضات مدينة سوسة؟

وما جعلني أذهب إلى فكرة البحث عن فريق آخر هو حديث مبهم عن وجود مرافق لباغندا قُدِّمتْ أوصافُه بما أنّه ظهر في الصور الفاضحة. وقد تضاربت الروايات في شأن هذا الشخص. فمن قائل إنّه صديق لباغندا (ولكنّ أصدقاءه معروفون)، ومن قائل إنّه رجل أعمال شابّ (ولكنّني لم أعرف في ما سمعت علاقةً لباغندا مع رجال الأعمال إلّا أن يكون من المعجبين به وبالاتّحاد أو بفريق آخر من العاصمة)، ومن قائل إنّه مهاجر تونسيّ معروف في فرنسا في الوسط الرياضيّ هناك (ولكن كيف تعرّف عليه باغندا؟ فهل التقاه هناك أم كان على علاقة سابقة به؟). تعدّدت التقوّلات والتخمينات ولكنّي أرجّح أنّه رافق باغندا من تونس أو من سويسرا إلى سوسة. والأرجح عندي أنّه رجل أعمال كما قيل في إحدى الرّوايات، ولكنّ العبارة تحتاج إلى تدقيق. فالوسيط في بيع اللاّعبين وشرائهم يُعَدّ من رجال الأعمال أيضا. فإذا صحّ افتراضي أنّ باغندا ذهب إلى سوسة للتفاوض حول عقد كرويّ فإنّ مصاحبته لوسيط يفهم في العقود والبيع والشراء يصبح أمرا طبيعيّا جدّا.

ولكن دَعْنا نساير الحكاية كما قُدِّمَتْ فنفترض أنّه ذهب إلى سوسة بعد رحلته إلى سويسرا لغاية الراحة والاستجمام.

تفيد الرواية المتداوَلة أنّ باغندا قضّى أيّاما هناك في فندق يلهو ويتهتّك. وهي أيّام أمضاها في السهر مع بنات الهوى اللاّتي تمتلىء

مكتبة الفكر الجديد

بهنّ نوادي الليل. ولا يحلو التعارف معهنّ بغير المصفّى والمقطّر من الروحانيّات التي ظهرت في الصور التي نُعتتْ بالفاضحة. وإذا أضفنا إلى ذلك ما أعرفه عن عشق باغندا للرقص وإتقانه له، فهمنا هذه الأجواء التي عاشها بين الكأس والرقص والوجوه الجميلة والأفخاذ البضّة.

لا شيء غريبا في هذا كلّه. فالولد قد تجاوز العشرين، وهو بطل يحمل منذ سنته الثانية في الاتّحاد خمسة ألقاب، وجرت بين يديه الأموال بفضل المنح والهبات من المشجّعين ورجال الأعمال من **عشّاق الاتّحاد التونسيّ. ولا عيب بعد ثلاثة مواسم من اللّعب على** الألقاب والتوتّرات والضغط النفسيّ والتفرّغ لإعداد المباريات المحلّيّة والقاريّة والعزلة في فندق الاتّحاد، لا عيب بعد هذا كلّه، من الترويح عن النفس وغنم ما أمكن من ملذّات الحياة وقد أتيحت له.

غير أنّ الرواة في هذا القسم التمهيديّ من حكاية باغندا في سوسة يتزّيدون وينقصون ويمدّدون الأحداث فيثرونها بتفاصيل لم يكونوا حاضرين عليها، فيأتي أكثرها استيهامات وتهويمات تعبّر عن رغبات راويها أكثر ممّا تنقل خبرا صحيحا أو قولا صادقا. لذلك سأطويها من حكايتي لأصل إلى جوهر الموضوع الذي لأجله كان الرواة يطيلون ويتوقّفون عند جزئيّات يصنعونها من محض خيالهم.

الحسناء «سالي». يظهر اسم أنثى. لا أحد يقول لك في البداية من هي وما محلّها من إعراب الرواية وتركيبها: «سالي»! ولا تقلّ غرابة اسمها عن غرابة حكايتها مع باغندا. تتردّد على الألسن بتنويعات مختلفة لم يسلم منها الاسم نفسه فينطق مرّة «سالي» وأخرى «سيلّي» وثالثة «سيلي»، بل سمعت من ذكر «سيلين» كأنّه رأى في «سيلي» اسم دلع لـ«سيلين» الأعجمي المعروف.

مكتبة الفكر الجديد

و«سالي» غادة حسناء تعرّف إليها باغندا في سوسة. ولا يمكنني أن أحدّد هل كانت نزيلة في الفندق نفسه أم لا؟ وهل تعرّف إليها في علبة ليليّة أم خارجها؟ فالمهمّ أنّهما تعارفا وحدث ما حدث.

والذي حدث إنّما هو أشبه بعمليّة احتجاز في غرفة بالفندق لقاصر، إذ لم تبلغ البنيّة السابعة عشرة وأمضت يومين متتاليين مع باغندا في غرفة مقفلة.

لكنّ هذه الحكاية ما كانت لتثير إشكالا لولا أنّ أمّ البنيّة «سالي» افتقدت ابنتها وأخبرت الشرطة التي لم تعثر عليها. كان على الوليّة أن تُعلم الأب في تونس. فحكايات اختطاف الحسان في العالم كلّه منتشرة والبنت لها أصل وفصل.

وهنا تبدأ الحكاية في التشعّب. فيظهر أنّ الأب من أثرياء تونس الذين يتاجرون في زيت الزيتون، وله مصنع معروف للمعكرونة والمعجّنات بعلامته التجاريّة، ويصدّر من منتوجاته إلى بلدان كثيرة. أمّا الأمّ فهي الطليقة الأولى لرجل الأعمال المزواج الذي يغيّر زوجاته مثلما يغيّر سيّاراته. وقد ذهبت مع ابنتها للسياحة في سوسة. ويضيف أصحاب الحكاية أنّ سيرتها ليست محمودة أبدا وما أتته ابنتها، على صغر سنّها، إنّما هو من باب تقليد البنت لقدوتها.

ويضيف مبتدعو هذه الحكاية أنّ «سالي»، على جمال فتّان وكمال جسم لا يكشف حقيقة سنّها، وتنتظر زوجا من صنف أبيها يسترها ويكفيها مصاريفها التي لا تنتهي.

ظهرت «سالي» بعد اليومين اللّذين غابت فيهما. يومها التحق أبوها بأمّها التي أضاعت دميتها، وقد طار الوالد على عجل تاركا أعماله وبيته وزوجته الجديدة التي لم يمض على زواجه منها إلاّ قرابة الشهر. كان اللّقاء عاصفا اتّهم فيه الأبُ الأمَّ وابنتَها بالعهر، وكان اتهامه ذاك سببا

مكتبة الفكر الجديد

في تحالفهما لردّ عدوان الأب عليهما. أفلتت «سالي» من براثنه ودفعت الأمّ أذاه عنها.

غير أنّ «سالي» أعلمت أباها أنّها كانت مع باغندا، وأنّها تموت في حبّه وتريد الزواج منه وإلّا انتحرت. وفي هذا المشهد بالذات كنت أرى السامعين يستحضرون المشاهد التي تليق بشريط سينمائيّ مصريّ يالأبيض والأسود يستدرّ العطف للبنت ويظهر الأب وحشا كاسرا محطِّما للقلوب الرقيقة ولا ينقص المشهد بتوتّره الدراميّ إلاّ دموع الممثّل حسين رياض.

لم يكن الأب من هواة كرة القدم ولا غيرها من الرياضات، فحياته رياضة النساء وألقابه من تعدّد بطولاته معهنّ. أوهم البنت بالموافقة، من دون أن يسأل عن الشخص. وترك الأمّ تتصرّف. ردّت الأمّ كالمصعوقة منكرة عليها مجرّد التفكير في الزواج من لاعب كرة قدم وفوق هذا ودونه، أسود! فكيف تصاهر عائلة سودان؟ كيف سيكون أحفادها؟ وما الذي عنده من المال والثروة، إذا غضضنا الطرف عن النسَب، ليجعلها تعيش عيشة الأمراء كما هو حالها مع والدتها؟

دافعت البنت عن حبّها مذكّرة بأنّ «فتوح»، كما كانت تدعوه، نجم كرويّ من طراز عالميّ وسيأتي اليوم الذي يلعب فيه في أكبر النوادي وأنّه هو السبب، بأهدافه الذهبيّة، في حصول الاتّحاد على خمسة ألقاب. أمّا لونه فلا دخل له في جماله لأنّها تراه رجلا حقيقيّا وسيما. لم يكن أسود تماما بل هو أقرب إلى الشكلاطة وأجمل من أبيها وألطف وأرقّ وفوق هذا يحبّها ويعرف كيف يحادثها ويلاطفها. وهو الوحيد الذي يهتمّ بها ويحنو عليها ولا يغضبها.

طفقت البنيّة في ثرثرة الفتيات المدلّلات اللاّتي لم يعرفن من الحياة غير الخدم والحشم ويقعن بسهولة في حبّ أوّل نجم يعترضهنّ فيرون

مكتبة الفكر الجديد

فيه الشهرة والمجد الذي يسير في الشوارع والأسواق على رجلين.

وبالطبع تنتهي حكاية «سالي» و«باغندا» كما تنتهي قصص الحب منذ الأزل بصراع الرغبات والعقبات، والشوق المبرّح والعراقيل. فما بالك إذا تحالف الأب والأمّ ووقفا ضدّ هذا الحبّ؟ اعتبرت الأمّ ذلك من سابع المستحيلات ووعدت بأن تبحث للبنت عن عريس يناسبها ويناسب العائلة إذا أصرّت على الزواج وذلك في أقرب وقت. هدّد الأب بقطع رقبة هذا «النيغرو» لو خطر له، مجرّد خاطر، أن يطلب منه يد «سالي» الحسناء.

وقد جنّبتكم تفاصيل كثيرة تداولتها الألسن. بعضها سيء الإخراج وبعضها الآخر معروف مكرور في مثل هذه الحكايات الساذجة. لكنّ المهمّ مرتبط بالحبكة التي بعدها لتفسير حكاية الاعتداء على باغندا.

«لا بدّ من باغندا مهما كان الثمن!» هكذا صرخ أبو «سالي». وليس المقصود طبعا ثمنا لأرجل باغندا حتّى تعزّز فريقا آخر بل المقصود هو ثمن رأس باغندا كي يُقطعَ دابرُه. فقد أصرّت الحسناء على أن تتزوج من باغندا وأصرّت الأمّ على ألّا يكون ذلك أبدا. وكان على الأب أن ينقذ ما تبقّى في وهمه من عرضه وعرض طليقته من هذه المصيبة الداهمة.

نصحه أهل المعروف والعارفون بأجواء الرياضة والفاعلون فيها والملمّون بشؤون الاتحاد التونسيّ بأن يتّصل مباشرة بعماد بلخوجة ويفسّر له الوضعيّة عساه يتدخّل لردع هذا الزنجيّ الوحش الذي شرب عقل الحسناء. اتّصل به. قرّع رئيس الاتّحاد باغندا ودعاه إلى الابتعاد عن «سالي». لم ينفع تنبيه عماد بلخوجة. ظلّت البنت على اتصال بنجمها المفضّل بل زاد تعلّقها به. فالموانع في الحبّ، كما هو معروف، لمّا

مكتبة الفكر الجديد

يذكي جذوته، فما بالك بالنسبة إلى فتاة مثل «سالي» تعيش بلا معايير عائليّة تقيها تهتّك أب متصابٍ وبحث أمّ مطلّقة عمّا به تسدّ الفراغ وتقتل الوقت.

قرّر الأب حبس البنت في البيت وحرمانها من الخروج والدخول وقطع الهاتف عليها. رفضت الأمّ الخطّة بشدّة لأنّها لا تجدي نفعا. فالبنت لم تخطئ وإنّما الزنجيّ الملعون هو الذي أوهمها بأنّه يحبّها ولعب بعقلها. طالبت زوجها بمعاقبته لا معاقبة البنت. وطالبت بالثأر من ذلك «الجربوع» الذي يتلاعب بـ«بنات أسياده».

وكان الاعتداء الغاشم على باغندا الذي تجرّأ على مَنْ هم أعلى منه شأنا. اكترى له الأب رجالا أشدّاء من كبار «الباندية». وقد اعترض شخصٌ باغندا وهو في طريقه إلى البيت. أوقفه شاهرا عليه موسى هدّده بها. صرخ في وجهه:

– «واللّه كبرت يا كحلة وولّيت راجل! يا مسخ تتجلطم على بنات أسيادك. نسيت كيف كنت تبيع الشراب؟ نسيت كيف كنت تبيع الكاكي في البلفدير قدّام حديقة الحيوانات؟ نسيت كيف كنت تطلب وشادد عصا في باب منارة عامل فيها تعسّ على الكراهب اللّي تسرق فيها؟ نسيت كيف كنت تساسي على كسكروت يا ولد (القـ...) يازبراط يا مفسود يا جربوع يا مطهّر في الشعبة يا مولود في قازان متاع بسيسة يا مكحوت يا خوروطو يا تفشة يا جبري يا بوزقليف يا حفتريش يا شلاكة يا قعر يا قريح ... قلّي آش مقرّبك للّاتك يا ولد الحرام يا كبّول؟؟ ردّ بالك يا مبشمط لين تحرقت لا تعاود صنعتك... ملّخر تقلب منظرك ومازلت نسمع بيك تقرب للبنيّة نستفعلو فيك ونقصّوك طرف طرف ونوكلوك للكلاب يا حيوان».

لا تقوم هذه الحكاية، كما هو بيّن من تفاصيلها، على ساق. لم تراعِ

مكتبة الفكر الجديد

الحبكة المنطقيّة، ولم تقدّم سببا وجيها مقنعا لتلبية طلب الزوجة بهذه السرعة والعنف الذي وصل حد تصفية باغندا.

فباغندا لم يتقدّم لخطبة البنت. والأرجح أنّها كانت بالنسبة إليه مغامرة من مغامرات نجم شاب مع فتاة تدلّ كلّ القرائن داخل الحكاية على أنّها لا يمكن أن تكون أنموذجا للبنت التي قد يرغب باغندا في الزواج منها.

ولو قدّم صانعو هذه الحكاية حكايتهم على أنّها من جرائم الشرف لكانت مستساغة أكثر، وإن كان هذا الصنف من الجرائم في بلادنا نادرا بعد أن اعتبره بورقيبة من علامات التخلّف ودعا القانون إلى أن يأخذ مجراه بدل قانون الغاب وأهواء الأفراد. وحتّى في هذه الصورة لا بدّ من الحيطة في عرض المسألة. فالبنت بسيرتها وسيرة أمّها، والأب بنزواته ومغامراته النسائية لا يجوز معها الحديث عن دافع الدفاع عن العرض والانتقام لشرف مهدور.

لم تقنعني هذه الحكاية وبدت ضعيفة جدا من خلال بعض التفصيلات الواردة فيها، مثلها عندي مثل حكايات أخرى عن علاقة باغندا بعصابة مخدّرات أو بعصابة لبيع المباريات وما إلى هذا من الخزعبلات التي سأرويها على سبيل الاحتياط فلا أستبعد أيّ فرضيّة للوصول إلى الجاني والمخطّط والمموّل. ولكن من يدري فقد يكون الواقع أبسط من المنطق الذي نعمل على إضفائه عليه؟ فربّما كنت أسعى إلى رواية متماسكةَ الأجزاء في عالم منطقُه متهافت. وهذه الروايات على ما فيها من ضعف في الأدلّة إنما تدلّ على الظروف السياسية والاجتماعية التي تجري فيها أو تنتجها. وبهذا أليس ما أغنمه من المسالك المختلفة التي أضرب فيها طالبا أسرار الحادثة يفوق الحادثة نفسها دلالة ومغزى؟ ثمّ إنّني أتداوى بحكايتي هذه من جبني يوم وجدت الجميع يكذّبني حين نشرت الخبر الحصريّ عن باغندا.

مكتبة الفكر الجديد

«الأولتراس»

مكتبة
الفكر الجديد

وكالة أنباء الحيّ. كان قصيرَ القامة نحيفا، في وجهه طول، مفلفلَ الشعر كأنّ المشط لم يعرف إليه سبيلا. وأوّل ما يلفت انتباهك منه جحوظ لا تخطئه العين وصوت مبحوح يقرع آذان الجلّاس في المقهى قرعا. فـ«شدلون» حسب تشبيه أحد روّاد «مقهى الحاج الشمنططّو» قارورة كوكاكولا بلسان يدور كالخذروف ولا يهدأ. ولكنّ روّاد المقهى في الحيّ لا يرضون بغير «شدلون» يعدّ لهم النرجيلة أو يستبدل قطعة الفحم التي كادت تصبح رمادا. والغريب أنّه لا يتفرّد بشيء في إعداد «الشيشات»، غير أنّ المغرمين بـ«الشيشة» كانوا يرغبون من الشاذليّ ولد خدّوج في نكتة خضراء طريّة، أو حكاية غريبة شاذّة، أو كذبة من أكاذيبه اللّذيذة التي يخرجها لغير العارف ببراعته في تأليف القصص واختلاقها مخرجا لا يمكنك معه إلاّ أن تصدّقها أو توهمه بأنّك مصدّقها ليستمرّ في تمثيلها.

ولا يذهبنّ في الظنّ أنّ «شدلون» مجنون الحيّ أو المقهى. فلنا مجانين حقيقيّون جديرون بهذه الصفة، وما هو بالغرّ الخبّ الذي يمكن الضحك على ذقنه مثلما يضحك الناس من أحاديثه وتخاريفه. إنّه، على العكس من ذلك، لبيب يفهم التلميح والتعريض فيردّ الصاع صاعين إذا

مكتبة الفكر الجديد

لزم الأمر. كهل في الأربعين، ويبدو كأنه تجاوز الخمسين، عارف بأسرار روّاد المقهى جميعا وخبايا أبناء الحيّ كبيرهم وصغيرهم. إنّه وكالة أنباء الحيّ والمقهى كما يحلو لصديقٍ صحفيّ من جريدة «الصباح» أن يسمّيه. ولعلّ وجوده في المقهى صباحَ مساءَ علاوة على حافظته القويّة يسّرا له **أن يفتح أوّل وكالة أنباء خاصّة في تونس، وإن كان عدد المتعاملين معها** والمستفيدين من أخبارها لا يتجاوز عدد زوّار المقهى وبعض المخبرين الذين يزورون المقهى بين حين وآخر. فمن المعلوم أنّ «شدلون»، وهو **لا يخفي هذا، مصدر موثوق لرجال الأمن حين يستعصي عليهم أمر** حادث سرقة أو سلب أو اعتداء على شخص، أو ظهور باعة جدد للزطلة أو الخمر خلسة. إنّه ذاكرة الحيّ ومجمع أسراره.

لهذا اهتممت بـ«شدلون» الذي كنت أعرفه ولم أحبّ يوما مزاحه الثقيل وثرثرته البليدة بقدر ما كنت أحتاط منه. فقد اعتدت أن أحتاط من الوشاة والمخبرين مذ كنت في الجامعة أشارك في النشاط الطلابي والسياسيّ. بيد أنّ ما حدث لباغندا دفعني إلى التقرّب منه علّه يمدّ لي خيطا موصلا إلى ما يشفي الغليل في أمر اختفاء الجوهرة السوداء.

لم أعرف كيف أدخل عالم هذا الثرثار. فلم أكن أحبّ أن يتحدّث بصوته المرتفع أمام الجميع. خطر لي أن أتحسّس الأمر بدفع أحد أبناء الحيّ من الّذين يشاركونه المزاح إلى سؤاله عمّا وقع لباغندا. فما كان منه إلاّ أن حدجه بنظرة حادّة جادّة ثمّ تعمّد الاختفاء لمدّة في الحجرة المخصّصة لإعداد «الشيشة» ولم يلتفت بتاتا إلى صديقي.

كنت أعرف بالحدس أنّ نقطة ضعف «شدلون» هي حرصه على أن يبرز في جبّة العارف الملمّ بكلّ شيء. والتشكيك في هذا إنّما هو عنده بمثابة التشكيك في رجولته وكينونته أصلا. فكم مرّة سمعته يردّ على من يكذّبه بما معناه «إذا كان الخبر مغايرا لما رويته فإنّني سأقصّ شاربيّ». وهذا ألطف ردّ من ردوده لأنّ أغلب وعيده وتهديده يستمدّه من معجم

مكتبة الفكر الجديد

البذاءة الخالصة بأسمائه وأفعاله وحروفه. لذلك تعمّدت السخرية من جهل «شدلون» بما وقع لباغندا. طفقت أحدّث صديقي بصوت مسموع عن ادّعائه معرفة كلّ شيء ولكنّه في المسائل الحقيقيّة والمهمّة يكون عاجزا عن معرفة الحقيقة. تقدّم «شدلون» منّي قائلا لي بصوت خفيض:

- «أستاذ أنا أحترمك وعيب عليك أن تتحدّث فيّ بما كنت تحدّث به سي أنور»

فهمت أنّه ابتلع الطعم وكان عليّ أن أجعله في وضعيّة المخطئ:

- «العيب فيك سي «شدلون» (كذا رافعا من قدره بهذه السين المكسورة التي لم يسمع بها من قبل مقرونة باسمه) نحن هنا زبائن وأنت تتجسّس على ما نقول. هل وجّهتُ إليك الكلام؟ من أدراك أنّنا نتحدّث عنك؟ عيب والله عيب، حتّى مقهى الحيّ لم نعد نجد فيه راحتنا!»

تصنّعت الغضب فهممت بالوقوف متأفّفا. تسمّر واقفا مندهشا ينظر إليّ بعينيه الجاحظتين كمن ابتلع لسانه. أصرَّ أنور صديقي على تجاوز الأمر ضاحكا. تركت جسدي، بحركة مسرحيّة مدروسة، ينهار على الكرسيّ.

ظللت أنظر إلى شدلون شزرا طيلة ثوان معدودات ثمّ فجاة طلبت منه بلهجة الآمر أن ينحني لأسرّ له بشيء فانصاع. أعلمته أنّه إذا أراد أن يعرف حقيقة ما وقع لباغندا فأنا على استعداد لأن أمدّه بالتفاصيل جميعا، وطلبت منه أن نلتقي بعد فراغه من الشغل في مكان خارج الحيّ. سألته إن كان يرغب في بضعة قوارير خضر على حسابي.

وفي حانة «الروتندة» باح لي «شدلون» بما عنده من أخبار ومعلومات.

متن ولا سند! لا شكّ أنّ السؤال الذي يطرحه شخصٌ مثلي يقوم

مكتبة الفكر الجديد

بعمل استقصائيّ يريده سليما دقيقا هو أن يسأل عن مصدر هذه المعلومات ومدى موثوقيّتها. بيد أنّ من يطلب من «شدلون» ذكر مصادره كمن يسأل عن مؤلّف «ألف ليلة وليلة» أو كاتب «الجازية الهلاليّة» وصانع «خرافة أمّي سيسي». فالشائع في الحيّ، وحتى لدى وزارة الداخليّة التونسيّة، أنّ عند «شدلون» الخبر اليقين. ولكن لا تطلبوا لأحاديثه إسنادا فهي متن مقطوع لا أصل له ولا فصل إلاّ «شدلون» نفسه. هكذا هي معلوماته بضاعة تُشترى دون أن يُسأل عن مصدرها ومسارها وموردها. إنّه مؤرّخ اللحظة العابرة وذاكرة الحيّ وكاتب التاريخ الحقيقيّ الذي لا تجده في الكتب، أقصد التاريخ النابض حياةً وتفاصيلَ وتدقيقاتٍ وأوهاما وأكاذيب جميلة أصدق من الحقائق القاطعة التي يتوهّمها المؤرّخون فيروونها في مصنّفاتهم. إنّ رواية «شدلون» هي الرواية المعبّرة عن ضمائر الناس وصورتهم عن الواقع كما يفهمونه أو يحبّون أن يفهموه. غير أنّ الحديث في الرياضة والأخبار الرياضيّة هو القطاع الذي لا يمكن لأيّ كان أن يبزّه فيه. فحين يتحدّث في السياسة أو في المجتمع أو في الفنّ لا يعسر على السامع أن يناقشه مكذّبا أو معدّلا أو مصوّبا أو منكرا. ولكن من يجرؤ على تكذيب «شدلون» أو تعديل رأي من آرائه في مجال الرياضة عموما وفي ما يخصّ الاتّحاد التونسيّ تحديدا؟

فدورة الأسبوع في حياة «شدلون» واضحة مقسّمة تقسيما دقيقا هندسيّا متوازيا لا يداخله اضطراب من افتتاح الموسم الرياضيّ إلى اختتامه. فهو كجلّ أبناء الحيّ المهووسين بكرة القدم يقضون الأيّام الثلاثة الأولى من الأسبوع يحلّلون مباراة الأحد الفائت أو السبت المنقضي مستعيدين تفاصيل التفاصيل مقسّمين ما شاهدوه، خصوصا إذا كانت المباراة مسجّلة تلفزيّا، إلى مقاطع بالصور البطيئة. ثمّ تراهم يندّدون بقرار الحكم في هذه المخالفة أو تلك وتغاضيه عن ضربة جزاء لا لبس فيها محتجّين على عدم رفع البطاقة الصفراء أو الحمراء

مكتبة الفكر الجديد

في وجه لاعب من الفريق المنافس مستخلصين، دائما وأبدا، أنّ الحكم كان منحازا أو اشتراه الفريق الآخر، ولكنّ عزيمة اللاّعبين واستعدادهم مكّنا أبناء النادي من الانتصار. وفي أثناء هذا التحليل المدقّق، أو حين يستوفون التحليل، تبدأ المقارنات مع مباريات أخرى في الموسم نفسه أو في مواسم سابقة فيتذكّرون الأهداف والهدّافين ويستعيدون أمجاد الفريق وبطولاته.

وهكذا يمرّ يوم الإثنين الثقيل خفيفا على القلب، ويوم الثلاثاء يبدأ التعمّقُ في التحليل واستكمال ما بقي عالقًا، ليختتم يوم الأربعاء بتقييم شامل للبطولة أو لمقابلات الكأس والنقاش العامّ حول المؤهّل أكثر من غيره لإحراز اللّقبَيْن معًا أو أحدهما.

أمّا يوما الخميس والجمعة فعادة ما تصل الأخبار من حديقة رياضة هذا الفريق أو ذاك عن استعداد كلّ واحد منهما وعن اللاعبين المصابين واللاعبين الذين هم في أوج العطاء والاستعداد، وعن الخطط التكتيكيّة الممكنة والمحاصرة الفرديّة المنتظرة، ونقاط ضعف الفريق المنافس، وما إلى هذا من المعطيات التي يزوّد بها مَنْ حَضَر التمارين روّادَ المقهى أو تؤخذ ممّا تتسابق صحفنا في نشره.

وقد روى لي «شدلون» نتفا من هذه الأخبار المتناقَلة شفويّا أو المنشورة في الصحف ولم أكن أعرفها في وقتها. فأخذت منه تقييدات وعدت بعد ذلك إلى صحيفتنا فوجدت أخبارا تؤكّد الكثير ممّا ذكره.

باغندا في صنف الآمال. بعد قارورتين خضراوين فتح «شدلون» حنفيّة أسراره. وأوّلُ ما أسرّ به إليّ اتصالُ منير الزرقوني به بعيْد حادثة الاعتداء على باغندا وأمْرُه له، جادّا حازما، بألاّ يتحدّث في ذلك وإلاّ دمّر حياته. وتعمّد أن يجعل العيون والآذان التي غرسها رئيس هيئة

مكتبة الفكر الجديد

أنصار الاتحاد التونسيّ في المقهى ظاهرة بارزة لـ«شدلون» ولغيره.

أمّا في أصل القضيّة فقد ذكر لي «شدلون» أنّ باغندا، قبيل الحادث الذي وقع له، أصبح يلعب في الفريق الثاني (فريق الأمال). كان ذلك في بداية الموسم الرياضيّ 1986 - 1987. فقد غضب منه عماد بلخوجة غضبا شديدا وأوقفه عن التدرّب. وأخرجه من الملعب أمام بهتة الجميع وعلى رأسهم المدرّب زينهو. وأمره بالالتحاق بالملعب المجاور حيث يتدرب لاعبو فريق الآمال.

لم يلعب باغندا في بداية الموسم إلاّ شوطا واحدا في مقابلة واحدة مع الفريق الأوّل. وسرعان ما عوّضه المدرّب. وقد عثرت ضمن ملفّ باغندا الذي احتفظت به على قصاصة من صحيفة ورد فيها:

باغندا في فريق الآمال

لاحظ أنصار الاتّحاد التونسيّ غياب نجمهم المحبوب باغندا عن تمارين الفريق منذ أسبوع تقريبا وتدرّبه مع لاعبي فريق الآمال. وبسؤال السيّد عماد بلخوجة، رئيس الفريق، أكّد أنّ باغندا يمرّ بفترة فراغ ويحتاج إلى مزيد من العمل والبذل ليكون في مستوى الفريق»، وأضاف: «هو الآن لا مكان له في الفريق في انتظار مزيد الانضباط التكتيكي والالتزام بتعليمات المدرّب».

وقد تناقل المشجّعون أخبارا عديدة عن سبب العقوبة التي يتعرّض لها باغندا بإنزاله إلى الفريق الثاني. ولكن مهما يكن السبب الحقيقيّ، إضافة إلى ما قاله رئيس الفريق، فإنّ الاتّحاد في علاقته بنجمه باغندا يعيش أزمة، خصوصا أنّ المدرّب زينهو لا يبدو راضيا عن حرمان الفريق من خدمات بيلي تونس.

ولئن تعلّل رئيس الجمعيّة بفترة الفراغ التي يمرّ بها باغندا فإنّ وكالة أنباء «شدلون» قدّمت تفسيرات أخرى. يذكر أبناءُ الحيّ الذين يتابعون

مكتبة الفكر الجديد

يوميّا تمارين الفريق أنّ باغندا معاقَب بسبب ما أتاه من سلوك في حصّة من حصص التمارين. فقد شوهد وهو يعتدي على حارس المرمى وعلى أحد المدافعين. أمّا الحارس فلأنّه توجّه بكلام عنصريّ ضدّه ونعوت بذيئة بعد أن راوغه في مقابلة تطبيقيّة ومسح به الأرض مسحا إلى أن خضّب بدلته الرياضيّة بخضرة العشب. وأمّا المدافع فقد تعمّد، وهو ينزلق أرضا لانتزاع الكرة، رفعَ رِجله إلى ركبة باغندا بنيّة الاعتداء عليه صراحة وهو ما أثار استياء بقيّة اللاّعبين أيضا، ولكنّ باغندا نهض مسرعا ليمسك بخناق المدافع ويشبعه لكما نزف بسببه فمه دما.

غير أنّ هذا السبب الذي قدّمه «شدلون» بدا لي ضعيفا جدّا. فباغندا في الحالتين مظلوم معتدًى عليه لفظيّا ومادّيّا. وعادة ما تنتهي مثل هذه الحوادث البسيطة بتأنيب المدرّب أو المسيّر للاّعبَيْن ومصالحتهما.

والرواية الأقرب إلى الواقع مما ذكره «شدلون» هي ما حدث في أول مباراة في الموسم الجديد. كانت المباراة سهلة ضدّ فريق صعد لأوّل مرّة في تاريخه إلى الدرجة الأولى. ويوم المباراة كلّف زينهو، وبتعليمات من رئيس الجمعيّة على ما يقال، باغندا بأن يلعب في مركز لاعب وسط هجوميّ تاركا مركزه إلى اللاّعب الماليّ الذي انتُدِب حديثا. وقد سوّق زينهو الأمر لباغندا على أنّه يريد أن يصنع خليفة لبيلي في هذا المركز وأمره بارتداء القميص رقم 10. ولكن يبدو أنّ ذلك لم يرُق للغزال الأسمر، نجم الاتّحاد، فانعكس على أدائه في الملعب وعلى سلوكه أيضا. فما عاينه كلّ من شاهد المباراة، وقد نقلت مباشرة على القناة التونسيّة، أنّ باغندا لم يشارك بقيّة اللاعبين الفرحة بتسجيل اللاعب الماليّ للهدف الأوّل. إذ تحلّق جلّ اللاّعبين حول رفيقهم قرب علم الركنيّة بعضهم يعانق والآخر ينطّ فوق ظهر أحد الملْتفِّين باللاّعب وثالث يرفع يديه ويحرّكهما ورابع يرقص. ولكنّ باغندا، دون أن يعبّر

مكتبة الفكر الجديد

عن أيّ شيء، اتّجه بتؤدة من منطقة الجزاء صوب منتصف الميدان حيث ستوضع الكرة ويعلن الحكم عن استئناف اللّعب.

ولم يترك الجمهور ذلك يمرّ من دون ردّة فعل. فبدأ التصفير والهتاف المندّد بباغندا. وشرعت الجماهير الحاضرة من أنصار الاتّحاد **تحاكي أصوات القردة ضحكا وقهقهة وصدحت بشعارات ضدّ النجم** الذي رُفِعَ منذ بضعة أشهر على الأعناق واعتُبر الطائر النادر في سماء كرة القدم التونسيّة. راحت الجماهير تعيّره بلونه وأصله الوضيع.

لم يكتف المشجّعون بذلك بل عمد بعضهم إلى رشق باغندا بمقذوفات مختلفة، ممّا ألجأ الحكم إلى إيقاف المباراة. واستُنْفرت قوات الأمن لحماية باغندا وهو يغادر الملعب في اتجاه حجرة الملابس بعد أن قام المدرّب بتغييره ولم تمرّ على بداية المباراة نصف ساعة. كان ذلك آخر عهد باغندا باللّعب في الاتحاد التونسيّ.

وأكّد لي «شدلون» أنّ ردّ الفعل كلّه كان مخطّطًا له من منير الزرقوني وجماعته المتستّرة بهيئة أنصار الاتّحاد، وبتعليمات من عماد بلخوجة شخصيًا. ولا يعود السبب إلى ما أتاه باغندا في تلك المباراة بل هو أعمق وأخطر. فيومها طلب باغندا من المدرّب إعفاءه من المشاركة لأنّه غير متعوّد على اللّعب في ذلك المركز الجديد، ولكنّ عماد بلخوجة أصرّ على تشريكه رغما عنه إمعانا في إذلاله، فحتّى زينهو لم يكن مقتنعًا. لذلك كان ما أتاه باغندا ردّ فعل من يلعب دون رغبة منه.

من يشجّع باغندا على العصيان؟ كان رئيس الجمعيّة قد رفض تسريح باغندا للعب خارج تونس في فريق أوروبيّ (ذكر «شدلون» فريقَيْ لازيو الإيطالي وريال مدريد الإسباني!). ورفض عرضا قدّمه وسيط خلال الصائفة التي سبقت حادثة الاعتداء لانتقاله إلى الترجّي

مكتبة الفكر الجديد

الرياضيّ التونسيّ أو النادي الإفريقيّ مقابل مبلغ ماليّ ضخم وأجرة شهريّة أرفع مع مسكن وسيّارة.

وممّا زاد من حنق باغندا أنّ عماد بلخوجة هدّده بتدمير مستقبله الرياضيّ في تونس وخارجها ما إن طلب الترفيع في أجرته وزيادة مكافآت المباريات ومِنَح تسجيل الأهداف على الأقلّ. اعتبره خائنا لم يشكر اليد التي امتدّت إليه وجعلت منه نجما متألّقا بعد أن كان مغمورا في فريق صغير فصار يطالب بالزيادة في الأجر ومراجعة العقد الذي لم يكن يحلم به أبدا. وتفطّن الذئب الشابّ إلى أنّ من يقف وراءه ويشجّعه على مثل هذه المطالب إنّما هو رجل أعمال ذاع اسمه مؤخّرا مدعوم من بعض الجهات ذات النفوذ في قصر قرطاج، وكان من أشدّ منافسي عماد بلخوجة في عالم المال والأعمال والرياضة. فالمعركة الحقيقيّة هي معركة دقّ عظام بين ذئبين شابّين ولم يفطن باغندا، ربّما لوجاهة مطالبه وشدّة طموحه ورغبته المشروعة في ضمان مستقبله، إلى أنّه كان وقودا لمعركة لا ناقة له فيها ولا حتّى دجاجة.

وأصل الخلاف بين عماد بلخوجة وعياض الجزيري يعود، في الجانب الرياضيّ، إلى صراع بينهما على المتاجرة باللاّعبين. فقد جلب عياض الجزيري، في صائفة 1987، لاعبَيْن إفريقيّين لم يبلغا العشرين عاما كان قد أرسل مساعدا له سافر خصّيصا لإحضارهما. اتفق مع النجم الرياضيّ الساحلي والنادي الرياضيّ الصفاقسي على اختبارهما. كانا لاعبَيْن من طراز رفيع ينتميان إلى المنتخب الوطني للشبّان في بلدهما. لكن عياض الجزيري سمع بأنهما يلعبان في فريقَين آخرين من فرق العاصمة. لم يفهم ما جرى. وصار اسمه في سوق كرة القدم التونسيّة مهدّدا. بعد مدّة، عرف مصدر الطعنة التي باغتته في الظهر.

عمد بلخوجة بفضل شبكة علاقاته في مطار تونس قرطاج إلى احتجاز اللاعبَيْن الإفريقيَّيْن مدّة ساعتين. ثمّ نقلهما إلى المطار المجاور

مكتبة الفكر الجديد

المخصّص لرحلات الحجيج في العادة ليستقلّا سيّارة أخذتهما مباشرة إلى فندق الاتّحاد حيث تمّت صفقة بيعهما إلى فريقَي العاصمة بثمن أقلّ ممّا حصل عليه عماد بلخوجة مقابل الوساطة.

قرأ عياض الجزيري مثل عامّة الناس خبر الصفقتَيْن على أعمدة الجرائد. وتطلّب منه الوصول إلى الحقيقة المرّة وقتا. تأكّد من أنّه يواجه ثعلبا مراوغا وذئبا شرسا وديناصورا ما اعترضه شيء في طريقه إلاّ التهمه.

وممّا زاد من حقد عماد بلخوجة على باغندا أنّ عياض الجزيري كان قد دعاه، أواخر أوت من سنة 1987، إلى حضور حفل ختان ابنه البكر الذي أقامه في بيته الفخم بضاحية سكّرة، واستدعى كبار السياسيّين ورجال الأعمال والنجوم من الفنّانين والرياضيّين والإعلاميّين. علم عماد بلخوجة بدعوة عدوّه اللّدود لباغندا فأرسل إليه، على عجل، منير الزرقوني رسولا يحذّره من مغبّة حضور الحفل. لكنّ باغندا عصى الرسول. وشوهد يومها يشرب إلى حدّ السكر ويحادث الحسان من بنات الطبقة الراقية ويغازلهنّ فيلتقطن صورًا معه.

كان ذلك إيذانا بأنّ باغندا، مزهوّا بما في رجليه من فنّ ومهارات ومحمولًا بما لأبناء الأحياء الفقيرة من جوع إلى متع الحياة والبذخ والرفاهية، قد دخل مرحلة العصيان والتمرّد مدعوما بمن هو في قوّة عماد بلخوجة مالًا وجاهًا وسلطة. فما أدرانا بما وعد به عياض الجزيري باغندا؟ وبما أغراه وأقنعه؟

ولم يكن هذا أهمّ ما أخرجه «شدلون» في تلك الجلسة من جرابه. فقد كان كالمكبوت الذي يريد أن ينفّس عن كُربة أو يفرّج عن غمّ يأخذ بالنفس فوجد معي الفرصة متاحة. فأمثال «شدلون» ممّن لا يعرفون حفظ الأسرار ويعيشون بالكلام عن الآخرين ونقل الأحاديث والأخبار

مكتبة الفكر الجديد

يمثّل الصمت عندهم، خصوصا إذا كانوا مكرهين عليه، رديفا للعجز والمرض بله الموت.

لم يستبعد «شدلون» زعْم من زعَم أنّ عماد بلخوجة أرسل عصابة إلى باغندا للاعتداء عليه وتأديبه بعد أن خالف تعليماته في عدم الذهاب إلى الحفل الذي أقامه عياض الجزيري في بيته. فالجميع يعلم ما لرئيس الاتّحاد من سطوة واعتداد بالنفس وحقد على من يعصي أوامره. فما بالك بباغندا الذي يعتبره مزارعًا في حقله أو خادما في بيته. أطعمه من جوع وعليه واجب الامتثال والطاعة. ومن الثابت أنّ عماد بلخوجة لا يغفر أبدا لمن يتحدّاه ويعتقد أنّه كبر أمامه.

لم يستغرب «شدلون»، قبل أن يتعتعه السكر، أن يكون بلخوجة قد أمر بعجن باغندا في حديد سيارة «الغولف» (كان الحديث عن حادث سيّارة قد انتشر كثيرا في الحيّ). غير أنّني أستبعد ذلك بناء على ما هو ثابت عندي من دهاء عماد بلخوجة. فبيع باغندا لفريق أجنبيّ أو تونسيّ مفيد له أكثر من إعاقته أو قتله. وإذا بلغت به الشماتة مبلغًا لا حدّ له فإنّه عاقبه بأن تركه دون لعب لمدّة طويلة، وهذا العقاب لهو بمثابة الموت الزؤام لشخص مثل باغندا لا يعيش إلّا بلعب الكرة. وهو مرتبط بعقد لمدّة خمسة مواسم مع الاتّحاد التونسيّ تبقّى منها موسمان.

والحقّ أنني كدت أعتقد أنّ «شدلون» لا يملك أيّ معلومة جدّيّة أو قويّة الاحتمال في شأن ما حدث لباغندا، وإن هي إلّا تخمينات لا تختلف كثيرا عمّا بلغني من أناس أقلّ اهتماما بكرة القدم منه. وكادت الجلسة تنتهي لولا أن نقل «شدلون» الحديث إلى منير الزرقوني وهو ما كان يهمّني جدًا.

الأنصار. كان «شدلون» يعرف جيّدا علاقة منير الزرقوني بعماد

مكتبة الفكر الجديد

بلخوجة ويعرف تاريخ الزرقوني في الأمن وتكليف بلخوجة له بالإشراف على هيئة المشجّعين. وقد أحسست أنّ نقمته على الزرقوني أكبر من نقمته على من اعتدى على باغندا. لم أجد لهذه النقمة من تفسير إلاّ تحريم الزرقوني الحديث عن باغندا على «شدلون».

كان «شدلون» قد عمل، أوّل الأمر، مع الزرقوني في هيئة المشجّعين قبل أن تصبح هيئة رسميّة وقبل صعود عماد بلخوجة لرئاسة الفريق. فقد شارك في الحملة التي أطلقت ضدّ الأستاذ مصطفى الشريف الرئيس السابق. إذ أُعِدّت في «مقهى الحاج الشمنططّو» بعض الشعارات التي صدحت بها الحناجر في الجلسة العامّة الانتخابيّة وكان الدور الأكبر في إعدادها لـ«زيكو» أحد صبيان الحيّ وفتوّته الذين لهم في رصيدهم عدد محترم من السنوات في السجن بسبب جرائم مختلفة أكثرها من قبيل التشويش في الطريق العام والسكر الفاضح ومسك الأسلحة البيضاء و«البراكاجات»[1]. لكنّه كان موهوبا في ابتكار الشعارات والصيحات والهتافات بحكم اشتغاله في حفلات «المزود» كضابط إيقاع. ومن الشعارات التي ابتكرها: «الاتّحاد يا عماد، يا عماد الاتّحاد»، و«وفات فلوسك يا صطوفة، بره روّح يزّي من الحوفة»[2] و«وقتلّي يجدّ الجد، بلخوجة ما كيفو حدّ»، و«يا بلخوجة الحوت عليك، الاتحاد شادد فيك»، و«توّة توّة الخمسينيّة، يا عماد حلّ ثنيّة». كانت هذه بعض كلمات الهتافات التي أشعلت قاعة الجلسة وساهمت في إخراس جميع أنصار الأستاذ الشريف علاوة على بذيء الكلام ومقذع السباب. لقد قام منير الزرقوني بواجبه على أحسن وجه إذ أحضر عصابة من أحقر

(1) مفردها «براكاج» وتعني السطو على شخص وسلبه تحت التهديد.

(2) مفاد الشعار الأوّل «لقد انتهى نفوذك يا صطوفة (وهو اسم الدلع لمصطفى) فاذهب كفاك سرقة» أما الذي يليه فالقصد فيه هو «في كبار المهام لا بديل عن عماد بلخوجة» وعبارة «الحوت عليك» في الشعار الموالي دعاء لبلخوجة ومدح اقتضى التمسّك به («شادد فيك»). ويمكن التعبير عن الهتاف الأخير بما يلي: «الآن الآن الخمسينيّة فافتح لها يا عماد ثنيّة».

مكتبة الفكر الجديد

أبناء الحيّ والأحياء المجاورة مقابل قنينة خمر وعلبة سجائر من النوع الرفيع وعشرة دنانير لكلّ واحد من المناضلين الأشاوس. كانوا موزّعين على أرجاء القاعة في قصر بلديّة تونس ببدلات صيفيّة أنيقة نظيفة لا يشكّ الناظر إليهم بادئ الأمر في أنّهم من المشجّعين الأوفياء للفريق والمحبّين المخلصين للقيم الرياضيّة.

وقد وجد الأستاذ مصطفى الشريف المحامي نفسه، وهو يغادر مكتبه الكائن في «باب البنات» بجبّته السكرودة، في وضع مقزّز. فما إن تجاوزت رجلاه عتبة المكتب حتّى غرق من رأسه إلى قدميه في سائل لزج نتن قويّ النتونة، إذ صبّ عليه أحدهم من أعلى سطح المبنى سطلا مملوءا غائطا محلولا في الماء الفاتر. لم يكن لديه دليل ولكنّه كان على يقين من أنّ عماد بلخوجة وعصابته يقفان وراء هذه الفعلة الشنيعة. لم يكن أمامه إلاّ أن يبتلع السكين وهو يقطر دما.

وقد أكّد لي «شدلون» أنّ أغلب هؤلاء أصبحوا موظّفين في الاتّحاد يعملون تحت إمرة الزرقوني. وكثيرا ما يرسلهم إلى مثل هذه المهامّ القذرة. ولكنّه بالمقابل لم يخفِ إعجابه بقدرات الزرقوني التنظيميّة. فقد زرع خلايا لأنصار الاتّحاد وأحبّائه في جميع الأحياء بالعاصمة ثمّ انتقل إلى المدن الأخرى. وهي خلايا تجمع أموالا كثيرة للفريق من الأنصار خصوصا عَبر بيع الاشتراكات لدخول الملاعب والانخراطات علاوة على مساهمات رجال الأعمال وأصحاب الشركات والمصانع.

ولكنّ أهمّ ما حقّقه الزرقوني للاتّحاد من أموال كان بصفة غير مباشرة من أبسط الضروريّات وأصغرها إلى أهمّها وأكبرها. فالحليب و«اليوغرت» والمياه المعدنيّة واللّمجات مثلا، تصل إلى الفريق من الشركات أو من المحبين الأثرياء في صيغة هدايا. أمّا الطائرات الخاصّة التي كانت تقلّ الفريق في مسابقاته الإفريقيّة فهي مكتراة بالأموال التي تجمع في كلّ مناسبة، أو يُفرض على الخطوط التونسيّة توفيرها. أفلا

مكتبة الفكر الجديد

يدافع الفريق عن راية البلاد وسمعة كرة القدم التونسيّة في المحافل الإقليميّة والدوليّة؟ أليست الخطوط التونسيّة شركة وطنيّة عموميّة؟

وتقيّد هذه المصاريف في بابها على أنّها خرجت من ميزانيّة الجمعيّة. ولكن لا أحد يعرف إلى أين تذهب؟ ولا كيف تسجّل؟ ولا من يتصرّف فيها فعليّا؟ وترجّح الألسن الطيّبة أنّ الأموال توظّف في شراء اللّاعبين بأسعار سرعان ما التهبت حين دخلت الفرق الأخرى في منافسة الاتّحاد التونسيّ على جلب أفضل اللاّعبين الأفارقة.

لكنّ كلّ ما فعله الزرقوني لم يمكّنه في الوقت نفسه من السيطرة على جماهير الاتّحاد ولا توجيهها حسب إرادته. فقد حدث ما جعل هيئة المشجّعين عاجزة فعلا عن تأطير الشبّان المتحمّسين للفريق. وأمسى للاتّحاد صنفان من الأحبّاء. أوّلهما صنف يتحكّم فيه منير الزرقوني ويتميّز بالمال الوفير والإمكانيّات اللّوجستيّة التي يوفّرها له دعم عماد بلخوجة وشبكة العلاقات الواسعة التي نسجها الزرقوني باسم سيّده ليدافع عنه ويحميه، ويشتغل عنده وكالة للإشهار ونشر الإشاعات وإدخال البلبلة إذا لزم الأمر لإقصاء كلّ من يعارض توجّهات رئيس الفريق السديدة وحكمته في إدارة شؤون الجمعيّة. وهي، علاوة على ذلك، شركة وشاية وتجسّس ومراقبة سرعان ما تنتقل إلى أشكال من العنف الماديّ لتأديب الخصوم ومن لا يرضى عنهم عماد بلخوجة من المتطاولين.

أمّا الصنف الثاني فله من العزيمة والحماسة حدّ الغلوّ، وله حبّ الكرة والهيام بالجمعيّة، ولا يريد من وراء ذلك جزاء ولا شكورا. فالكرة عند المحبّين من الصنف الثاني معنى في الحياة يستمدّونه من التقائهم واجتماعهم على مبادئ وقيَم وقوانين مرعيّة في ما بينهم توجّه سلوكهم داخل الملاعب وخارجها. كانوا من أبناء الأحياء الفقيرة والشعبيّة، ومن المراهقين الحالمين. يبحثون عن طائفة أو أمّة يتدرّبون معها على معنى

مكتبة الفكر الجديد

الوفاء لألوان الفريق والإخلاص للاّعبين الذين يمتّعونهم كلّ أسبوع بفنّياتهم وأهدافهم وبذلهم في الميدان من أجل القميص الذي ينزعونه بعد الفراغ من المباريات مبلّلا بالعرق. وهؤلاء يكنّون محبّة خالصة للاعبين، يأكلون العشب وقد أخذت منهم الحماسة في اللّعب كلّ مأخذ **وحملهم النشاط للفوز والتعلّق بالانتصار مهما كان الثمن. إنّهم شباب** «الأولتراس» المغالون في الدفاع عن الفريق. متطرّفون في عشق كلّ كبيرة وصغيرة تتعلّق بناديهم المحبوب.

شياطين المدارج. كان هؤلاء الخطر الحقيقيّ الذي لم يعرف منير الزرقوني كيف يصدّه أو يردّه. فلئن اعتمد على «البانديّة» وخرّيجي السجون فهو أعجز من أن يقف أمام تيّار هادر من شباب متحمّس. جرّب أسلوب الاحتواء فلم ينفع. اختبر فنون الترهيب فلم يفلح. اعتمد سياسة فرّق تسدّ فأدت إلى غير المرجو. شياطين يحتلّون المدارج كل يوم أحد. يأتون كلّ أسبوع بأهزوجة جديدة رائقة وفكرة لا عهد للمتفرّجين بها. فوضويّون يتحرّكون بنظام. مسالمون لا يتردّدون في استعمال العنف ضدّ من يضمر لهم الشرّ خصوصا من رجال الأمن. يتكلّمون لغة لا تُفهم. من أين خرجوا؟ من يقودهم؟ من يتحكّم فيهم؟ ماذا يريدون؟. لقد عجزت وزارة داخليّة عماد بلخوجة عن الإجابة عجزَها عن إيقاف هذا الزحف.

بدأ الحديث عن الأولتراس إثر مقابلة جمعت الاتّحاد التونسيّ بالنجم الساحليّ. كانت مباراة صعبة في تصفيات الكأس انتهت بفوز الاتّحاد بثلاثة أهداف مقابل هدف بعد أن انتهى الوقت الأصليّ بالتعادل ممّا أدّى إلى تمديده بحصّتين إضافيّتَين. لا أحد عرف كيف بدأت المناوشات بين أنصار الفريقين. كاد الملعب يحترق. اقتُلعت الكراسي والأعمدة الحديديّة وحُطّمت التجهيزات. تدخّلت قوات الأمن تخبط

مكتبة الفكر الجديد

خبط عشواء لا تميّز بين مذنب وبريء. أطلقت القنابل المسيلة للدموع لتفريق الجماهير وإخراجها من الملعب. كانت عصيّ وحدات التدخّل تنهال على الخارجين من المسالك الضيّقة فلا تسمع إلاّ الصراخ والسباب واللّعنات. شبّان يتمايلون ويترنّحون تحت وقع الهراوات. يسقطون فتهوي عليهم العصيّ. يزحفون فتركلهم الأحذية الخشنة على الرأس أو الوجه أو الرجل أو الظهر. لا ينجو من حفل التأديب الأمنيّ إلّا من غادر الملعب نهائيّا ليستنشق الهواء في الشارع الفسيح بعيدا عن المركّب الرياضيّ. لا يتخلّص من هذا الكابوس، وإن نسبيّا، إلاّ مَن استقلّ حافلة من الحافلات التي تتجه نحو الطريق الرابطة بين سوسة وتونس أو وجد منفذا للوصول إلى سيّارته. وجد العائدون إلى تونس في الطريق وابلا من الحجارة ينتظرهم. لا أحد يعرف من أين تساقط على السيّارات والحافلات فلا تنجيهم منها إلاّ سيّارت الأمن وشاحنات قوّات التدخّل التي تخفر القافلة المتّجهة إلى تونس.

كان انتصارا بطعم انتقام أحبّاء الفريق المنافس وهراوات الأمن والغاز المسيّل للدموع. امتلأت النفوس في الحافلات العائدة إلى العاصمة قهرا وحقدا ونقمة وشعورا بالمهانة والإذلال. كانت القلوب تغلي كالمرجل ينثر حبيبات من الماء الساخن حوله ثم كبرت فقاعاته وسالت على الأطراف لتنفجر في حدود قرية هرقلة.

حين وصلت الحافلات يسبقها موكب من السيّارات ويتلوها آخر وجدت جماهير الاتّحاد التي لم تتطعّم انتصارها حشدا كبيرا من قوّات التدخّل. نزل الرجال من عرباتهم وشاحناتهم حاملين الهراوات لابسين أزياء الصدام كأنّهم ينتظرون العدوّ ليهجموا عليه. ومن دون سببٍ بيّنٍ طفقوا يوقفون بعض السيّارات التي يلوّح راكبوها بأعلام الاتّحاد الذهبيّة والزرقاء. أوقفوا حافلة أو اثنتين كان بعض الشبّان يطلّون من نافذتيهما منشدين أهازيج معادية للفريق المنافس:

مكتبة الفكر الجديد

«ساحلي شرّاب الزيت» و«لا إله إلاّ اللّه والنجم عدوّ اللّه» و«الاتّحاد يا دولة والنجم يا زبلة».

أنزلوا بعض الشبّان من الحافلة المتوقّفة ومن السيّارات الرابضة على حافة الطريق وانهالوا عليهم ضربا. لم تكن تسمع إلاّ السبّ والشتم والهياط والتدافع بين رجال حفظ النظام ومناصري الجمعيّة. شاهد الشبّان مشجّعا منهم ممسكا بيده عينا فقأها له أحد رجال الأمن. نسي الجميع في غمرة الغضب والحنق والنقمة أوجاعهم. واستحال الصياح والصراخ حجارة تلقى على الأمنيّين الذين تراجعوا ليكوّنوا حاجزا بشريّا بعد أن أخرجوا دروعهم واصطفّوا من باب الفرّ وإعادة تنظيم الصفوف تهيّؤا للكرّ. وجدوا أنفسهم وسط الطريق محاصَرين بسيّارات خلفهم تطلق أبواقها صفيرا مُصمّا وأخرى أمامهم تنتظر فتح الطريق في صفّ طويل مضجر. توتّر الوضع. فهم أنصار الاتّحاد أنّ في سلوك رجال الأمن ما ينبئ بالانتقام بعد ردّ الشبّان عليهم. أخذت السيّارات تمرّ مسرعة غير مبالية بالأخطار. انهال الشبّان المعتدى عليهم بالحجارة يحطّمون شاحنات الأمن. أضرموا النار في بعض الشاحنات وفي عجلات لا أحد يعلم من أين أتوا بها. أصبح الوضع غير قابل للسيطرة. تقاطرت تعزيزات من الحرس الوطنيّ وقوّات حفظ النظام. غيّر الأمنيّون خطّتهم مكتفين بمهمّة تيسير مرور العربات ولكنّهم أوقفوا عددا من الشبّان واقتادوهم إلى مكان مجهول.

وقد وجدت في بعض القصاصات التي جمعتها خبرا في صحيفة من المرجّح أنّه يشير إلى هذه الحادثة:

شهد مقرّ الاتّحاد التونسيّ ليلة الأحد المنقضي تجمّعا لعدد كبير من الشبّان العائدين من مدينة سوسة للاحتفال بالانتصار الصعب الذي حقّقه الفريق ضدّ النجم الرياضيّ الساحلي. وقد كانت الأهازيج والأناشيد حاضرة بقوّة خلال هذا الاحتفال. ولكن سرعان ما انقلب

مكتبة الفكر الجديد

الاحتفال إلى مظاهرة تندّد بالإيقافات التي طالت عددا من أنصار الفريق الذين يسمّون بالـ«أولتراس» عند عودتهم من سوسة إثر الاشتباك مع قوات حفظ النظام. وطالب المجتمعون أمام مقرّ الاتّحاد بإطلاق سراحهم. وقد أدّى هذا التجمّع الحاشد إلى شلل مروريّ بسبب قطع المشاركين للشارع الموازي لحديقة الرياضة (ج) وهو يعدّ شريانا أساسيّا ومحورا مروريّا هامّا في العاصمة.

ويواجه الموقوفون الذين بلغوا ما يناهز الثلاثين حسب مصدر عليم بوزارة الداخليّة تهم الاعتداء على رجال الأمن وحرق الممتلكات العامّة والتخريب والشروع في القتل بالنسبة إلى بعضهم. وقد عاينت النيابة العموميّة التابعة لمحكمة سوسة آثار الحرق والتخريب واستجوبت أفراد الأمن المُعتَدى عليهم في تلك الأحداث. وقد تبيّن من تحقيقات النيابة استخدام الجماهير لألعاب ناريّة ومفرقعات عند الاشتباك مع قوّات الأمن.

وحضر بعض مسؤولي الاتّحاد فدعوا المجتمعين أمام مقرّ الفريق إلى الهدوء واعدين بالتدخّل لدى السلط العموميّة المعنيّة لإطلاق سراح الموقوفين من أحبّاء الفريق بما أنّ الجميع وعلى رأسهم عماد بلخوجة رئيس الفريق قد عاينوا، على حدّ قولهم، اعتداء جماهير النجم داخل الملعب وخارجه على أنصار الاتّحاد والتدخّل العنيف لقوات الأمن في مستوى قرية هرقلة. وهذا ما هدّأ من غضب الحشود وأقنعهم بالعودة إلى بيوتهم وإن في ساعة متأخّرة من اللّيل.

كان هؤلاء الـ«أولتراس» الذين اشتبكوا مع قوّات الأمن من أبناء حيّنا والأحياء المجاورة له بالخصوص.

وممّا يدعّم هذه الحادثة في الوثائق التي جمعتها مقال نشر في صحيفة «الخبر التونسيّ» يروي فيها كاتبها تداعيات المعركة التي جدّت في الملعب الأولمبيّ بسوسة. وأنقله هنا حرفيّا:

مكتبة الفكر الجديد

في سوسة أحداث مؤسفة
كرة القدم مرّة أخرى ضحيّة العنف

الخبر التونسيّ ، مكتب الساحل، خاصّ.

كان الملعب الأولمبيّ بسوسة مسرحا لمواجهات عنيفة يوم الأحد الفارط بين بعض جماهير النجم الساحليّ وضيفه الاتّحاد التونسيّ وذلك حتّى قبل ضربة البداية بساعة ونصف تقريبا في نطاق تصفيات الدور ثمن النهائيّ لكأس تونس.

وقد بدأت المناوشات بين جمهورَيْ الفريقين حين احتلّ حوالي خمسين مشجّعا للنجم جزءا من المقاعد المخصّصة للفريق الزائر حاملين رايات النجم الرياضيّ الساحلي. واعتبر جمهور الاتّحاد أنّ هذه الحركة استفزازيّة وحاولوا إخراج المندسّين في صفوفهم من المدارج المخصّصة لهم وحين رفضوا تحوّلت المناوشات إلى تبادل للعنف.

وقد أدّى الحماس المفرط إلى شجار وتضارب بين مشجّعي الأزرق والذهبي من جهة ومشجّعي الفريق المحلّي. وعمد بعض الشبّان في غمرة المعركة التي حمي وطيسها إلى قلع الكراسي فنجحوا في تهشيم بعضها وكاد بعضهم أن يسقط من المدارج وهو يحاول الفرار. وتمّ في الأثناء تبادل المقذوفات والقوارير.

وقد تدخّلت قوّات الأمن بكثافة للسيطرة على الوضع فأخرجت المشاغبين من شبّان النجم الرياضيّ الساحلي من المدارج لتهدئة الأجواء ونزع فتيل التوتّر.

وقد بدأت المباراة في التوقيت المقرّر لها على الساعة الثانية بعد الزوال وانتهت بهزيمة قاسية للمحلّيّين بثلاثة أهداف مقابل هدف (3 - 1).

وعلم مراسلنا بسوسة أنّ التقديرات الأوّليّة للخسائر تتمثّل في

مكتبة الفكر الجديد

تهشيم حوالي سبعين مقعدا وجرح ما يقارب العشرة أشخاص ثلاثة منهم من مشجّعي الاتّحاد والبقيّة من مشجّعي النجم إصابة أحدهم بليغة.

وقد قدّمت هيئة النجم شكوى ضدّ مجهول إذ أكّد نائب الرئيس أنّ التتبّعات القضائيّة أصبحت ضروريّة ضدّ كلّ من يسيء إلى الفريق وإلى الروح الرياضيّة في ملاعبنا. لكنّ مصدرا من بلديّة سوسة الساهرة على الملعب أفاد مراسلنا هناك بأنّ النجم سيدفع قيمة الأضرار الناجمة عن هذا الشجار.

وأوضح مسؤول من الاتّحاد رفض الكشف عن اسمه أنّ جمهور الاتّحاد قد عوقب مرّتين خصوصا عند عودته في الحافلات والسيّارات إلى العاصمة وتعرّضه في مستوى قرية هرقلة إلى مهاجمة الأمن والتشفّي من أحباء الفريق محمّلا المسؤوليّة كاملة إلى هيئة النجم مطالبا الجامعة باتّخاذ الإجراءات المناسبة وتطبيق القانون مؤكّدا أنّ «أحبّاء الاتّحاد منضبطون ووقع استفزازهم بطريقة غير لائقة والاتّحاد لن يسكت عن هذه المظلمة وسيدافع عن جماهيره كما يدافع عن لاعبيه الذين تعرّضوا للاستفزاز حتّى من ملتقطي الكرة وراء خطوط التماس».

وردّا على تصريح المسؤول آنف الذكر اعتبر عبد العزيز المرابط الناطق الرسمي باسم النجم، في حديث بالهاتف أجرته معه الإذاعة الوطنيّة، أنّ هذه الاتّهامات باطلة وصبيانيّة وأنّ مسألة العنف في الملاعب طالت فريق النجم من قبل وتعاملت معها الهيئة برصانة وبما يقتضيه القانون داعيا وزارة الشباب والرياضة إلى تحمّل مسؤوليّتها.

وفي تصريح للسيّد وزير الشباب والرياضة التونسيّة خصّ به التلفزة التونسيّة ذكر أنّه «مصدوم من هذه الظاهرة التي ما انفكّت تستفحل في ملاعبنا وما وقع قبل يومين (يوم الأحد المنقضي) هو عمل

مكتبة الفكر الجديد

مشين لرياضتنا عموما، يبرز أنّ السلوك العنيف لبعض الأحبّاء الذين يعرفون بـ«أولتراس» سلوك مدان ينبغي اجتثاثه قبل أن تقع لا قدّر اللّه مصيبة كبيرة في ملاعبنا الآمنة»

وقد أكّد السيّد الوزير في التصريح نفسه «أنّ الوزارة بتعليمات سامية من لدن فخامة الرئيس المجاهد الأكبر ستأخذ هذه المسألة بجدّ وصرامة حماية لشبابنا من المتهوّرين وتأكيدا على واجب التصدّي لكلّ ما يمسّ أمن البلاد والعباد».

وفي الاتّجاه نفسه ذكر رئيس الجامعة التونسيّة لكرة القدم في تصريح لوكالة «وات» للأنباء ما يلي: «الآن نقول كفى! لا يمكننا الصمت على هذه الشرذمة الحقيرة التي تدّعي أنّها من أحبّاء الفرق الكبرى وهي تعيث فسادا في ملاعبنا. إنّهم لا يدركون أنّهم يسيئون إلى كرة القدم ولا حلّ لإيقافهم عند حدّهم إلاّ الضرب بيد من حديد». وقد أكّد أنّه سيدعو إلى اجتماع لمكتب الجامعة لتدارس المسألة والتنسيق مع وزارة الشباب والرّياضة ووزارة الداخليّة وتقديم مقترحات عمليّة لإيقاف هذا النزيف الذي يهدّد كرتنا التونسيّة.

وفي بادرة هي الأولى من نوعها أصدرت الرابطة التونسيّة للدفاع عن حقوق الإنسان بيانا حادّ اللّهجة أدانت فيه القمع البوليسيّ الذي تعرّضت له جماهير الاتّحاد عند عودتها إلى تونس العاصمة دون أن تتعرّض إلى ما وقع من تصادم في الملعب الأولمبي بسوسة . وقد ردّت وزارة الداخليّة في بيان صحفيّ على هذا البيان معتبرة أنّ ما جاء فيه مخالف للواقع وأنّ رجال الأمن هم الذين كانوا عرضة لهجوم بعض الأحبّاء المتعصّبين «فقد قام الأمن بواجب حماية الأملاك العامّة في كنف القانون» على حدّ تعبير البيان الصادر عن الداخليّة.

مكتبة الفكر الجديد

حمّادي النمس زعيم «الألتراس». لم أكن قد سمعت من قبل بهذا الصنف من الأحبّاء. فقد ظهر على الأرجح في أحيائنا بعد صعود عماد بلخوجة إلى سدّة رئاسة الاتّحاد التونسي أي سنة 1984 أو 85 وربّما 86. لكنّ أوّل «أولتراس» في تونس كان لمناصرة الاتّحاد التونسيّ ثم قلّدهم أنصار الترجيّ والإفريقي والنجم الساحلي والنادي الصفاقسي. ولباغندا أصدقاء عديدون من حيّه ومن الأحياء المجاورة انضمّوا إلى عصابة «الألتراس». وقد سمّوا أنفسهم باسم أنكليزي هو «بلو أند غولدن» أي ما ترجمته «الأزرق والذهب» قاصدين بذلك اللّونين المميّزين للفريق.

وقد اجتمعوا على جملة من المبادئ تعاهدوا عليها لا يحيدون عنها. فالشرط الأوّل «للألتراس» ألاّ يجلس طالما المباراة تجري، والثاني ألاّ يكفّ عن الإصداح بالأهازيج التشجيعيّة مهما تكن النتيجة. فـ«الألتراس» الحقيقيّ هو حادي الفريق واللاّعبين منذ دخولهم إلى الملعب حتّى عودتهم إلى حجرات الملابس. وهم في ذلك لا يميّزون بين مقابلة تدور في العاصمة أو خارجها. فمهمّتهم الأساسيّة أن يكونوا مع الفريق حيثما كان. يضحّون لأجل ذلك بالغالي والنفيس ويحرمون أنفسهم من الضروريّ حتّى لا يحرم فريقهم من واجب التشجيع والنصرة.

والواقع أنّ هذا كلّه لم يكن بالأمر الهيّن بالنسبة إلى المجموعة الأولى من «الألتراس» قبل أن تظهر مجموعات أخرى تدّعي الهيام بالاتّحاد. فالشبّان الذين قلّدوا ما يوجد في الفرق الأوروبيّة الكبرى جلّهم من العائلات الفقيرة. ويروي العارفون أنّ الفكرة ولدت في ذهن حمّادي النمس الذي هاجر إلى إيطاليا منذ سنوات ليشتغل في البناء قبل أن يصبح «كيميائيّا» (والكيميائي في لغة أبناء حيّنا هو مروّج المخدّرات). كان حمّادي النمس من أحبّاء «اليوفي» في الدوريّ الإيطالي والاتّحاد

مكتبة الفكر الجديد

في الدوريّ التونسيّ. ويذكر العارفون أنّه أوّل من أدخل الشماريخ و«الفلامات» والمفرقعات والألعاب الناريّة إلى تونس وظلّ يزوّد بها أبناء الحيّ من حرّ ماله حبّا في الاتّحاد. فلم يكن من الذين يقيمون للمال وزنا ويصرّف حياته على أساس مبدإ يتلخّص في أنّ «أموال الحرام ينبغي أن تذهب في الحرام». والحرام عنده كل المفاسد والملذّات وما يدخل البهجة على قلوب أبناء الحيّ. وقد علّمهم، وهو يكوّن أول مجموعة «أولتراس» في تونس، أنّ القاعدة الذهبيّة هي تلاحم أفراد المجموعة وتماسكهم في السرّاء والضرّاء فعليهم أن يكونوا كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضا.

أشرف حمّادي النمس بنفسه على تنظيم أوّل دخلة للاتّحاد التونسيّ في ملعب المنزه. فقد قدم إلى تونس خصّيصا قبل أسبوعين لإعداد الترتيبات اللاّزمة والقيام بالاستعدادات الكاملة والحصول على التراخيص المطلوبة لصنع هذا الحدث التاريخي. استنجد بعماد بلخوجة الذي رحّب بالفكرة وأحاله على منير الزرقوني للتنسيق معه في شأنها.

كان حمّادي النمس نمسًا ينطبق اسمه على المسمّى. بارع في القضاء على خصومه وأعدائه يشتمّ غدرهم ويستشعر خبثهم بحاسّته الاستثنائيّة وحدسه القويّ. والحقّ أن تسمية النمس جاءته من صفاته الخلقيّة. طويل القامة صغير الرأس والأذنين مستدقّ الأنف. عرفه أبناء الحيّ منذ صغره بقدرته على التخفّي والمباغتة وسرعته المذهلة في السطو على كلّ ما يحلو في عينيه بجسارة وجراءة نادرتين رغم حذره الشديد من الناس. عُرِف في الحيّ بأنّه نشّال من طراز رفيع. أسرع نشّال في تونس.

حاول الزرقوني استغفاله في حفل الدخلة. اقترح عليه أن يضع على ذمّته صبيانه وعملاءه. قبل النمس. كلّفهم بمهام شاقّة لا صلة

مكتبة الفكر الجديد

لها بالدخلة. اشترط عليه أن يكون هو المخطّط والمدبّر وما على الصبيان إلاّ أن يطيعوا أوامره. ولمّا حَدَسَ أنّ الزرقوني، وهو نمس آخر لا يقلّ دهاء عن حمّادي النمس، يعتمد على أناس آخرين في ما يخطّط له من أمر الدخلة، وتفطّن إلى أنّه يريد مشاركته في الإعداد على الأقلّ، تعمّدَ خلق مشكلة مع وزير داخليّة الاتّحاد. هدّد بإبطال الحفل واسترجاع الشماريخ والألعاب الناريّة التي أحضرها والعودة إلى إيطاليا. فما كان من الزرقوني إلاّ أن تراجع مسلّما أمره للنمس. ويوم الدخلة اكتشف الزرقوني وعماد بلخوجة أنّ النمس تعلّل بالدخلة ليبرز مجموعة «البلو أند غولدن» على أنّها الممثّل الشرعيّ والوحيد لجماهير الاتّحاد.

النشيد الرسميّ للاتّحاد. جرت المباراة عشيّة سبت. بدأ الجمهور يتقاطر على الملعب منذ منتصف النهار، أي قبل ساعتين ونصف من ضربة البداية. ولكن لأوّل مرّة في تاريخ كرة القدم التونسيّة رأى الجمهور، جمهور الفريقين المتنافسين، المدارج محلّاة برايتين كبيرتين زرقاء وذهبيّة عليهما شعار الفريق برسم كبير واضح جدّا. ومع الرايتين الضخمتين الموضوعتين في مدارج جماهير الاتّحاد المغطّاة والمدارج المكشوفة على يمين سبّورة نتيجة المباراة كانت جدران المدارج مزيّنة بلافتات وأعلام كبيرة كتب عليها «الاتّحاد يا دولة» بالعربيّة و«فورزا الاتّحاد» بالأحرف اللاّتينيّة.

وقد جال شبّان يلبسون قمصان الفريق بالملعب مصحوبين بفرقة نحاسيّة منشدين النشيد الرسميّ للفريق. يومها استمعت الجماهير لأوّل مرّة لنشيد رسميّ لفريق تونسيّ. تقول الأغنية التي تغنّى على قرع الطبول وتنغّم مثل أغاني «الراب»:

مكتبة الفكر الجديد

أووووه يا الاتّحاد

أووووه يا لولاد

أووووه ياأبطال الحومة

أووووه يا الناس المغرومة

يا الاتّحاد حبّي كلّو ليك عمري يا دولة ما نسلّم فيك

ولاد المركاض والحلفاوين ورأس الدرب والحجّامين

المدينة العربي وباب منارة وباب الخضراء والملاّسين

ولاد الاتّحاد وولاد الحومة فنّ وتكتيك للناس المغرومة

جاووك الكلّ، الكلّ يحبّوك

«الأكاب»[1] والكلاب وولاد القحاب نحنا ندزّوهم

والصحاب والأحباب وولاد الجمعيّة نحنا نلمّوهم

ولادكمايخافوولادكمايخونو هوما العصابة عليك ما يهونو

جاووك الكلّ، الكلّ يحبّوك

ولاد الجمعيّة كلهم خواتي بلاش بيهم آش نيّة حياتي؟

أحنا «الألترا» قصّة وحكاية نعيشوها معاك وما ليها نهاية

أحنا «الألترا» أحنا القوّة وانت جمعيتي وأرضي وسمايا

جيناك اليوم من كلّ ربط، بكلّنا نحبّوك

أووووه يا الاتّحاد

(1) عبارة في أصلها اختصار للحروف الأولى من كلمات جملة بالأنكليزيّة انتشرت لدى مجموعات الأولتراس في العالم تترجم بـ « جميع رجال الشرطة أوباش».

مكتبة الفكر الجديد

أووووه يا لولاد

أووووه يا أبطال الجومة

أووووه يا الناس المغرومة

البقرة الحلوب. أبهرت جماعة «البلو أند غولدن» بقيادة حمّادي النمس الحاضرين. كانت هذه الدخلة التاريخيّة وسيلة لإدخال البهجة على النفوس وبرهانا على أنّ الاتّحاد فريق رائد في كلّ شيء. هذا ما قاله عماد بلخوجة وهو يشكر النمس قبل بداية المباراة رغم تبرّم منير الزرقوني من ذلك وغيرته وغيظه الذي كظمه. ولكنّ ما فقده الزرقوني يومها، أو بالأحرى بدأ يفقده، إنّما هو سيطرته على جمهور الفريق أو على الأقلّ تحكّمه في قسم منه. فعل المستحيل لإثناء عماد بلخوجة عن تمكين عصابة «البلو أند غولدن» من إعادة الدخلة في مناسبات أخرى. حرّضه على الامتناع عن توفير تذاكر لهم لحضور المباريات بأسعار خاصّة مخفّضة وتخصيص مقاعد معيّنة لهم في مدارج الاتّحاد المكشوفة وتوفير مكان محميّ يحفظون فيه الأعلام والرايات واللاّفتات. ولكن لعماد بلخوجة حسابات أخرى لم يفهمها منير الزرقوني رغم خصال النمس فيه. فقد فعل بلخوجة عكس ما نصحه به وزير داخليّة الاتّحاد التونسيّ. أصبح يساعد العصابة على إدخال الشماريخ والألعاب الناريّة مع أثاث الفريق في الحافلة التي تدخل من دون مراقبة من الباب الخلفيّ للملعب، باب دخول المسؤولين واللاّعبين. أصبحت جامعة كرة القدم ووزارتا الداخليّة والشباب والرياضة تتبرّم من هذه الألعاب الناريّة لخطورتها. ورغم تشديد الخناق فقد قام أنصار «البلو أند غولدن» برشوة رجال الأمن أنفسهم لإدخال الشماريخ. فلا فرحة للجماهير ولا احتفال في الملعب إلاّ بإشعال النار. إنّها شمس الملاعب ونورها وينبوع الحماسة والقوّة. تلك النار التي تبعث الدفء في القلوب وتنير حلكة الأيّام في حفل

مكتبة الفكر الجديد

كرة القدم حيث يتطهّر شبّان الـ«أولتراس» من صدإ اليأس ورطوبة الرتابة وغثاثة الحياة اليوميّة وعفونة خيباتها.

وجد عماد بلخوجة في «الأولتراس» بقرة حلوبا ومصدرا جديدا للمال. ففي أسابيع قليلة ظهرت أقمصة زرقاء وذهبيّة بأرقام لاعبي الاتّحاد وأسمائهم وتحلّت الرؤوس بقبّعات زرقاء وشارات يتوسّطها شعار الفريق وفاخَرَ بعضُ الأحبّاء بامتلاك كؤوس ودبيةٍ صغيرة الحجم وأعلامٍ ورايات من أحجام مختلفة توضع في السيّارات ونوافذ البيوت. وتَزَيَّنَ آخرون ببدلات رياضيّة متنوّعة بألوان الاتّحاد. وبعد أسابيع أخرى فتح بلخوجة قرب فندق الفريق دكّانا مختصّا في بيع هذه الأشياء جميعا. وقد مثّلت ولا شكّ موردا ماليّا إضافيًا لآل بلخوجة وإن كان الدكّان أيضا باسم زوجته وريثة العلاّني. حينها، فهم منير الزرقوني سبب حرصه على النمس حين كلّفه بتجنيد عدد من العاطلين عن العمل كلّ يوم أحد لبيع تلك الأشياء عند باب الملعب في البداية ثمّ في الطرق والأنهج والأسواق العاديّة والأسبوعيّة خارج العاصمة. كما كلّفه بإرساء شبكة الباعة ومتابعة عملهم وجمع الأموال منهم وتحديد نسب المرابيح الصافية. حينها عَرَفَ الملايين التي تدرّها عليه وعَرفَ سبب دعمه لـ«البلو أند غولدن» وتيسير عملهم ودفع الرشاوى لتسهيل إعداد الدخلات وتسريب «الفلامات» والشماريخ إلى الملعب وغير ذلك من الامتيازات.

مناورات ظرفيّة. كادت العلاقة بين منير الزرقوني وعماد بلخوجة تفسد بسبب مجموعة «بلو أند غولدن». اتّصل يوما بعضُ أبناء الحيّ من العصابة برئيس الجمعيّة ليعلموه بأنّ العلم العملاق (وهو لواء المجموعة وبيرقها المميّز لها) قد سُرق من مخزن الأثاث الذي خُصّص لهم. اتّهموا جهارا منير الزرقوني بسرقته وأمهلوا بلخوجة أربعا وعشرين

مكتبة الفكر الجديد

ساعة قبل إعلان حلّ أنفسهم. ففي عرفهم إذا سُرق العلم العملاق فقدوا معنى وجودهم وأصبحوا مشجّعين عاديّين رغم أنّ العلم العملاق الثاني المستعمَل في التنقّلات خارج العاصمة مازال موجودا في مكان آخر.

سوّى عماد بلخوجة الأمر في بضع ساعات مبرّئا منير الزرقوني من العمليّة. أكّد أنّ حافظ أثاث الجمعيّة أرسله للتنظيف مثلما أرسل رايات وأعلاما أخرى تراكم عليها الغبار. تظاهرت عصابة «البلو أند غولدن» بالتصديق. اختفى الزرقوني مدّة أسبوعين تقريبا ممّا أكّد الشكوك التي ساورت قادة العصابة.

غير أنّ ذينك الأسبوعين كانا من الزرقوني بمثابة استراحة المحارب استعدادا لحرب أخرى أهمّ. فقد ظهرتْ، بعد حوالي شهر من حادثة اختفاء العلم العملاق الرسميّ، مجموعةُ «أولتراس» أخرى تناصر الاتّحاد التونسيّ سمّت نفسها «ماتادور الاتّحاد» (مصارع ثيران الاتّحاد). كانت مجموعة من أحياء أخرى صغيرة بعيدة نسبيّا عن المدينة العتيقة من أرباضها وأحوازها تحديدا، دخلوا إلى الملعب ببيرق كبير، حجمه ضعف حجم راية «البلو أند غولدن»، تتوسّطه دائرة ذهبيّة اللّون فيها رأس ثور أزرق بعينين ذهبيّتين. أمّا العلم كلّه فمخطّط بأشرطة عريضة أفقيّة زرقاء وذهبيّة.

نظّمت مجموعة «الماتادور» موكبا حاشدا في محطّة الحافلات القريبة من ملعب المنزه مرّددة هتافات تشجيع للاتّحاد التونسيّ لم يُسْمع لها ذكر من قبل. أنشدت أغاني جديدة رائقة أثارت غيرة مجموعة «الأولتراس» الأولى التي تفاجأت بظهور «الماتادور». خالف «الماتادور» بهذا الصنيع العرف الجاري في الدول المتقدّمة عند ظهور «أولتراس» جدد حسب تعليق جماعة حمّادي النمس. فلا بدّ من إشهار ذلك قبل أسبوع على الأقلّ حتّى لا يُعتبر موكبهم موكب جبناء وخوّافين. ردّت العصابة الجديدة بأنّ هذه القاعدة تطبّق عند انتقال المجموعة من

مكتبة الفكر الجديد

مدينة إلى أخرى وبين مجموعتَيْ فريقَيْن متنافسَيْن أمّا ما حصل فهو التقاء مجموعتَيْن تناصران فريقا واحدا.

رغب بعض الشبّان من مجموعة «البلو أند غولدن» في تأديب أفراد مجموعة «ماتادور الاتّحاد». واحتقَنَتْ النفوس وجُيِّش الشبابُ وتصاعد الغضبُ فأُشْهرت الخناجر واستُلّت من الجيوب المديُّ وبدأ التخطيط للمعركة، معركة الكرامة. لكن حمّادي النمس الواصل يومها من إيطاليا أمر الجميع بالهدوء. فليس من شيم «الأولتراس» العنف إزاء المجموعات الأخرى ولا من أخلاقهم التصرّف بعنف إلاّ إذا اعتدى عليهم «الأكّاب» أو استشعروا منه خطرا. رغم ذلك اعتُبرتْ مجموعة «الماتادور» صنيعةَ منير الزرقوني لإزعاج «البلو أند غولدن». صَدَقَ حمّادي النمس في تحليله إذ لم تدم المجموعة أكثر من ثلاثة أو أربعة أشهر انفضّ بعدها القائمون عليها حين توقّف دعم الزرقوني لهم ماليّا. فما بُني على باطل فهو باطل وحبّ الجمعيّة لا يُشترى بالمال بل يجري مجرى الدم في العروق أو لا يكون.

بيد أنّ خصال النمس لدى الزرقوني كانت أقوى من حمّادي النمس نفسه الذي كان مشغولا بعمله في إيطاليا وتجارته في المواد الكيميائيّة. دسّ الزرقوني في المجموعة بعض الموالين له من «الخلايق»[1] الجدد والمراهقين الذين لفظتهم المدارس لسوء سلوكهم ولم يجدوا من مربٍّ إلاّ الشارع وباعة «الزطلة» والخمور المهرَّبة. دفع لهم ما يسيّل اللّعاب ليكونوا مخبرين لديه بعد أن درّبهم على فنون الوشاية وردّ الخبر وأغراهم بالمال مقابل كلّ معلومة مهمّة. أضحى منير الزرقوني يعرف عن المجموعة كلّ شيء، أكثر حتّى من جلّ أفراد «البلو أند غولدن».

(1) جمع «خليقة» كناية عن الشخص الخطير الذي لا يتورّع عن الأعمال الإجراميّة.

مكتبة الفكر الجديد

حديث السكران. بدأ السكر يتعتع «شدلون» ونحن نتجوّل في شارع الحبيب بورقيبة تحت الأشجار الوارفة قبل أن نتّجه إلى باب الجديد مترجّلين لننال نصيبنا من اللبلابي عند «ولد البا». كانت خطواته وئيدة يترنّح أحيانا ويكاد يسقط أحيانا أخرى. أمسكته من ذراعه وألصقته إلى جنبي الأيمن أكاد أقوده كالبصير إلى أن وجدت الطريقة المثلى ليسير بأقلّ ما يكون من التمايل. وحين استوى واستقام على نحو مقبول طفق يحدّثني عمّا يفكّر فيه. أصبح لسانه طليقا إذ زال خوفه من منير الزرقوني أو ربّما نسي تهديداته جميعا بمفعول السكر. فالخمرة إذ تُذهب العقل تحرّر المرء من قيوده. بدا لي واضحا في بسط السيناريو الذي يذهب إليه وضوحا جعلني أشكّ في صدق ما كان يرويه. فقد تعلّمت أنّ الوضوح في مثل هذه القضايا التي تتعدّد فيها الأسباب والدوافع وتتداخل دون إمكانيّة تغليب سبب أو دافع على آخر لممّا يمثّل قرينة على زيف الرواية. لكني ما كنت أريد أن أردّ شاردة أو واردة فتركت الباب مشرعا أمام كلّ الفرضيّات، فأنا لا أقوم بتحقيق مرتبط بوقت عليّ إنهاؤه فيه، ولا أعمل على مصادر من جهات أمنية، كما أن عرض كل الاحتمالات والروايات لمما يعطي للقارىء فرصة الدخول في عالم كرة القدم وليس فقط معرفة ما حصل لباغندا مع أنها قضيتي الأساسية.

وهـذه الإطلالة على الأولتراس جـاءت لأن باغندا، بحسب «شدلون»، تعمّد إهانة جمهور «البلو أند غولدن» في المقابلة التي غادر فيها الملعب إثر احتجاج جمهور الاتّحاد على عدم مشاركته لاعبي الفريق فرحتهم بالهدف الذي سجّله اللاّعب الماليّ المنتدب.

ففي طريقه إلى حجرة الملاعب مخفورا برجال أمن يحمونه من تهاطل المقذوفات عليه واصلت الجماهير شتمه ومحاكاة قهقهات القردة. وكان جزء من «أولتراس» الاتّحاد في المدارج الواقعة فوق المدخل المفضي إلى حجرات الملابس. فجأة تخلّص باغندا من

مكتبة الفكر الجديد

مرافقيه واتّجه صوب الجمهور الذي كان يتلفّظ بأقذع النعوت ضدّ باغندا (وما أفحش سبابنا نحن التونسيّين!) وأرسل بيده حركة لا تقلّ فحشا عن سباب الجماهير: ضرب بكفٍّ يمناه مرفقَ يسراه من الداخل رافعا ساعده محكما قبضته (وهو ما يصطلح عليه في لغو البذاءة التونسيّة بـ «الفقّوصة»[1]) تعبيرا منه عن السخرية ممّا يقولون ولامبالاته باحتجاجهم واحتقاره لهم. وأنّى لـ«الأولتراس» أن يغفروا للاعب صنيعَه هذا؟ كيف لواحد أن يتهجّم على مجموعة؟ كيف يهينهم بهذا الشكل أمام جماهير الفريق المنافس وكاميرات التلفزيون؟

اتُّخذ القرار: لا بدّ لهذا الوقح الحقير أن يؤدَّب ويعاقب صونا لكرامة جماهير الفريق العريق. سألت «شدلون» بعد أن فرغ من تخريفه:

- من اتّخذ القرار؟

لم تصلني الإجابة إلاّ بعد أن ترنّح وسقط أرضا. لم يستفق من غيبوبة قصيرة أخذته إلاّ بعد أن أخرج ما في بطنه. تقزّزت أوّل الأمر. ثم تغلّبت على نفسي بعد أن لعنتُ اليوم الذي جعلني أصطحبه إلى حانة.

كنّا قد وصلنا، بعد توقّف لأكثر من مرّة، إلى محطّة برشلونة. أجلسته على إحدى المناضد المجعولة لركّاب الحافلات. ولا أدري، بعد أن خفّ مفعول الكحول ربّما، كيف بدا صاحيا فجأة فقلّ ترنّحه واعتدلت مشيته.

التفت إليّ متثبّتا وإن بدا وسنانَ على نحو لا يناسب نشاطه الذي عاوده. قال لي مستأنفا حديثنا السابق معلّقا بسخرية على سؤالي السابق:

- «لا تعرف؟؟؟ أتتبَهْلَلُ ؟؟ كلّ الناس يعرفون؟».

- «إلاّ أنا..حقا لا أعرف...».

(1) اسم نبتة الخيار في الدارجة التونسيّة.

مكتبة الفكر الجديد

خفت أن تكون له في الحديث الذي بيننا اليد الطولى فأضفت في حزم:

- «لماذا أخفي عليك ما أعرفه؟ إمّا أن تواصل حديثك وإمّا أن أتركك وأذهب...».

أخذ كلامي على محمل التهديد من دون أن يعلّق عليه. كنت أعرف نفسيّة هذا الرهط من البشر: إذا أحسّ بأنّك في حاجة إليه تعمّد التمنّع واستشعر سلطة عليك يصرّفها بطريقة غبيّة تسيء إليك وإليه. ولا حلّ إلاّ أن تحافظ على أسبقيّتك عليه وإلاّ استضعفك. وكنت محقّا في ما حدست.

الانتقام! أرادت مجموعة من «البلو أند غولدن» الانتقام من باغندا بعدما أهانها بحركته غير الأخلاقيّة. وضعوا خطّة محكمة لتتبّعه من دون أن يتركوا أثرا. كلّفوا عددا منهم بمراقبة حركاته وسكناته. يحضرون تمارين فريق الآمال. يتبعونه إلى بيته على درّاجات ناريّة. فقد أصبح باغندا، بتعليمات من عماد بلخوجة، لا يقضّي اللّيل مع زملائه من فريق الكبار في الفندق. تلصّصوا عليه في حانوت ميكانيكيّ الدرّاجات صديقه حيث عاد للسهر والسكر وتعاطى «الزطلة». عرفوا منْ يصاحبه ومنْ يرافقه. كانوا يعترضونه زاعمين أنّهم يريدون منه توقيعا أو أخذ صورة تذكاريّة. طيلة أسبوعين أو أكثر راقبوا البرنامج اليوميّ لباغندا.

اكتشفوا أنّه لا يكون وحيدا إلاّ مساء السبت حيث يهجر الحومة وأبناء الحيّ ليذهب إلى «البرّاكة» في المرسى. فعل ذلك يومي سبت متتاليين. وذهب مرّة يوم جمعة إضافة إلى السبت. تفطّن إلى ذلك «عمّار 404» وهو حمّال في «باب الخضراء» ينقل الأدباش والسلع والحيوانات في شاحنة الـ404 المغطّاة التي يمتلكها. وهي في الحقيقة أكثر من شاحنة للعمل:

مكتبة الفكر الجديد

فقد استُخْدِم صندوقها الخلفيّ الكبير المغطّى غرفةً تؤجّر للباحثين عن اللذّة كلّما عثروا على فتاة ليل. واستُعْمِل حانةً متنقّلة إذا ضاقت المحلاّت المخصّصة لذلك بالخلق. وجعله عمّار ولد فطّومة حجرة يستريح فيها من تعب اليوم إذا طردته من البيت فطّومة بائعة الكسكروت والبيض المسلوق وخبز الطابونة على عربتها المتجوّلة. كانت امرأة صعبة المراس دعِرة عنيفة لا تقلّ تقلّبَ مزاجٍ وسرعةَ انفعالٍ وعنجهيّةً عن ابنها إذ يصدق عليهما المثل القائل هذي العصا من تلك العصيّة.

لم يكن عمّار 404 عضوا في «البلو أند غولدن». فهو أكبر منهم سنّا، ولكنّه بحكم علاقته المتينة بتوأم روحه في الإجرام وبيع «الزطلة» سابقا حمّادي النمس منشئ «البلو أند غولدن» كان الجميع يعرفونه ويهابونه ويلتجئون إليه في كلّ ما يتّصل بتمويل العصابة. فهم الكثيرون منذ البداية أنّ شاحنة نقل البضائع من تمويل حمّادي النمس ويقسّمون مداخيلها أقساطا ثلاثة: قسطا لمصاريف الشاحنة وقسطين مناصفة لصاحب رأس المال وللسائق.

أقلّت وسيلة النقل، وهي على ملك حمّادي النمس، الأشخاص الذين اعتدوا على باغندا. كان عمّار 404 ولد فطّومة صاحبة عربة بيع اللّمجات، هو السائق الذي شارك في الجريمة. ولكن لا أحد يعرف من ضرب باغندا ولا من اعتدى عليه بالموسى في الرقبة والظهر ولا من دفع السيّارة إلى منحدر سيدي بو سعيد، قريبا من «البرّاكة»، ليتركها تنحدر عساها تنقلب بباغندا أو تصطدم بسيّارة أخرى أو بحائط أو حاجز ليموت سائقها.

ولئن نجحوا في ذلك فإنّ ما خطّطوا له من قتل لباغندا وما نفذوه متوهّمين أنّه سيكون في عداد الأموات لم يتمّ بالصورة التي أرادوها. اصطدمت سيّارة باغندا بإحدى الأشجار الموزّعة على جنبتي الطريق يمينا ويسارا. ومن رحمة القدر أنّ «الغولف» متينة صلبة.

مكتبة الفكر الجديد

أخرجَ أفراد الحماية المدنيّة باغندا من السيّارة التي استحالت كبّة من حديد بعد أن استعملوا قاطعات الحديد الآليّة وأنقذوه من موت محقّق. نعم، كاد باغندا يهلك من شدّة الصدمة ولكنّه خرج من هذه المكيدة الحقيرة بأخفّ الأضرار مقارنة بما كان يمكن أن يقع، أو بما خطّط له الأنذال: كسور في الحوض والضلوع والرّجل أقعدته نهائيّا على كرسيّ متحرّك لينطفئ ضوء النجم الشاب الصاعد وينطفئ معه بريق جوهرة من أنفس ما أنجبت أرض تونس الخضراء.

تفاصيل جديدة في الإسطبل! أكل «شدلون» صحفة اللبلابي[1] بشراهة بل قل ازدردها ازدرادا ففرغ من الأكل في لحظات دون أن أُتمّ صحفتي. لاحظت أنّه كمن ابتلع لسانه فظننه، بادئ الأمر، جائعا لا يجمع بين الأكل والكلام، والقاعدة عندنا في الحيّ إذا حضر الطعام حرّم الكلام. لكنّه واصل صمته وأخذ يتلفّت يمنة ويسرة. فباغتّه بسؤالي:

– «بلعت لسانك في باب الجديد؟ طبعا أنت خائف من الزرقوني...»

ارتبك قليلا وقد ذهب سكره تماما. ردّ في همهمةٍ وتلعثمٍ مطأطئا رأسه محرّكا سبّابة يمناه نافيا:

– «أنا أخاف من الرزقوني؟ أنت لا تعرفني..يا أستاذ..»

– «إذن لماذا سكتّ منذ وصولنا إلى هنا؟»

– «كنت جوعان... كنت آكل... انتظر قليلا فمَلَكُ الموت يمهل قبل قبض الروح...»

كان لا بدّ لي أن أجد له مكانا مريحا يخرج فيه ما تبقّى من أخبار في جرابه. فكّرت في غرفتي بالطابق العلويّ من بيت عائلتي بباب

(1) أكلة شعبيّة في تونس تعدّ بحبوب الحمّص الذي يطبخ في الماء.

مكتبة الفكر الجديد

الجديد، ثمّ تراجعت فلم أكن متأكّدا من ردود فعل هذا الأخرق الأرعن ومدى توقيره لنواميس البيت والتزامه بالهدوء فيه خصوصا في تلك الساعة المتأخّرة. اقترحت عليه أن نذهب إلى بيتي ببارِدو فوجده بعيدا. ولكنّ حرصه على أن يبرز شجاعته الكاذبة وتحدّيه للزرقوني ووشاته المنتشرين في الأحياء القريبة جعله يدعوني إلى بيته. وكلمة بيت هنا على سبيل المجاز. فـ«شدلون» مقطوع من شجرة لا يُعرف له نسب. عرفت يومها أنّه يقطن في مخزن كان من قبل إسطبلا على الأرجح يُبِيتُ فيه أحد أعيان باب الجديد جوادَه. ما إن دخلناه حتّى امتلأت خياشيمي برائحة الرطوبة والعطونة النتنة. فالجدران مقشّرة ولا نوافذ في الإسطبل الذي تراصّت فيه الأدباش. أجلسني على سريره الحديديّ الذي يعشّش فيه البقّ والبرغوث ولا شكّ. أحسست بمفارقة عجيبة تخترق عقلي ونفسي طولا وعرضا. أنا اليساريّ ابن العائلة البلديّة الذي يدافع عن البروليتاريا والفلاّحين والفقراء والمساكين ينزعج من بعض الروائح في بيت عامل في مقهى! استعصمت بحبل الصبر على مكروه الروائح ووطّنت النفس على تناسي بليّة ضيق المكان وفساده. طلبت من «شدلون» أن يعود إلى حكايته متعمّدًا استفزازه بالقول إنه إذا كان خائفًا من الإفصاح عن بقية الحكاية فلن ألومه.

نبّهني إلى أنّ هذا الأسلوب في التأديب غير معهود لدى عصابة «البلو أند غولدن» مهما تكن فداحة الجرم الذي ارتكبه باغندا في حقّهم. إنّهم ملتزمون في ما بينهم بمواجهة رجال الأمن فحسب لأنّهم يذلّونهم عندما يذهبون إلى الملاعب ويعتدون عليهم إذ يعتبرونهم مشوّشين فيسعون إلى افتكاك طبولهم وأبواقهم ونفيرهم. وكثيرا ما سخروا من الألوان التي يزينون بها وجوههم أو يفتكّون مِنْ بين أيديهم رايات الاتّحاد ومِنْ على أعناقهم الأوشحة التي تحمل ألوان الفريق وشعاره. كانت خطّة مبيّة حُشر فيها أفراد من «البلو أند غولدن» بتدبير ممّن حرّض

مكتبة الفكر الجديد

على الهجوم على باغندا. ومن يكون غير منير الزرقوني تنفيذا لتعليمات صادرة من جهة أخرى أستبعد أنّ تكون عماد بلخوجة. أوحى الزرقوني للأفراد الذين دسّهم وشاةً في «البلو أند غولدن» بعدم السكوت على إهانة باغندا. أكّد لهم استياء عماد بلخوجة ممّا فعل بدليل أنّه أنزله إلى فريق الآمال ومنعه من التدرّب مع الكبار والبقاء في الفندق بعد التمارين وهو يريد التخلّص منه بأيّ شكل من الأشكال. كانت التلميحات واضحة: «لن يدافع عنه ولن يتتبّع من يثأر لشرف الجماهير عموما ولشرف العصابة خصوصا».

كان «شدلون» شاهدا على التحريض وسمعه بأذنيه الإثنتين من الزرقوني. تفطّن إلى أنه سمع كلّ شيء فحذّره من الحديث في مسألة الاعتداء على الجوهرة السوداء. فهم أنّ أيّ كلام من هذا النوع سيثبت ولا شكّ تورّطه في ما حدث لباغندا. استحلفني «شدلون» بأغلظ الأيمان ألاّ أعيد ما قال لأحد لأنّ الشهود الذين سمعوا الزرقوني شاهدان ثالثهم هو. وهو يعتبر أنّ الآخرَين، وأحدهما عمّار 404، مشاركان في الجريمة ولن يصدّق الزرقوني، لو بلغه النبأ، أن يكونا مصدرَ الخبرِ.

حديث خرافة يا أمّ باغندا. وأنا عائد إلي بيتي بنهج البرتقال في باردو مستقلاّ سيّارة أجرة كنت أفكّر في ما قاله «شدلون» مخفيا ابتسامتي على السائق حتّى لا يظنّ أنّ بي مسّا من الجنون أو أنّني، في أحسن الأحوال «مَزْطُول».

استغربت بادئ الأمر أن يكون مكان الحادثة بالقرب من «البرّاكة» أو في محيطها. فرواية «شدلون» هي الرواية الوحيدة التي لا تذكر جهة قمّرت و«البحر الأزرق» رغم أنّ الروايات جميعا تتفق على أنّ باغندا كان خارجا من ملهى ليليّ.

مكتبة الفكر الجديد

عجبت كذلك من الدافع إلى الاعتداء. فنحن أمام محاولة قتل عمد بأتمّ معنى الكلمة وإن لم تؤدّ إلى موت المعتدى عليه. فهل يكفي سلوك باغندا المشين للتخطيط لقتله والشروع في ذلك؟ ثمّ نحن أمام عصابة بكلّ ما في الكلمة من معنى وأمام تنظيم محكَم ومراقبة ووسائل لوجستيّة تليق بالعصابات المنظّمة. فهل يكفي الانتماء إلى مجموعة أنصار من «الأولتراس» حتّى تمتلئ القلوب بهذا القدر من الحقد المؤدّي إلى الشروع في جريمة القتل والقضاء على لاعب شابّ موهوب؟

وإذا تركنا هذا جانبا فإنّ دور منير الزرقوني الذي ركّز عليه «شدلون»، واعتبره سرّ الأسرار في روايته، لم يكن واضحا تمام الوضوح. فما قاله عنه لا يعدو أن يكون شبهة، مجرّد شبهة، أو هو قرينة على التحريض ضدّ باغندا أكثر ممّا هو قرينة على المشاركة في الجريمة أو العلم بها أو الدعوة إلى اقترافها. وإذا صحّت المعلومات عن دور منير الزرقوني فالأرجح أنّ الدافع الظاهر الذي استغلّه هو إساءة باغندا للجمهور. استند إليه ليحرّض عصابة من مجموعة «البلو أند غولدن» على ارتكاب جريمتهم خدمة لأجندا أخرى خفيّة لا يستبعد أن يكون صاحبها هو عماد بلخوجة نفسه. فلا ننسى أنّ باغندا خالف تعليماته وذهب إلى حفل ختان أقامه منافسه عياض الجزيري وأنّه تفطّن إلى محاولته الالتحاق، من دون علم أيّ من أعضاء الهيئة المديرة، بالفريق السويسري «أف. سي. زوريخ» وربّما الالتحاق بفريق آخر أوروبي أو خليجي. فالثابت أن علاقة باغندا بفريقه عموما وبعماد بلخوجة خصوصا قد توتّرت توتّرا شديدا منذ أن طالب في ما يبدو بمراجعة عقده الذي يربطه بالفريق وتحسين وضعيّته. وهو أمر مفهوم من شابّ تفطّن إلى أنّه أصبح معبود جماهير كرة القدم في تونس من أحبّاء الاتّحاد ومن غير أحبّاء الاتّحاد. ورغم ذلك هل بلغ الشرّ بالناس هذا المبلغ؟ هل كان القصد مجرّد تأديب شاءت الصدف أن ينتهي إلى محاولة قتل؟ ما الذي وقع بالضبط؟.

مكتبة الفكر الجديد

«بـرومسبور» أولاد الطليانة

مكتبة
الفكر الجديد

ضربة الجزاء التاريخيّة. كلّف المدرّب زينهو باغندا بتنفيذ ضربة الجزاء في المقابلة الحاسمة التي جمعت فريقه الحالي بفريقه القديم «شبيبة الملّاسين». دعاه إلى خطّ التماسّ. همس في أذنه قبل التوجّه إلى منطقة الجزاء بكلام. كانت المقابلة في ثوانيها الأخيرة. أطبق الصمت على ملعب الشاذلي زويتن الذي لم تكن مدارجه ممتلئة. وحتّى شباب «البلو أند غولدن»، جلّهم في الواقع، توقّفوا لأوّل مرّة في تاريخهم عن التشجيع مخالفين قواعدهم وأصول عملهم داخل الملاعب.

لم تكن المقابلة تمثّل رهانا بالنسبة إلى الاتّحاد التونسيّ فقد قام بدورته الشرفيّة منذ جولتين أو ثلاث. لا منافس له منذ تقلّد عماد بلخوجة الرئاسة. كانت البطولة الثالثة في رصيد الفريق ورصيد رئيسه الشابّ منذ تولّيه مقاليد النادي في شهر جويلية من سنة 1984. أمّا فريق «شبيبة الملّاسين» فكان التعادل يكفيه للبقاء بالقسم الأوّل بعد احتساب فارق الأهداف. لذلك بقدر ما حضرت جماهير الشبيبة، على قلّتها، بكثافة، فإنّ جماهير الاتّحاد، وهي مطمئنّة على اللّقب، لم يكن التعادل المنشود يقلقها. فالعلاقة بين الفريقين والجمهورين جيّدة جدّا. فكنت تجد محبّا للشبيبة هو في الآن نفسه من أنصار الاتّحاد وإن كان العكس

مكتبة الفكر الجديد

غير صحيح. والصلة بين الفريقين وطيدة منذ مجيء الرئيس الشاب للاتّحاد. وها هي روزنامة المباريات شاءت بأن يردّ الاتّحاد بعض الدين للشبيبة على ما قدّمته من خدمات. وفي الواقع كانت الألسن الخبيثة تقول دائما إنّ الروزنامة يضعها عماد بلخوجة ويفرضها على الجامعة التونسيّة لكرة القدم فترضخ لمشيئته بعد أن تنظر في مقترحات كثيرة عادة ما تجد من يرفضها من الفرق الصغرى المتواطئة مع رئيس الاتّحاد. ففي هذه الجولة الأخيرة التي نتحدّث عنها نجد الفرق الكبرى تلعب مباريات تعتبر في العادة صعبة. إذ كان الترجّي في مباراة دربي مع النادي الإفريقيّ. وتعتبر مباراة الاتّحاد التونسيّ وشبيبة الملّاسين كذلك مباراة دربي. ولكنّ جميع فرق العاصمة تتمنّى أن يكون لقاء «الدربي» مع الشبيبة. وممّا يدلّ على خبث بلخوجة في فرض الروزنامة في ذاك الموسم الكرويّ 1986 - 1987 (بطرق ملتوية يطول شرحها!) هو أنّ المنافسَيْن المحتمَلَيْن على اللّقب وجدا نفسيهما في آخر جولة مع الدابتين السوداوين اللّتين كثيرا ما يخسران معهما حتّى في ملعبهما. فالنادي الصفاقسي يلعب ضدّ محيط قرقنة والنجم الرياضيّ الساحلي ضدّ اتّحاد المنستير. وقد كان كلّ من النجم الساحلي والنادي الصفاقسي في المرتبة الثانية بعد الاتّحاد التونسيّ أمّا الترجّي والإفريقي فكانا في المرتبة الثالثة.

ادّعى جميع العارفين بخبايا الاتّحاد من المداومين على حضور التمارين وتقصّي الأسرار أنّ توصية زينهو كانت واضحة لباغندا. «لا تسجّل ضربة الجزاء». كان زينهو قد تركه في مقعد الاحتياطيّين صحبة لاعبَين أو ثلاثة من الدفاع والوسط وأدخل فريق الآمال. الجميع كان متأكّدا من أنّ الاتّحاد لن ينتصر في تلك المباراة وأنّ النتيجة لن تخرج عن فوز الشبيبة أو التعادل. ورجّحت الأغلبيّة التعادل لأنّ انتصار الشبيبة سيكون دليلا قاطعا لدى الفرق الأخرى على أنّ الاتّحاد قد باع المباراة

مكتبة الفكر الجديد

بما ينافي الروح الرياضيّة ويخلّ بالشرف الرياضيّ. وتحسّبا لاحتمال الهزيمة أنزل زينهو فريق الآمال زاعما للصحافة آنذاك أنّ الفريق الأوّل يحتاج إلى شيء من الراحة والتركيز نظرا إلى أنّ المنافسات الإفريقيّة قد أنهكت جلّ اللاّعبين. وأضاف بلخوجة في تصريح تلفزيّ أنّ المسألة تعود إلى إتاحة الفرصة لجميع اللاّعبين لإبراز قدراتهم وتعزيز الفريق بمن هو في حالة استعداد وقدرة على العطاء والإضافة مكرّرا سمفونيّته المعروفة: «الاتّحاد أكبر من أيّ لاعب ولا وجود لنجوم في الفريق فالنجم الوحيد هو الأداء الجماعيّ الذي يجمع بين جماليّة اللّعب والفرجة والنجاعة والروح الانتصاريّة».

والغريب أنّ باغندا رغم دخوله معوّضا سبق له قبل الحصول على ضربة جزاء أن سجّل هدفا ألغاه الحكم. فقد قام بحركة رشيقة مدوّخة. قفز في الهواء لاستقبال توزيعة جانبيّة من يمين الملعب وبطريقة بهلوانيّة مدهشة قذف الكرة برجله اليسرى في اتجاه المرمى. انسابت الكرة من الزاوية اليمنى للحارس الذي لم يحرّك ساكنا وتابعت نزولها مع العارضة المائلة داخل الشبكة لتنتهي على العشب ثابتة كشجيرة مغروسة. لكنّ الحكم صفّر مخالفة لصالح مدافع كان قرب باغندا ولم يشاركه القفز لإبعاد الكرة لا بالرأس ولا بالرجل ولا حتّى باليد. ولو وقع هذا الإلغاء للهدف في مباراة أخرى مصيريّة لقُلِب الملعب رأسا على عقب ولنزلت الجماهير لتفتك بالحكم. غير أنّ الجميع يعلم أنّه يمنع على الاتّحاد أن ينتصر ويمنع على الشبيبة أن تنهزم.

ورغم ذلك انهزمت شبيبة الملاّسين وانحدرت إلى الدرجة الثانية بسبب لاعبها السابق الغزال الأسمر الذي أهدته إلى الاتّحاد منذ سنوات ثلاث! فالهدف الذي ألغاه الحكم بدا مصادفة لم يقصد إليها باغندا. فمثل تلك الحركة وقذف الكرة، وهو يقفز في الهواء ملتفتا إلى جهة وسط الميدان، لا يدلاّن على نيّة التسجيل. كانت حركة رشيقة مرتجلة

مكتبة الفكر الجديد

تخرج عن قواعد اللّعبة وعن الفنيّات التي يمكن أن يتوسّل بها اللاّعبون لتسجيل الأهداف.

أمّا ضربة الجزاء فأمرها محيّر حقّا. إنّها غريبة أخرى من الغرائب التي لا تقع في ملعب كرة قدم إلاّ كحادثة يسجلها التاريخ. تقدّم باغندا بهدوء ولا تبدو عليه أمارات الحماس لتسجيل ضربة الجزاء. توقف قبل قذف الكرة ثمّ بتمهّل ركلها بمقدّم الرجل اليمنى (كان من القلائل الذين يحسنون اللعب بالرجلين). اصطدمت الكرة بالعارضة الأفقيّة من الجانب الأعلى فطارت في الهواء كأنّها قذيفة من مدفعيّة. صرخ الجمهور فرحا بإخفاق باغندا في تسجيل الهدف. سقط الجوهرة السوداء على أرضيّة الملعب واضعا رأسه بين يديه متصنّعا التحسّر على إهدار ضربة الجزاء. ركع حارس المرمى رافعا يديه إلى السماء شاكرا المولى الذي رحم به وبفريقه ونجّاه من التدحرج إلى الدرجة الثانية.

لم يدم تجوال الكرة في سماء منطقة الستّة أمتار إلاّ ثواني توقّف بعدها تحسّر باغندا وشكر حارس المرمى للمولى وفرح الجمهور ليجد الحاضرون في المدارج وفي مقعد الاحتياطيّين وعلى حواشي الملعب أنفسهم شهودا على ما لم يخطر لهم على بال. فقد ارتطمت الكرة بأرضيّة الملعب في منطقة الستّة أمتار قرب الخط النهائيّ للمرمى لتستقرّ بعد ارتطامة واحدة في الشباك. عندها اضطرّ الحكم لتصفير الهدف ووضع الكرة في النقطة البيضاء وسط الملعب.

أعلن الحكم عن استئناف اللّعب رغم انتهاء التوقيت الرسميّ للمباراة. أضاف عشر دقائق وهميّة من الوقت المبدّد. لم تنفع الدقائق العشر. كأنّ لاعبي الشبيبة شلّت أرجلهم. لم يتمكّنوا من الوصول إلى منطقة الجزاء التابعة للاتّحاد التونسيّ. كانت تمريراتهم خاطئة توجّه إلى المنافس بشكل لا يصدّق وتذهب توزيعاتهم أدراج التسلّل أو التماس بل كاد أحد اللاّعبين يسجّل هدفا ضدّ مرماه في الدقيقة الأخيرة من الوقت

مكتبة الفكر الجديد

المبدّد. كان عنوان إحدى الصحف الأسبوعيّة تعليقا على الريبورتاج الذي نقلت فيه المباراة: «**شبيبة الملّاسين: الفريق منكود الحظّ**».

الطمع... الطمع. دارت هذه المباراة التي نُكبت فيها شبيبة الملّاسين في بداية شهر جوان 1987 قبيل مباراة كأس تونس بأسبوعين وقد جمعت الاتّحاد التونسيّ بالترجيّ الرياضيّ التونسيّ فكانت «دربي» آخر بين فريقين بالعاصمة انتهى بانتصار الاتّحاد بهدف مقابل صفر. وممّا يذكره التاريخ أنّ الأهداف التي سجّلها باغندا في تلك السنة في مختلف المباريات على الأصعدة الوطنيّة والمغاربيّة والإفريقيّة قد ناهزت الخمسين هدفا منها حوالي ثلاثين هدفا في البطولة. ولكنّ الصحافيّين المغرَمين بالإحصاءات كثيرا ما يتجاهلون هذا الرقم القياسيّ الذي لم يحقّقه أيّ لاعب تونسيّ من قبل عبر تاريخ الكرة في بلادنا. فترى «حاسوب كرة القدم التونسيّة» المعلّق الرياضيّ عبد الوهّاب الدرويش يكرّر على مسامعنا أنّ عبد المجيد التلمساني لاعب الترجّي الرياضيّ التونسي هو أكثر اللاّعبين تسجيلا للأهداف متغاضيا عمّا حقّقه باغندا من سبق كما لو أنّه يتعمّد محو اسمه من تاريخ كرة القدم التونسيّة. إنّهم يريدون تزييف تاريخ كرة القدم وتركيب ذاكرة لها جديدة مبتورة على المقاس. ولست أدري لمَ يفعلون ذلك؟ أهو من باب الخوف من عماد بلخوجة؟ أإلى هذا الحدّ يتدخّل لاستصفاء ما يعجبه وحجب ما لا يروق له؟ نعم لقد رأيت بأمّ عيني وسمعت بأذنيّ ما فعله عماد بلخوجة جرّاء خبر عن باغندا نشرته في الصحيفة كسبق صحفيّ فإذا به يمنع على الجريدة التي أشتغل فيها الإشهار ويحرّض أصحاب رؤوس الأموال ضدّها فيحصل في نهاية الأمر على اعتذار عن قولنا الحقيقة في مقال يمتدحه كتبه أحد الصحفيّين المرتزقة المتعيّشين من فتات الموائد.

يبدو أنّ الجميع، بمن فيهم باغندا، مثل عزّ الدين الجعايبي

مكتبة الفكر الجديد

المسؤول عن صفحات الرياضة في جريدتنا، يلهثون وراء الفتات ولو كلّفهم ذلك التصرّف بوضاعة ومهانة. فممّا يعرفه الوسط الصحفيّ عن عزّ الدين الجعايبي أنّه كان يشتغل صحفيّا ولكنّه في المساء يُشاهَد في أحد المطاعم الحانات التي تملأ الأنهج الخلفيّة لشارع الحبيب بورقيبة. يراه الداخل إلى مطعم «كوسموس» يحتسي ما تيسّر من القوارير الخضر أو بنات العنب البيضاء والورديّة والحمراء ويأكل من لذيذ الطعام جالسا على طاولة صغيرة يسجّل على النُدُل الطلبيّات ويستخلص منهم مقابل ما استهلكه هذا الحريف أو ذاك. وقد رأيته مرّات يشتغل قابضا للأموال. كان يشتغل مع صديقه صاحب المطعم مقابل عشائه وقارورة خمر لا غير. وفي الصباح يعود صحفيّا في أكثر الجرائد الفرنكوفونيّة احتراما ببلادنا.

لم أفهم ذلك وأنا صحفيّ شابّ ولم أتقبّله، ولكنّ سي عبد الحميد التميمي أكد لي أنّ الانحدار عمّ جميع الطبقات ولم تعد للألقاب والصفات معنى. فالأزمة تشتدّ في البلاد التي كانت على حافّة الإفلاس في حين يستشري غلاء الأسعار والتضخّم. كان على الصحفيّ كغيره من الموظّفين أن يتأرجح بين المـُثُل التي تدعوه إليها مهنته ومنزلته وبين ضغط الحاجة.

والحقّ أنّني لم أقتنع بما ذهب إليه سي عبد الحميد، على ما فيه من وجاهة غير خافية تأتي من شخص يعرف أمور البلد. لم أقتنع بذلك لأنّ ما فعله باغندا، إذا صحّ ما بلغني عنه، هو صورة أخرى من الطمع الذي يحرّك عزّ الدين الجعايبي.

تقول الأخبار المتناقلة حول ضربة الجزاء، إنّ باغندا تلاعب بنتيجة المباراة مع عصابة كانت في تلك الفترة تنظّم بصفة سرّيّة رهانا رياضيّا في العاصمة قبل أن تضع الدولة نظام الرهان الرياضيّ المعروف بـ«البروموسبور» (التنمية الرياضيّة). والغريب أنّ باغندا الذي أوفى

مكتبة الفكر الجديد

بالتزاماته مع العصابة حين سجّل ضربة الجزاء ضدّ شبيبة الملّاسين قد قتل نفسه من حيث لا يدري طمعا في بعض المال الذي كان سيجنيه. وهذه حكاية طويلة تتّبعتها ولملمت خيوطها بعد أن أوحى لي بها عمّ صالح الحجّام.

عمّ صالح الشيوعيّ. كنت، وأنا صبيّ، أصحب والدي، الحاج محمود العسلي، إلى حلّاقه بباب الجديد «عمّ صالح الشيوعي» كما كان يحبّ أن يسمّيه. لم أتساءل البتّة عن معنى كلمة «شيوعيّ» التي يصف بها أبي عمّ صالح إلّا حين بدأت أفقه الإيديولوجيّات وأنا في المرحلة الثانويّة. كان أستاذ التربية الإسلاميّة، وهو دستوريّ حرّ يرأس شعبة صغيرة بأحد الأحياء المجاورة لباب الجديد، يحذّرنا من ماركس وفرويد اليهوديَّيْن، ومن الماسونيّة والنقابيّين الكفرة، ومن جماعة الحبيب عاشور[1]. ولم يكن ثمّة ما يدعوني إلى التساؤل عن معنى هذا التحذير. كان عمّ صالح يلبس دائما جبّته التي يلقي نصفها على كتفه الأيمن فتظهر بدعيّته[2] وتحتها سوريّة[3] بيضاء كالحليب منتعلا بَلْغَته[4] كسائر الرجال المحترَمين في عائلتي. «بلْديّ» من قاع الخابية يوقف العمل إذا سمع الأذان ليصلي في مسجد «أبيّ محمّد» على بعد حوالي عشرين مترا من الدكّان. وكنت تسمع في الصباح وأنت مارّ من أمام دكّانه صوت «أبو العيون الشعيشع» أو «عبد الباسط عبد الصمد» يتلو القرآن الكريم.

كنت صغيرا، ولكنّني أذكر أصداء من النقاشات الحادّة في دكّانه

(1) زعيم نقابيّ تونسيّ شهدت تونس في فترة توليه قيادة الاتحاد العامّ التونسي للشغل أوّل إضراب عامّ منذ الاستقلال وذلك في 26 جانفي 1978.

(2) البدعيّة صدار بدون كمّين يغطّي الصدر ويلبس فوق القميص. وهو من لوازم الجبّة التونسيّة.

(3) السوريّة هي القميص.

(4) البلغة خفّ أو نعل مصنوع في العادة من جلد الماعز.

مكتبة الفكر الجديد

بين حرفائه وأصدقائه من الذين لا يأتون للحلاقة بل لتجاذب أطراف الحديث في السياسة. كانت الأصوات تعلو وعمّ صالح منهمك في حلاقة ذقن أو قَصّ شعر أو نمص وجه أو أنف بخيط من الخيوط التي تستعمل في الحياكة يلفّه بطريقة لم أدرك سرّها معتمدا على أسنانه ويديه لإزالة الشعيرات. تلك كانت ذكريات الصبيّ الذي يصحب أباه.

وحين كبرت لم أغيّر حلّاقي رغم اختياراتي الجديدة التي لم يحبّذها أبي أبدا. فقد بدا لي في آخر سنة من دراستي الثانويّة أن أعفي لحيتي وأطيل شعري تماشيا مع موضة أبناء جيلي وتقليدا بالخصوص للحية مَاركس. فصورة المناضل الماركسيّ لا تكتمل في ذهني إلاّ باللّحية رغم أنّ خصومنا من الإسلاميّين بلحاهم قد أفسدوا علينا شاراتنا وعلاماتنا التي أردناها مواصلة لسنّة رسول العمّال المضطهدين في العالم الرأسماليّ والتابع. ولكنّني لم أحبّ عطورهم القويّة التي تقتحم الأنوف اقتحاما رغم أنّها سمة مفيدة لمن يريد أن يميّز الإخوان من الرفاق تنضاف إلى علامة السجود الداكنة على الجبين.

ولمّا أصبحت أذهب إلى عمّ صالح الحلّاق منفردا بدأت أتحدّث إليه وأعرف بعض ما في صفة الشيوعيّ التي يناديه بها الوالد. كنت أجد بين صَلاَتِه وشيوعيّتِه تناقضا جعلني أتصوّر أنّ الصفة من باب المزاح. فسألته عنها يوما وكانت إجابته مفاجئة لي:

- «ألم تسمع بعبد الخالق محجوب؟».

لم أكن قد سمعت به فعلا. حدّثني عنه مطوّلا بإعجاب كبير على قدر السبّ المقذع للشيوعيّين العرب وللاتّحاد السوفياتي ولجعفر النميري الذي أمر باغتيال عبد الخالق محجوب سنة 1971. علّق بعد تفاصيل كثيرة:

- «إنّنا يا بنيّ نحتاج إلى فهم إسلاميّ خاص بنا للشيوعيّة، نحن

مكتبة الفكر الجديد

الذين نريد إقامة الاشتراكية في العالم العربيّ، فهي لا تناقض الدين. لقد قرأت ديننا الحنيف وقرأت ماركس ولينين في ترجمات «دار التقدّم» بموسكو ولم أجد تعارضا بينهما...»

أبديت استغرابي من تحليله وذكّرته بشعار ماركس «الدين أفيون الشعوب». وقف ينظر إليّ نظرة المتثبّت ويعبّ أنفاسا من سيجارة أشعلها للتوّ. توقّف عن معالجة شعري وأنا أنظر إلى وجهه من المرآة التي أمامي. وسألني:

– «يعلّمونكم في المدارس الأفكار الغالطة. فمن قال إنّ الأفيون أمر مشين؟ ألا تعرف أنّه كان علاجا للآلام المبرحة ولم يكن لهم في عصر ماركس غيره لتسكين الأوجاع؟ فماذا تريدون من الفقراء والمعدمين غير الاعتصام بحبل الدين؟ أفليس في الدين ما يطمئن النفوس المعذّبة في عالم بلا قلب؟ فما الدين إلاّ بعث للأمل في النفوس البائسة القلقة وإن هو إلاّ إحياء لمعنى التمسّك بالسعادة رغم تلك الأنهار من الدموع المكلّلة بالورد في انتظار غد أفضل وأجمل من دون أوهام أو دموع. قد يكون ماركس ملحدا لا يؤمن بخالق ولكنّ وصفه سليم، وأراه إيجابيّا، فالدين أمل في جنّة مقبلة في السماء. أمّا الشيوعيّة فأمل في جنّة ممكنة على هذه الأرض. لذلك جمعت الجنّتين ولم أر تناقضا بينهما... أنا أصلّي لأتغلّب على عالمنا البائس وأتغذّى روحيّا، وأكافح ليسود العدل دنيانا هذه، فأكون مؤمنا في الدنيا بعملي الصالح وفي الآخرة بتقواي وإيماني».

ومن طريف ما سمعته من عمّ صالح الحجّام، ولست أعلم إلى الآن أهو لقب له ورثه من آل الحجّام أم صفة مستمَدّة من مهنته، أنّه عبّر لي، مازحا، عن كرهه لماركس أكثر من مرّة لأنّ شعره كثّ ولحيته معفاة بما تسبّب تاريخيّا للحلاّقين مثله في خسائر كبيرة. ويقيس على ماركس صديقه فريديريك أنجلز. فكلاهما، غفر اللّه لهما، من ألدّ أعداء

مكتبة الفكر الجديد

الحلاّقين وقاطعي رزقهم. وبالمقابل لا يخفي إعجابه بيوسف ستالين كما يسمّيه معرّبا اسمه. فهو وسيم بلحيته المحلوقة وشاربيه اللّذين يتطلّبان حلاّقا ماهرا لرسم تموّجاتهما على نحو متقن وشعره الرسل متوسّط الطول وتسريحته الأنيقة. أمّا لينين وماو تسي تونغ فليس فيهما لمهنة الحلاقة خير كثير.

الكرة أفيون الشعوب. ذكّرت عمّ صالح يوما بتفسيره لعبارة أفيون الشعوب في كلام ماركس. أعدت عليه ما قاله لي منذ حوالي ثماني سنوات أو يزيد. كان قد أتمّ حفّ لحيتي ولكنّه لم ينزع من رقبتي اللّحاف الذي أحكم ربطه حولها. سألني:

- «أتعرف ما هو أفيون الشعوب اليوم؟».

فقلت له ضاحكًا:

- «هيا عمّ صالح أخبرني».

قال لي:

- «ألم ترَ إلى أبناء الحيّ ماذا يفعلون وعمّ يتحدّثون كلّ يوم؟ ألم تنظر إليهم يسيرون أفواجا نحو الملاعب حاملين الأعلام والرايات كأنّهم ذاهبون إلى حرب يتجنّدون لها مضحّين بأموالهم القليلة في سبيل مشاهدة نجومهم المحبوبين؟ ألم تلاحظ سكرتهم وهم يتجادلون؟».

وأضاف بنبرة جادّة:

- «ألم تلاحظ أنّ شعب الملاعب أكثر عددا من شعب الجوامع؟ الكرة اليوم هي أفيون الشعوب الموزّع بالعدل والقسطاس بين الخلق. نداءات الأحبّاء في الملاعب هي زفرة المعذّبين في عالمهم البائس. يستبدلون وهمَ خيباتِهم في الحياة بوهم انتصارات زائلة آملين الانتصار في مباراة أخرى».

كان هذا الحديث بعد حادثة باغندا بأيّام قليلة. فقد حافظت على

مكتبة الفكر الجديد

عادة قصّ الشعر وتهذيبه لدى عمّ صالح الشيوعي رغم سكني في ضاحية باردو. وكنت أحرص على تبادل الحديث مع عم صالح لأنّ دكّان الحلاّق وكالة أنباء أخرى تجتمع فيها المعلومات بحكم كثرة الزوّار وتنوّعهم وما يدور فيها من أحاديث. فتوجهت إلى عمّ صالح **الذي لا أعرف له غراما بالكرة يشبه غرامه بالسياسة بالسؤال عن باغندا** هكذا دون تخطيط مسبق أو تفكير متأنّ.

المال محطّم الرجال. كان تعليق عمّ صالح على ما وقع أنّ المال محطّم للرجال. خلت بادئ الأمر أنّ عمّ صالح سيحدّثني عن سبب الاعتداء على باغندا وما قد يكون بلغه من زائريه من الحرفاء وغير الحرفاء. لكنّه باغتني بسؤال لم أنتظره:

- «هل تعرف الأستاذ مصطفى الشريف المحامي؟».

- «تقصد الرئيس السابق للاتّحاد التونسيّ...».

- «بالضبط...».

طفق يحدّثني عنه. إذ كان زميل دراسة لأحد إخوة عمّ صالح في جامع الزيتونة المعمور. وكان خطيبا لَسِنا مفوّها مناضلا في صفوف صوت الطالب الزيتوني لكنّه ناصر بورقيبة في صراعه مع ابن يوسف. علمت منه أيضا أنّه من ذوي اللّسانين رغم انتمائه للزيتونة. ففسّر لي عمّ صالح أنّ الناس يتوهّمون أنّ الصادقيّين فقط هم الذين يتكلّمون الفرنسيّة في حين أنّ مصطفى الشريف من الذين لم يسعفهم الحظ للالتحاق بالصادقيّة أو العلويّة بحكم محدوديّة طاقة الاستيعاب في مناظرة الدخول إليهما. فهو من المدرسة الفرنسيّة العربيّة وعندما تعذّر عليه دخول الصادقيّة درس بالجامع المعمور مع أعلام من أمثال الشعراء أحمد اللّغماني والميداني بن صالح وعبد المجيد بن جدّو والروائيّين

مكتبة الفكر الجديد

محمّد العروسي المطويّ ومحمّد المختار جنّات والجامعيّين الحبيب الجنحاني وعبد الجليل التميمي. وكانت له صولات وجولات في الكفاح ضدّ الاستعمار في الجامعة الدستوريّة لتونس والأحواز بنهج قرمطّو التي كان يشرف عليها المرحوم علي الزليطني. أمّا عمّ صالح وأخوه فكانا في خليّة شيوعيّة يشرف عليها ابن حيّنا عبد الحميد بن مصطفى القيادي البارز آنذاك في الحزب الشيوعي التونسيّ.

ولكنّ الرعاع الذين جنّدهم بالمال عماد بلخوجة، ابن «بيّوع» الفرنسيّين حسب عمّ صالح، للتهجّم على وطنيّ غيور مثل سي مصطفى الشريف وإخراجه من رئاسة الاتّحاد التونسيّ لا يعرفون التاريخ ويجهلون معادن الناس، فهمّهم المال ولا شيء غير المال. فأين هي مدرسة الوطنيّة والنضال من هذه الحثالة التي تعيث في كرة القدم فسادا؟

الاتّحاد تاريخ ونضال. بدأ عمّ صالح يتحمّس. أحسست أنّ جذوة المثل العليا الّتي تربّى عليها قد استعرت فيه وأنّ نار الروح الوطنيّة اتّقدت. فهو شخص هادئ يتكلّم بتؤدة ورصانة، كثيرُ الاستماع ويحسن الكلام. وأكثر كلامه سخريةٌ مرّةٌ من كلّ شيء ونقد لاذع لكلّ ما هبّ ودبّ كبُرَ أو صغُرَ. وعندما فتحت له سيرة باغندا، شرع يسرد على مسمعي تاريخ الاتّحاد التونسيّ.

منه علمت أنّ تأسيس الاتّحاد سنة 1936، بُعيْد صعود الجبهة الشعبيّة في فرنسا، كان بتوصية من الحزب الحرّ الدستوري وبدعم من قياديّيه من أمثال زعيم الشباب علي البلهوان والدكتور الحبيب ثامر ومحمود الماطري وصالح بن يوسف والحبيب بورقيبة. لاحظوا أنّ الفريقين التقليديّين في العاصمة أصبحا مصدر انقسام حادّ في مدينة تونس. فالربض الجنوبيّ منها (باب الجزيرة وباب الجديد معقلا النادي

مكتبة الفكر الجديد

الإفريقيّ)، بأغنيائه المتحالفين مع أثرياء الساحل، يكنّ العداء للربض الشماليّ منها (باب سويقة والحلفاوين وباب سعدون) ببلديّته وجماهيره الشعبيّة والفقيرة. كان للصراع بين الربضين عمق تاريخيّ يُخفي عن عامّة المتحمّسين لهذا الفريق أو ذاك نعراتٍ مترسّبةً في لاوعي المدينة الجمعيّ. فقد مال أهل باب سويقة تاريخيّا إلى الشرعيّة الحفصيّة مقابل ميل أهل باب الجزيرة إلى الأتراك. فعمل الزعيم الشابّ، آنذاك، الحبيب بورقيبة على التوسّط، سنة 1935، بين الفريقين لتوحيدهما رياضيّا تحت لواء الحزب الدستوري الجديد. وحين أخفق في مسعاه ألحّ الدستوريّون على تكوين فريق جديد يمثّل جميع أبناء حاضرة تونس. إنّه فريق الأحياء التي لها جمعيّات وفريق الأحياء التي ليس لها جمعيّات. من هنا جاءت التسمية والشعار الأوّل للفريق قبل أن يصبح شعار الاتّحاد العام التونسيّ للشغل: «في الاتّحاد قوّة» مع يدين ممدودتين تتصافحان.

قارن عمّ صالح بين هذا الشعار وشعار «الخُمْسة التقليديّة» المسمّاة «كفّ فاطمة» أو «يد فاطمة» (ولها شكل كفّ مفتوحة تجلب السعد وتزيل مفعول الحسد). كان مساعدو عماد بلخوجة قد اتّخذوه رمزا لخمسينيّة الفريق سنة 1986 مصحوبا بعبارة «الخمسينيّة تبدأ الآن» و«خمسة وخميس على الاتّحاد» حتّى قبل أن يحصل الفريق على خماسيّة القرن كما يحبّ أنصاره أن يتفاخروا على الفرق الأخرى بإنجازات أبناء عماد بلخوجة. لم يرَ عمّ صالح في ذلك أيّ دلالة أخرى عدا الانتقال من معنى الاتّحاد الذي بدأ به الفريق ومفهوم الانسجام الوطنيّ إلى معنى النزعة الفرديّة.

كان ذلك تأويله الذي لم أحبّ أن أجادله فيه. فبقطع النظر عن الاختلافات في تحليل دلالة الشعارات فإنّ عمّ صالح كان يؤكّد بطريقته تحوّلا حقيقيّا بلغ مرحلة حاسمة في تاريخ كرة القدم التونسيّة. وهو تحوّل من جمعيّات كرويّة تعبّر عن قيم وطنيّة وتمثّل صورا من التماسك

مكتبة الفكر الجديد

الأهليّ إلى شركات يحكمها رأس المال وتتنافس في سوق مفتوحة يسيّرها القروش ولا مجال فيها للأسماك الصغيرة. إنّها سوق بلا قوانين لأنّ الدولة لم تشأ، أو لم تتفطّن، أو لا تريد أن تتفطّن إلى أنّ الدنيا تبدّلت ولم تعد قيم الزعيم الوطنيّة ومُثُله وأحلامه تستجيب لواقع الحال في الكرة وغير الكرة.

كانت المياه وقتها، في سنتي 1986 و1987، تتسرّب تحت قصر قرطاج لتخرّبه شيئا فشيئا على مرأى ومسمع من الجميع. كانوا ينتظرون سقوط القصر على ساكنيه. وكانت النزعات المتطرّفة في المجتمع والدين والسياسة والمال تتناسل وتستحكم. انتشر الانحراف والإجرام وتجارة المخدّرات حتّى عمّ الرعب القلوب وطلع أصحاب اللِّحى من المساجد والجوامع ومن الكشّافة والجامعات يطلبون ثأرا قديما ضدّ بورقيبة، عدوّ اللّه عندهم، صارخين «الشعب مُسْلم ولن يستسلم». سال لعاب الورثة المتكاثرين حول الزعيم الذي يقضي أغلب وقته في غيبوبة، وإذا استفاق أهدر بقراراته الخرقاء ما تبقّى من رصيده الرمزيّ في نفوس الناس. حالة الانهيار التي كان يعيشها الاقتصاد، حتّى اقترب موعد إشهار البلاد لإفلاسها، شجّعت المتسلّقين الذين يعيشون كالقُراد فوق جسد الجمل المنهك ويعملون على امتصاص كلّ قطرة دم ممكنة ليكوّنوا ثروات طائلة في قطاعات الخدمات والقطاعات غير المنتجة ومنها كرة القدم.

كان عمّ صالح وهو يحدّثني يُعْلي من شأن المثُل الوطنيّة ويلحّ على الدور الإيجابيّ للرياضة. ولكنّه كان، في نغمة مأسويّة خفيّة، متأكّدا من أنّ قوله لا مستقبل له، إذ لا يجد من أوهامه إلاّ ذؤابة مازالت تنوس بين عينيه وخيالا بعيدا يتراءى أمامه ولا يعرف متى يتوقّف هذا التيّار الجارف الذي ذهب بذلك التاريخ الوطني. لذلك أنهى كلامه في نغمة دينيّة لا تليق إلاّ بمثله شيوعيّا مؤمنا:

– «لقد انقلبت المفاهيم وتبدّلت الدنيا، نسأل اللّه حُسن المآل..»

مكتبة الفكر الجديد

أولاد الطليانة. لا يضيف هذا الكلام إلى الحكاية التي أحقّق فيها شيئا ذا بال. فالتغيير الهائل في فريق الاتّحاد بفضل المال ولأجل المال منذ مجيء عماد بلخوجة لا يحتاج إلى أدلّة. وكم مرّة أردت إرجاع عمّ صالح إلى موضوع باغندا فكان يستمهلني ليتمّ فكرته التي يرغب في بيانها لي خصوصا أنّ الحرفاء في ذلك التوقيت، حوالي الحادية عشرة والنصف صباحا، لم يبدؤوا في التقاطر على الدكّان.

وحين وصل عمّ صالح إلى ما يهمّني أكثر في التحقيق أصبح كلامه على وجه التقريب والتنسيب وهو إلى الإجمال أقرب منه إلى التفصيل. أرجع ذلك إلى أنّ مصدر معلوماته هو بعض الحرفاء الذين كان يمنع عليهم الحديث في كرة القدم لأنّها فسدت في تلك الأيّام. وأهمّ سبب للمنع، على ما فسّر لي، هو تجنّب المعارك الخطابيّة الطاحنة التي قد تندلع بين مناصري فريقَين متنافسَين.

ورغم ذلك فقد قدّم لي عمّ صالح فرضيّة غريبة عن الدافع للاعتداء على باغندا لم أسمعها من غيره واعتبرَها، بحسب استنتاجاته الشخصيّة، تنسجم مع الوضع الجديد للكرة التي صار المالُ دينَها. فلا يستغربنّ أحد أن يكون المال وراء تفسير كلّ ما يجري في البلاد بما في ذلك ما وقع لباغندا. قال لي عمّ صالح بلهجة الواثق:

- «ابحثْ عن المال تجد الجواب».

لم يكن هناك وقتها ما صار يُعرف بعد سنوات بـ«البروموسبور». ولم تكن تُعرف من الرهانات إلاّ الرهان على سباق الخيل. وهو في عرف حيّنا وعائلتنا قمار محرّم دينيّا. لم أعرف في العائلة الموسّعة إلاّ عمّ جوّادة بن عصمان يسلك هذه السبيل. كان يتابع جريدة «لابراس» وأخبار الخيول ويشتري في المساء من باعة الصحف بشارع الحبيب بورقيبة أو الحبيب ثامر صحيفة فرنسيّة مختصّة في سباق الخيل.

مكتبة الفكر الجديد

تتهامس نساء العائلة في جلسات «التقطيع والترييش[1]» وملء غرابيل «الحلالم»[2] أنّه فقد الجزء الأهمّ من ثروة عائلته التركيّة بسبب آفة القمار والرهان على الخيول.

لقد كان عمّ صالح الشيوعيّ أوّل من أعلمني بوجود شبكة من أبناء الحيّ والأحياء المجاورة تنظّم كلّ أسبوع طيلة الموسم الكرويّ رهانا رياضيّا شبيها جدّا بالرهان المسمّى لدى الإيطاليين «طوطو كالشيو». أكّد لي أنّ من استنبط الفكرة مجموعة من التونسيّين الذين اشتغلوا «كيمائيّين» في إيطاليا وعادوا مطرودين منها بعد أن استضافتهم السلطات الإيطاليّة لفترة من الزمن في سجونها. كانوا قد تعرّفوا إلى عالم المخدّرات والمال الفاسد والعصابات والقمار والرهانات الرياضيّة وغير الرياضيّة. وهؤلاء يسمّونهم في الحيّ بـ«أولاد الطليانة».

التنظيم العنقوديّ. كان حبلا من ذهب مدّه إليّ عم صالح. سألت مَنْ أثق به مِنْ أبناء الحيّ الذين لم يفارقوه البتّة فاطّلعوا على الوافدين الجدد وعرفوا سيرهم وطريقة عيشهم. فحيّنا بدأ منذ أواسط السبعينات يتغيّر حاله مثل المجتمع التونسيّ. غادرته جلّ العائلات البلديّة إلى أحياء جديدة واستقرّ في البيوت الخربة من حملهُمْ سيلُ النزوح من أريافهم إلى العاصمة والمدن بعد أن فتح الوزير الهادي نويرة البلاد على مصراعيها لرأس المال الأجنبيّ والتنافس الاقتصاديّ فهجر الناس الفلاحةَ وهجموا على المدينة بعاداتهم وأخلاقهم وفقرهم حالمين بالمال والعيش في الحواضر.

وسرعان ما تكوّنت في الحيّ مجموعات جديدة على أساس

(1) كناية عن الاغتياب.

(2) «الحلالم» أكلة تتكوّن من فتائل من العجين المرقّق تقطع قطعا صغيرة وتبسط على الغرابيل لتجفّف، وتستعمل عبارة «تقطيع الحلالم» كناية أيضا عن الاغتياب.

مكتبة الفكر الجديد

عشائريّ وقبليّ وجهويّ تركّبت على نوى قبليّة كانت موجودة منذ أمد في أرباض المدينة وأحيازها ولكنّها سرعان ما احتلّت منها القلب حتّى أصبح أهل تونس العاصمة هم الأقلّيّة فيها.

وكان لا بدّ، في هذا الخضمّ، من أن يعيش الناس بالسلب والنهب والـ«براكاج» أو السرقة أو القمار وما إلى ذلك من وسائل الحصول على المال مادام العمل القارّ أو الظرفيّ شبه منعدمَيْن.

ولكن يبدو أنّ أولاد الطليانة أوجدوا طريقة لم تعهدها البلاد للاستثمار في «الدين الجديد» وجعله موردا للربح والحلم بالثروة: إنّه الـ«طوطو كالشيو» التونسيّ أسوة بأصدقائنا الإيطاليّين في الضفّة المقابلة.

كان حمّادي النمس واحدا من هؤلاء الأبناء الأوفياء الذين نقلوا إلينا تقنيات الغربيّين في التسلية والرّهان على كرة القدم حتّى تكون البطولة التونسيّة، داخل الملعب وخارجه، مثل «الكالشيو» الإيطاليّ من حيث مستلزماتها وأدواتها ومستتبعاتها على الأقلّ، مادام الفارق في الأداء الكرويّ فارقا شاسعا. ولكن من سار على الدرب وصل.

بدأت الفكرة مع النمس وأترابه الذين طُردوا من إيطاليا. كان من المبادرين ولكنّه لم يتكفّل بالأمر لاهتمامه بمجموعة «البلو أند غولدن».

وضع تصوّرا عامّا ما انفكّ يتدقّق ويتجوّد بمرّ الجولات والرهانات. والفكرة واضحة عموما قوامها المراهنة على مباريات كلّ جولة مع مباراتين من «الكالشيو» الإيطاليّ. فبفضل قناة «الراي أونو» التي كان بثّها متاحا في تونس أصبحت البطولة الإيطاليّة في متناول الجمهور فرَقًا ولاعبين عاديّين أو نجوما وأهدافا خالدة وطُرُقًا في اللّعب. فكنت ترى الواحد من أبناء الأحياء يحبّ فريقا تونسيّا وآخر إيطاليّا، بل يمكن التكهّن بالفريق الإيطاليّ الذي يحبّه هذا أو ذاك من أبناء حيّنا

مكتبة الفكر الجديد

بمجرّد معرفة فريقه المفضّل في تونس والعكس بالعكس. فإذا كان من مناصري الترجّي فاعلم علما يكاد يرقى إلى اليقين أنّه يحبّ نادي روما. وإذا كان من أنصار الإفريقي فهو إلى «لازيو» أقرب. وإذا كان من المغرمين بالنادي الصفاقسيّ فهواه الإيطاليّ هو نادي «جوفنتوس». أمّا أبناء الاتّحاد فيجدون ألوانهم المفضّلة في نادي «بارما». ويتخاصم الأحبّاء، في المقاهي والأنهج حين يجتمعون في حواراتهم الصاخبة، على النوادي الإيطاليّة خصامَهم في الشأن الكرويّ التونسيّ.

ولئن نبتت فكرة الـ«طوطو كالشيو» التونسيّ في رأس حمّادي النمس فقد تكفّل بها عمليّا «بلها ولد الشنّوفي» و«رضا شلموط» و«عبد الباسط باولو» وثلاثتهم «باندية» في الحيّ تقاسموا أنهجه وحاراته وأزقّته ليبسطوا عليها سلطانهم ويمارسوا فيها نفوذهم ويكوّنوا لهم أتباعا وعصابات تحت إمرة كلّ واحد منهم. يشترك ثلاثتهم أيضا في أنّهم كانوا في السجون الإيطاليّة وعلّمتهم الغربة والأيّام والمحن والمصائب فنون الفتوّة واستعمال السلاح الأبيض والقبضات وأساليب الغَلَبة والهيمنة. كانوا مكروهين مرهوبين، يعتاشون ممّا يحصّلونه من أموال هي بمثابة إتاوات يقدّمها لهم عن طيب خاطر باعة الخمر خلسة أو «الزطلة» و«الحرابش»[1] مقابل حمايتهم من أشرار آخرين محتملين قد يفتكّون البضاعة أو يَفْتِكُون ببائعها، كما وقع من قبل مرّات كثيرة سالت فيها أمعاء على الأرض بطعنة غادرة أو غادر أحد الباعة الحياة الدنيا إلى ما هو خير وأبقى بسبب قرص مخدّر لا يملك القاتل ثمنه.

كان الاتفاق تامّا بين هؤلاء الرفاق الثلاثة خرّيجي السجون الإيطاليّة سواء في تقاسم السلطة في فضاء الحيّ أو في التخطيط للـ«طوطو كالشيو» التونسيّ. وضعوا تنظيما عنقوديّا. تشترك كلّ جماعة صغيرة من

(1) معناها في أصل الاستعمال «الأقراص» وهو صنف من الأدوية. وحين أصبح بعضها ممّا يؤثّر في الأعصاب يستعمل لغير غرضه العلاجيّ دلّت الكلمة على الأقراص المخدّرة.

مكتبة الفكر الجديد

عشرة أو يزيد في التكهّنات ويتشاركون في دفع معلوم موحّد يقدّمونه قبل إجراء المباريات بيومين إلى «باندي» المنطقة الذي يتكفّل بتبليغ ورقات التكهّنات التي قدّموها إلى جهة أعلى غير معلومة.

وقد تضاربت الروايات حول هذه الجهة. فمن قائل إنّ قصاصات التكهّنات والأموال تودع لدى عدل منفّذ لا يعرفه إلاّ «البانديّة» الثلاثة منظّمو اللّعبة ولا يتّصل به إلاّ «رضا شلموط»، ومن مؤكّد أنّ صاحب المقهى هو من استأمنته الجماعة، باتفاق مع حمّادي النمس، على الأموال المجموعة لأنّه ميسور الحال ولا يُنتظر منه الغدر. ولكنّ المرجّح عندي أنّ المنظّمين الثلاثة هم الذين يشرفون على جميع مراحل الرهان من توزيع قصاصات رسميّة عليها توقيعاتهم إلى جمعها قبل يومين من الجولة المعنيّة من رؤساء المجموعات المتنافسة إلى مقارنة النتائج بالقصاصات، فالإعلان عن الفائزين وتوزيع حصيلة المرابيح على من أصاب في تكهّناته.

وقد سألت عن هذه المشكلة والضمانات التي يمكن بها التثبّت من محصول المسابقة المالي ومدى الوفاء في توزيع المرابيح وعدد المشاركين. أمّا بعضهم فقد جعل العدل المنفّذ أو صاحب المقهى ضامنين لذلك، وأمّا من افترض أنّ «البانديّة» الثلاثة هم الذين يديرون العمليّة فقد أكّد لي أن لثلاثتهم نصيبا من المرابيح يبلغ الثلاثين بالمائة بمعدّل عشرة بالمائة لكلّ واحد منهم. وهو ما يجعلهم يتجنّبون المساس بقواعد اللّعبة خصوصا أنّ فتح الصندوق الذي توضع فيه القصاصات والأموال يتمّ بمحضر عدد من رؤساء المجموعات المشاركين بأموالهم في الرّهان. ورغم ذلك فلا وجود لضمانات حقيقيّة ولا شيء يمنعهم من التحايل على الرابحين بشكل أو بآخر. بيد أنّه لا مجال للحديث عن فساد أو سرقات فكلّ شيء يتمّ خارج القانون وكلّ الأطراف تجد ما تبحث عنه من تسلية وتنافس وحلم بالربح الذي وإن لم يصل إلى حدّ

مكتبة الفكر الجديد

تكوين ثروة فإنّه يجعل الجميع يعيشون حلما جميلا يملأ وقت فراغهم وينعش وجدانهم ولو بالرّهان الرياضيّ مثل الإيطاليّين.

لمّا تطوّرت هذه الشبكة وعمّت الأحياء كلّها بعد فترة لم تكن طويلة قام أولاد الطليانة بتكليف الثقات الذين تعاملوا معهم منذ البداية بأن يتولّوا الوساطة ضمن التوزيع الجغرافي للعبة. فما انفكّت رقعة الرهان تتّسع لتشمل الأحياء التي يسيطرون عليها. وهم يحصلون على نصيب محدود لكنّه معقول مقابل خدماتهم. وكان هذا المقابل أوفر على قدر تزايد عدد المشاركين فحرصوا على تكثير المساهمين في الرّهان.

الجواد الرابح. سرعان ما تكوّنت شركة، بأتمّ معنى الكلمة، تختصّ في الرهان الرياضيّ تفطّنت إليه السوق الرياضيّة الموازية قبل أن تتفطّن إليه الدولة مثلما تفطّن عماد بلخوجة وعدد من رؤساء الجمعيّات الكبرى إلى أنّ عهد الاحتراف حتميّ على الأبواب، فسبقوا القوانين وتردّد السياسيّين الذين يتّبعون في الاقتصاد سياسة ليبيراليّة ويقدّمون في خطبهم أنفسهم على أنّهم اشتراكيّون زيفا وبهتانا وضحكا على الذقون الغارقة في البؤس الاجتماعيّ والروحيّ.

وشخصيّا أتذكّر، وأنا طالب منخرط بالسياسة، الوزير الأوّل محمّد مزالي يؤكّد من أعلى منبر البرلمان، وقد سئل عن الاحتراف في كرة القدم، أنّ سياسة الدولة بأبعادها الإنسانيّة الأصيلة وحكومة «المجاهد الأكبر»، كما كانوا ينعتون الرئيس بورقيبة الرياضيّ الأوّل في تونس (وكان الأوّل في كلّ شيء عند الدستوريّين!)، لن يسمحا بأن يُسْتغلّ اللاّعب التونسيّ أبشع استغلال جريا وراء المال. كان يتكلّم بلغة العقل السليم في الجسم السليم وبمفردات المبادئ الأولمبيّة. ولكن يبدو أنّ جيل محمّد مزالي ومصطفى الشريف وأضرابهما قد أعماه تاريخ

مكتبة الفكر الجديد

الكفاح الوطنيّ عن رؤية الواقع الجديد بتعقيداته، ولم يفهم أنّ عقليّة فرنسا الرأسماليّة وأثرها العميق في البلاد خرجا من باب بنزرت[1] ليدخلا من أبواب أخرى عديدة ظلّت مواربة. غير أنّ الذين راهنوا على الجياد الجديدة ربحوا في المضمار وفي ما حول المضمار وظلّ **المقتاتون من فتات مائدة دولة الاستقلال ولحم الكفاح الوطنيّ يلوكون** علكة انتهت صلاحيّتها منذ أمد بعيد. لقد أصبح الأنذال أبطالا والخونة شرفاء والعملاء وطنيّين والمتسلّقون مسؤولين والانتهازيّون قياديّين. **فمن سرّه زمن ساءته أزمان ولكن هذه قصّة أخرى.**

أمّا قصتنا فالثابت فيها أنّ سوق اللاعبين شبه الموازية التي لا تدفع فيها النوادي الرياضيّة ولا يدفع اللّاعبون ولا الوسطاء الضرائبَ المتوجّبة عليهم صاحبتها سوق موازية للجماهير الرياضيّة من خلال «الأولتراس» وأخرى للرهان الرياضيّ. فكانت سلطة أولاد الطليانة لدى الحالمين بالمال لا تقلّ قيمة عن سلطة حمّادي النمس على «البلو أند غولدن» ولا عن سلطة عماد بلخوجة على الفريق. عصابات منفصلة متعايشة تصنع ثرواتها، على اختلافها حجما وقيمة، من حماسة اللاّعبين والمغرمين بكرة القدم. إنّهم دُويْبات على ظهر جمل يسير مغمض العينين إلى حيث لا يدري. تعدّدت الجياد والمضمار واحد وكلّ يعتقد أنّه الفائز في السباق.

الجولة الأخيرة وحسابات الحقل. لم يكن ثمّة شكّ، خلال الجولة الأخيرة من الموسم الكرويّ 1986 – 1987، في أنّ نادي الملّاسين، فريق باغندا السابق، سيتعادل مع الاتّحاد التونسيّ. فقد استقرّ في أذهان الجميع أنّ عماد بلخوجة سيمنح نادي الملّاسين هذه المباراة لإنقاذه من التدحرج إلى الدرجة الثانية.

(1) مدينة في شمال تونس شهدت جلاء آخر جنديّ فرنسّي من الأراضي التونسيّة في 15 اكتوبر من سنة 1963.

مكتبة الفكر الجديد

وهذا ما يسّر على المتراهنين في «برومسبور» أولاد الطليانة استخدام علامة التعادل بالنسبة إلى مباراة الملّاسين والاتّحاد. بل إنّ بعضهم ذهب في تكهّنه إلى أنّ بلخوجة سيبيع المباراة من خلال هزيمة ناديه بطل الموسم، فقامروا بوضع علامة الإيجاب في الأوّل لأنّ نادي الملّاسين هو المستضيف. وفي أوراق رهان أولاد الطليانة يمثّل رمز المساواة في الرموز الحسابيّة المعروفة علامة التعادل في حين أنّ انتصار الفريق المستضيف يكون بعلامة الجمع ويعتمد في التكهّن بانتصار الفريق الضيف على علامة السلب. ولكن لا أحد فكّر في وضع علامة السلب على أوراق الرهان! والعجيب في الأمر أنّ جلّ المباريات كانت واضحة تقريبا يكفي فيها اتّباع المنطق ومتابعة المباريات وأداء الفرق واستعدادات اللّاعبين حتّى يتمكّن المراهن من التوصّل إلى التكهّن بالنتائج جميعا. فقد كانت اللّعبة مكشوفة تقريبا. بل إنّ المتراهنين لم يكونوا يشكّون كثيرا حتّى في نتائج المباريات الثلاث الخاصّة بالنزول إلى الدرجة الثانية ويذهبون إلى أنّ نادي الملّاسين سيبقى بالقسم الوطنيّ وينزل فريقا الكاف والسكك. بنوا ذلك على واقع أنّ الفريق الوحيد الذي يكفيه التعادل للبقاء هو فريق الملّاسين. ففي جميع الصور الأخرى أي إذا تعادل الناديان المنافسان له للبقاء فإنّ الفرق في الأهداف المقبولة والمدفوعة طيلة الموسم سينقذه. أمّا في صورة انتصار الفريقين الآخرين وتعادل نادي الملّاسين فإنّ المباراة الفاصلة تصبح لا مناص منها. والحالة الوحيدة التي يؤول بها نادي الملّاسين إلى الكارثة هي الهزيمة أمام الاتّحاد وحصول مفاجأة من الكاف أو سكك الحديد الصفاقسي. وبهذا فالمطلوب للبقاء الانتصار أو التعادل ولا شيء غيرهما. وشعار اللّقاء بالنسبة إلى أبناء الملّاسين كما كتبت بعض الصحف في عناوينها: «**نادي الملّاسين يلاقي الاتّحاد تحت شعار: ممنوع الهزيمة**».

مكتبة الفكر الجديد

مَكَروا ومَكَرْنا... بدا كلّ شيء واضحا. واستسهل الكثيرون الرهان طمعا في الربح، خصوصا أنّ المباراة الإيطاليّة المنتَظرة في ذلك الأسبوع كانت سهلة نوعا مّا ومن البيّن أنّ ناديَيْ جنوة وبارما سيفوزان بها. فكثر عددُ المشاركين كثرةً أذهلت المشرفين على اللّعبة من أولاد الطليانة. **بلغ النصيب التقديريّ لكلّ واحد منهم عشرة آلاف دينار. فقد فاق ما** جُمع من مال المائة ألف دينار بقليل. وهو رقم قد يبدو لنا اليوم غير ذي بال، ولكنّه في تلك الفترة كان يمثّل ثروة كبيرة جدّا. فالأجر الأدنى في البلاد يناهز المائة دينار والأستاذ في المدارس الثانويّة لا يحصل إلاّ على ما يفوق بقليل المائتين وخمسين دينارا. سال لعاب أولاد الطليانة مثلما سال لعاب المتراهنين وإن عزف عدد آخر منهم عن المشاركة لأنّ الرهان لم يكن في تقديرهم صعبا ويمكن للجميع الفوز فيه. ولم تكن طريقة المشاركة واحتساب النتائج تسمح بالمراهنة بأكثر من إمكانيّة ثمّ إنّ أيّ خطإ في التكهّن يلغي الورقة آليّا. فالمطلوب هو الإصابة في التكهّن بجميع المباريات مع ذكر نتيجة مباراة جنوة ومنافسها في «الكالشيو». إنّها بِلُغة أبناء الحيّ كعكعة ينبغي ألاّ تقسم أو خبزة يمكن الاستفراد بها. فأهل البيت أولى من غيرهم شريطة أن تكون الأمور شفّافة حتّى لا يفقد أولاد الطليانة مصداقيّتهم وتغلق المخبزة مرّة واحدة ليجدوا أنفسهم جوعى. سيكونون كذاك الذي يملك دجاجة تبيض له كلّ يوم ياقوتة، لكنه قرّر أن يذبحها ليخرج من حوصلتها الياقوت كلّه مرّة واحدة.

شرع أولاد الطليانة في خطّتهم للاستيلاء بطريقة قانونيّة على حصيلة الأموال. ولكن لا مجال للغلط في الترتيب والإجراء.كان المطلوب معرفة نتيجة فريق جنوة وتحسّس الوضع في إيطاليا. لاحظوا أنّ جلّ المشاركين قدّروا أنّ جنوة ستفوز بهدفين مقابل هدف. غير أنّ حمّادي النمس أكّد أن المباراة مباعة لصالح منافس جنوة بضغط من بعض المتراهنين المتنفّذين في الـ«طوطو كالشيو». سرّب لهم النتيجة

مكتبة الفكر الجديد

المتداولة في أوساط كبار المتراهنين من الكيميائيّين الإيطاليّين بعد أن عَرَف أنّ حَكَم المباراة قد اشتُرِيَ لصالح منافس جنوة وسيمكّنه من الفوز بهدفين مقابل صفر. ثمّ إنّ حارس فريق «جنوة» مشارك في العمليّة وسيترك شباكه مفتوحة للقادرين على التسجيل في مناسبَتَيْن. وهو ما يعني أنّ النتيجة ستكون على عكس ما ذهب إليه جلّ المتراهنين في تونس.

وإن بدا الأمر مُطَمْئِنا من ناحية نتيجة «الكالشيو» فإنّ الوضع في تونس مختلف. وينحصر السؤال في كيف تكون نتيجة الاتّحاد ونادي الملّاسين مختلفة؟ من هو الحَكم؟ وهل يمكن شراؤه؟ وكم ينبغي أن يُدفع له؟ وهل يقبل هذا التلاعب بالنتيجة؟ وهب أنّه قبل فكيف يمكن له أن يجعل لاعبي الاتّحاد ينتصرون ويسجّلون أهدافا إذا كانت تعليمات عماد بلخوجة واضحة في الامتناع عن التسجيل في شباك الملّاسين؟

ألغيت هذه الفرضيّة ولم يتبقّ إلاّ التعويل على عماد بلخوجة واللاّعبين. أمّا عماد بلخوجة فيصعب التعامل معه لا لمكانته وموقعه في الفريق فحسب بل لأنّ حرصه على بقاء الملّاسين في القسم الأوّل يعود عليه بفوائد ماليّة أكثر ممّا ستدرّ عليه هذه المقابلة التي سينتصر فيها. لذلك ألغيت هذه الفرضيّة الثانية بأسرع ممّا ألغيت به فرضيّة شراء الحكم.

ظهر اسم باغندا مرشّحا في هذا التواطؤ التاريخيّ بين القائمين على الرّهان الرياضي. فهو من أبناء الحيّ الذين لا يعسر الاتّصال بهم بطريقة من الطرق رغم الحصار الذي يضربه عماد بلخوجة على اللّاعبين في فندق الفريق. وبما أنّ المطلوب هو الانتصار على الملّاسين والتضحية بهذا الفريق على مذبح الرّهان الرياضيّ، فإنّ باغندا هو الحلّ الذي لا يمكن أن ترقى إليه الشكوك. أليس هو هدّاف الفريق والبطولة وصاحب أكبر عدد من الأهداف في مغامرة الاتّحاد الإفريقيّة والمغاربيّة؟ أليست

مكتبة الفكر الجديد

مهنته التي يتقنها هي قلب الموازين في الملعب كلّما ظنّ الجميع أن الفريق يتّجه نحو التعادل أو الهزيمة؟ ألا تصنع رجلاه الأهداف في أوقات قاتلة بفنّ وسهولة ومرونة وإبداع لا يخطر على بال؟ فلم لا يسجّل في شباك الملّاسين؟

كان باغندا مناسبا تماما للخطّة المطلوب تنفيذها. ومن حسن الحظّ أنّ عماد بلخوجة كان قد أنزله إلى فريق الآمال وهو ما مكّن أولاد الطليانة من تجاوز عقبتين صعبتَيْن: فمن حَضَر التمارين أكّد أنّ الفريق الذي سيلعب المباراة ضدّ الشبيبة إنّما هو فريق الآمال بدلًا من الأكابر ولاعبو الآمال لا يُستبقوْن في الفندق.

كانت الشكوك في باغندا وفي بيعه للمقابلة ضعيفة جدّا. لا أحد تصوّر أنه سيرفض التسجيل في شباك فريقه القديم ويساهم في نزوله إلى الدرجة الثانية. ولكنّه أدرى من غيره، إذا قبل ما سيُطلب منه، بكيفيّة تقديم الأمر على أنّه محض صدفة ولا تدبير وراءه.

وما استغربه أولاد الطليانة حين اتصلوا بباغندا مسارعته إلى قبول المهمّة مشترطا عشرين بالمائة من محصول الرّهان في صورة فوز القائمة كلّها ومطالبا بنسبة عشرة بالمائة في صورة انتصار الاتّحاد ووجود أخطاء تمنع قائمة أولاد الطليانة من الحصول على المبلغ كلّه.

غير أنّ المشكلة الأخرى الكبيرة التي طرحت على الجماعة هي كيف سيشارك أولاد الطليانة في اللّعبة وقد ألزموا أنفسهم بعدم المشاركة حتّى لا يصدق عليهم قول الشاعر «فيك الخصام وأنت الخصم والحكم»؟.

لم يكن من الصعب التوصّل إلى حلّ في هذه المسألة. فلهم أصدقاء كثر من فتوّات الأحياء المجاورة. امتنع إبراهيم نجيمة المعروف بـ«القطّوس» (ويدعى أحيانا «الزَّرْقَة» لزُرْقة عينيه)، وهو من «باندية»

مكتبة الفكر الجديد

الحلفاوين، عن المشاركة في الرّهان في الجولة الأخيرة رغم فوزه بالمبلغ كلّه أكثر من مرّة. كان ممّن اعتقد أنّ الرهان الأخير بلا طعم ولا لون وسيكثر الفائزون فيه. والقطّوس من أحبّاء الترجّي الرياضيّ التونسيّ المغالين في الدفاع عنه والمتطرّفين في تمجيده والحَطّ من شأن النوادي المنافسة له حتّى أنّه منع في منطقتي باب سويقة والحلفاوين، بقوّة العضلات والأسلحة البيضاء، التحدّث بسوء عن الترجّي حين ينهزم ويكون أداؤه سيّئا في مباراة من المباريات.

وإبراهيم القطّوس هو ابن خالة «رضا شلموط» العنصر الفاعل ضمن ثلاثيّ الرّهان الرياضيّ المسمّى أولاد الطليانة. وبالتالي فإن المسألة تصطبغ برباطين قوّيين: رابط الدم ورابط الحرمة بين «البانديّة» الذين وزّعوا في ما بينهم مناطق السيطرة والنفوذ. فدَمُ «البانديّ» وماله وعرضه محرّم على «البانديّ» الآخر إلاّ إذا بادر بالعداوة أو كان من اللّازم تأديبه بعد المساس بأخلاقيّات الفتوّة.

تقدّم الزرقة بورقة الرّهان من دون أن يعمّرها هو ومن دون أن يدفع ملّيما واحدا. إنّها خدمة بسيطة لابن خالته الذي لم يصارحه بالخطّة وتفاصيلها. واكتفى بأن تقدّم أمام ثلاثيّ الرّهان كما لو أنّه يقدّم ورقة رهان على ما اعتاد فعله في الجولات السابقة.

وكان ما خطّطت له المجموعة. انتصر الاتّحاد بفضل ضربة جزاء باغندا وانتصر منافس جنوة بضربة جزاء وهميّة من حكم المباراة تركها الحارس تدخل الشباك أمام ذهول الجمهور. ووجد الجميع أنفسهم في التسلّل عدا القائمين على اللّعبة الذين راهنوا بورقة «إبراهيم نجيمة». غير أنّ ما جنته المجموعة من مبالغ طائلة بمقياس تلك الأيّام كان مصدر أطماع وخلافات بين أصحاب شركة الرّهان الرياضيّ خفيّة الاسم، والعصابة التي تلاعبت بالمقابلة.

مكتبة الفكر الجديد

المفاوضات مع باغندا. لم يكن الاتفاق الذي تمّ شفويّا بين باغندا وأولاد الطليانة غامضًا. فبنوده واضحة لا يهمّ باغندا منها إلاّ أن يحصل على عشرة بالمائة عند انتصار الاتّحاد بهدف يسجّله هو. وهذا ما وقع. ولكن يهمّه أيضا، اعتمادا على مبدإ من أعطى كلمته أعطى رقبته، أن ينال **العشرة بالمائة الثانية في صورة فوز ورقة الرّهان كلّها. وهذا ما أنكره** «شلموط» تحديدا ولم يتحدّث فيه رفيقاه وشريكاه البتّة.

دبّ الخلاف بين الجماعة حول هذه التعهّدات. فلئن رأى «بلها ولد الشنّوفي» احترام الاتفاق بحذافيره وإعطاء باغندا حقّه كاملا حتّى لا يثير أيّ ردّ فعل قد يجلب لهم فضيحة هم في غنى عنها فإنّ «عبد الباسط باولو» لم يحسم الخلاف بين الثلاثة معتبرا أنّه لا يرى مانعا في أن يكتفي باغندا بنصيبه الذي تحصّل عليه بعرق جبينه والفنّيّات التي في رجليه. وحين فهم «رضا شلموط» أنّ «باولو» يسانده وضّح له أنّه من ناحية أخرى يساند «بلها» من منطلق مبدئيّ، فنظافة سلوك الثلاثة هي التي جعلت الجميع يثق بهم. ولكن هذه أوّل خطوة في خيانة الأمانة ويخشى أن ينفرط العقد كلّه ويضيع كلّ شيء.

ظلّ توزيع المرابيح معلّقا لأيّام بعد أن اتفق أولاد الطليانة على منح باغندا ما اشتركوا في الاعتراف به للجوهرة السوداء أي نسبة العشرة بالمائة في انتظار الحسم في العشرة بالمائة الأخرى. وهكذا قبض باغندا في شهر جوان من سنة 1987 ما يناهز العشرة آلاف دينار منتظرا القسط الثاني بعد عودته من رحلة إلى الخارج. (من المرجّح أنّه سافر حينها إلى سويسرا للاتفاق مع «أف. سي. زوريخ» ثمّ ذهب إلى سوسة حيث تعرّف إلى «سالي» ابنة الثريّ التونسيّ وعاش معها مغامرته).

ظلّ باغندا ينتظر القسط الثاني من نصيبه. وحين عاد إلى تونس اتّصل مرّة أخرى بأولاد الطليانة ولكنّهم لم يحسموا أمرهم. بقي «رضا شلموط» على موقفه. زعم لباغندا أوّل الأمر أنّ الاتفاق نصّ على العشرة

مكتبة الفكر الجديد

بالمائة أساسا، وسعى إلى إقناعه بأنّ ورقة الرّهان التي قدّمها القطّوس لم تفز كلّها متوهّما أنّ باغندا لا يعرف أنّ الإخفاق بالتكهّن في مقابلة جنوة يعني عدم الفوز. كان باغندا قد سمع بأنّ المقابلة باعها الحكم وحارس المرمى بسبب الـ«طوطو كالشيو» لمنافس نادي «جنوة». كانت **الفضيحة منشورة في الصحف الإيطاليّة والعالميّة وتردّدت أصداؤها في** بعض الصحف التونسيّة.

ولـمّا تأكّد شلموط من إصرار باغندا على نيل حقوقه كاملة هدّده، بسذاجة غريبة، برفع الأمر إلى رئيس الاتّحاد الذي وقر في ذهنه أنّ الهدف الذي سجّله باغندا كان من باب الصدفة بعد أن تعمّد تصويب الكرة نحو العارضة الأفقيّة لتخرج من الملعب لكنّها دخلت المرمى.

ما خفي عن «شلموط» أنّ باغندا كان في تلك الفترة ينتظر بفارغ الصبر أن يغادر الاتّحاد معتبرا أنّ المكتوب انتهى مع فريقه الذي حقّق معه أجمل الألقاب التي لا يحلم بها لاعب في سنّه. أصبح سجّله حافلا، في ثلاثة مواسم فقط، بتسعة ألقاب وطنيّة وإقليميّة وقارّيّة دفعة واحدة، وبثلاثة ألقاب لأحسن هدّاف في البطولة التونسيّة، وبحبّ عارم للجماهير التي لا تفتأ تشبّهه بملك كرة القدم البرازيليّ بيلي لا للونه فحسب بل لفنيّاته وعطائه الغزير وإبداعه منقطع النظير. كان يعرف أنّ عماد بلخوجة يحبّه أيضا. بيد أنّ بلخوجة يحبّ نفسه أكثر ويخاف على أمواله ولا يهتمّ بمستقبل الغزال الأسمر والجوهرة التي ترصّع تاج الاتّحاد التونسيّ وكرة القدم التونسيّة. كان يريده عبدا له وخاتما طيّعا في إصبعه.

وما لم ينتظره «شلموط» أبدا من باغندا أن يجيبه باستخفافٍ من موقف عماد بلخوجة واحتقارٍ له عبّر عنه بالسباب المقذع المستعمَل في الأحياء. عندها تأكّد شلموط أنّ المسألة كلّها جدّ في جدّ ولا مناص من تغيير التكتيك للوصول إلى النتيجة المرجوّة.

مكتبة الفكر الجديد

القطّ والفأر. لم يجد شلموط تشجيعا من رفيقيه «بلها» و«باولو» للوقوف موقفا صارما من باغندا. ولم يزدهما الخوف من الفضيحة المنتظرة إلاّ حرصا على غلق هذا الملفّ الذي لا ينوي «شلموط» غلقه إلاّ على النحو الذي يريده هو. كادت الأمور بين الباندية الثلاثة تتدهور لولا الماء والملح وسجون الطليان بينهم، وعدد من الجرائم والجنح والجنايات التي وطّدت علاقة الدم الصافي. اتفقوا أخيرا على أن يتولّى «رضا شلموط» فضّ الإشكال. هو الوحيد البارز في الصورة بصفته المخاطب الرسميّ لباغندا. وممّا زاد الصديقيْن الشريكين حرصا على النأي بنفسَيْهما عن الخلاف مع باغندا أنّ «شلموط» مكّنهما من حصّتهما من المرابيح كاملة بعد أن قسّم العشرة بالمائة المتبقّية من نصيب باغندا على ثلاثتهم. كان ذلك بالنسبة إليهما إيذانا بغلق الملفّ وإن لم يعرفا كيف سيتصرّف مع الغزال الأسمر.

حين سمع «القطّوس» من ابن خالته مختلف هذه المواقف استاء من أن يكون الفأر المسمّى باغندا يريد أن يسمن بسرعة ليصير جربوعا. وبمقتضى العلاقة العائليّة والدمويّة الوثيقة، ساند «شلموط». وهدّده، دون أن يكون في حالة سكر ولا في حالة تخدّر، برسم خريطة بشفرة حلاقة على وجهه إذا أضاف ملّيما واحدا لباغندا. وقد صادف أن مرّ بجنبهما المقرئ الشابّ ابن الحلفاوين الشيخ الفتى الحبيب بن ضياف (سليل عائلة المؤرّخ ابن أبي الضياف) راجعا إلى بيته من «جامع صاحب الطابع» فاستعار منه «القطّوس» مصحفه الصغير الذي يضعه دائما في جيب بِدْعِيَّتِه تحت الجبّة، وأقسم بأغلظ الأيمان على المصحف الشريف ألاّ يتراجع عن وعيده.

حينها تنفّس «شلموط» الصعداء واعتبر نفسه في حلّ من المسألة. فهي في عهدة القطّ (ـوس) الذي لن يترك الفأر باغندا ينجو من مخالبه القاتلة إذا أصرّ على موقفه. وكان ما خطّط له «شلموط» وما أصرّ عليه

مكتبة الفكر الجديد

القطّوس من معاقبة باغندا على مطالبته بحقّ ليس له، ومن طمعه في مال لم يكافح من أجل الحصول عليه. فحتّى الهدف الذي سجّله كان حسب «إبراهيم نجيمة» محض صدفة ولم يكن وفاءً بتعهّده كما زعم، بل الواضح عندهَ أنّه قصد إضاعة الفرصة بقذف الكرة على العارضة الأفقيّة والاستجابة إلى طلب المدرّب بألّا يسجّل الهدف حين وشوش له في أذنه.

وكما يجري عادة في الحكايات وفي الحياة جميعا، عدا ما نعرفه في «كرتون» ميكي ماوس، أكل القطّ الفأر وانتهت قصّة باغندا مع الملاعب إلى الأبد.

مكتبة الفكر الجديد

غروب الحكاية
أو التحقيق المستحيل

مكتبة
الفكر الجديد

نسيان باغندا. وقع ما سأرويه في موفّى شهر جوان من سنة 1989. كنت قد جمعت من المعطيات والفرضيّات السابقة حول محاولة اغتيال باغندا ما جعلني أتوهّم أنّني قادر على كتابة تحقيق استقصائيّ يكشف تفاصيل ما وقع. تصوّرت بشيء من طيش الشباب وغروره أنّني أملك مفاتيح الإجابة عن السؤال الكبير رغم ما يلفّ الحكاية من لبس وغموض وتكتّم. من ذلك أنّني لم أكن وقتها أعرف مصير باغندا ولا مكانه ولا حالته. لا أحد كان يعرف. والأنكى أنّه لا أحد يريد أن يسمع بهذا الاسم. كان الناس حولي إذا ذكرت اسم باغندا سكتوا أو غيّروا الموضوع فبدوت كمن يهذي أو يسأل عن الغول والعنقاء. حتّى زملائي الصحافيّون في قسم الرياضة أنكروه كأنْ لا أحد سمع به من قبل. هكذا فعل شاكر دمّق، المدير المالي بالجريدة عاشق النادي الرياضيّ الصفاقسي والمتابع لتفاصيل كرة القدم التونسيّة. لم يعد لاسم باغندا أيّ معنى أو مرجع في الواقع كأنّه لم يوجد يوما على هذه البسيطة. واليوم، رغم ما ذكرته عنه من خلال المعطيات التي استخرجتها من أرشيفي ووثائقي، لا أحد يذكره في تونس.

نعم! أعرف أنّ هذه البلاد تأكل أولادها وتتجاهلهم وتقتلهم بالصمت الذي تطوّقهم به. أعرف أنّ ذاكرة التونسيّين قصيرة كأنّهم

مكتبة الفكر الجديد

يبدأون دائما من لحظتهم الراهنة فيتوهّمون أنّهم الأوائل ولا أحد سبقهم. أعرف هذا عن أبناء بلدي ولكنّ موقفهم من باغندا شيء آخر لا يوصف. إنّه محو تام لذكر نجم مرّ مرورا قد يكون خاطفا في سماء كرة القدم التونسيّة ولكنّه أضاء هذه السماء في يوم من الأيّام. بيد أنّني لست على استعداد لأن أذهب إلى أنّ في الأمر مؤامرة حاكها عماد بلخوجة وأزلامـه. فأنّى لهم، وإن شاؤوا، أن يعدّلوا ذاكرات الناس جميعا ويتصرّفوا فيها بالتثبيت أو المحو؟

في الثلاثيّ الثاني من سنة 1989 بدأت البلاد تتّجه بحاكمها الجديد الذي فاز بالانتخابات نحو الاستقرار بعد حملة انتخابيّة مذهلة انتهت بتزييف النتائج كالعادة. تابعت مجرياتها وأنا صحفيّ أشتغل مراسلا لفائدة صحيفة بلجيكيّة فرنكوفونيّة دون أن يغيب عن ذهني باغندا أو أنسى حكايته ولو يومًا واحدًا.

كانت البلاد تنتظر بأمل واسع ما سيسفر عنه انقلاب الجنرال على الأسد العجوز. كنت أنتظر مثل بقية التونسيّين وأفكّر في تحقيقي الذي يتطلّب معلومات لا أعرف كيف أصل إليها. كان يكفيني تبنّي الرواية التي أفضى إليها التحقيق الأوّليّ. فما أفادني به سي عثمان ضابط الأمن وابن حيّنا حين زرته في مركز القرجاني كان يمكن أن يمثّل الرواية الرسميّة. فلو كانت الرواية سليمة فما الذي يمنع من إخبار الناس بها ليغلق الملفّ؟ لكنّني لم أكن مقتنعا بها بما أنّ قرائن عديدة كانت تدلّ على أنّ للحادثة وجها آخر خطيرا. فما معنى أن يدعو وزير الشباب والرياضة آنذاك رئيس الاتّحاد التونسيّ ومسؤولين رياضيّين آخرين إلى اجتماع طارئ صبيحة يوم أحد وينتهي الاجتماع بخصومة بين الوزير ورئيس النادي بسبب تلك الحادثة؟ وكيف لي أن أكذّب ما رواه لي شاهد عيان حضر الاجتماع ورأى الخصومة من دون أن أطلب منه أيّ شيء؟ كيف لي أن أرمي بظاهر اليد ردّ الفعل الحادّ الذي أبداه كلّ من الوزير وعماد

مكتبة الفكر الجديد

بلخوجة حالما نشرت خبر الاعتداء على باغندا من دون أن يقدّم أيّ واحد دليلا على أنّ الأمر على خلاف ما ذكرت؟ كيف لي أن أتجاهل كلّ الروايات والفرضيّات التي سمعتها من أناس كانوا يحدّثونني وهم خائفون كأنّهم يكشفون أسرار الدولة لعدوّ أجنبيّ؟

الواقع أنّ الظروف التي حدث فيها الاعتداء تحمل بعض الإجابة. فحسب الوثائق التي عندي وقعت الحادثة في الليلة الفاصلة بين السبت 24 أكتوبر 1987 والأحد 25. وكنت قد نشرت المقال في **العدد الصادر يوم الاثنين 26 أكتوبر 1987. فبين تاريخ الحادثة** وتاريخ الانقلاب في تونس (أي 7 نوفمبر 1987 وكان يوم سبت أيضا) أسبوعان بالتمام والكمال، وبينه وبين نشر الخبر ثلاثة عشر يوما، وبينه وبين مقال التكذيب والاعتذار الذي أصدرته الجريدة في عدد الثلاثاء 27 أكتوبر 1987 اثنا عشر يوما. ومن يعرف البلاد في تلك الفترة وحالة الرعب والتوجّس والخيفة التي كانت تعيشها يدرك ولا ريب أنّ الخبر عن حادث يتعرّض له لاعب، وإن كان مشهورا، لا يمثّل شيئا يذكر أمام التهديدات الخطيرة التي تمسّ أمن البلاد بسبب الصراع العنيف بين السلطة والإسلاميّين. وإذا أضفنا إلى ذلك الإشاعات التي سرّبها الزرقوني وأزلامه، وفَرْضه منع الحديث عن باغندا في المقاهي بترهيب كلّ من تسوّل له نفسه أن يسأل عمّا وقع، فهمنا جانبا من الصمت المطبق على الحادثة من جهة وسرعة ابتلاع عنكبوت النسيان لذكرى باغندا من جهة أخرى. والعامل الثالث الذي قد يفسّر لفلفة الحكاية بذاك الشكل الغريب هو توقّف البطولة لفترة طويلة آنذاك ربّما من باب احتياط النظام الجديد من أيّ تجمهر للناس في الملاعب وتركيزه على تمتين أركان حكمه. فما الذي يمثّله باغندا في تلك الظروف التي تعدّدت فيها الحوادث وامتلأت النفوس برعب أشاعته أجواء انتظار فرجٍ لم يأت؟

مكتبة الفكر الجديد

لقائي مع الر. م. ع. حين التقيت سي عبد الحميد التميمي في موفّى شهر جوان من سنة 1989 بمطعمه المحبّذ، «الكوكياج»، كانت الظروف قد تغيّرت وبدأت القرائن تدلّ على أنّ الفارس الجديد قد ركب صهوة البلاد ويستعدّ إلى الانطلاق نحو غايته. شغّل الآلة القديمة ولكنّ الأمل لم ينقطع تماما رغم الصكّ الأبيض الذي أهدته له المعارضة وأكّده غباء الإسلاميّين الذين توهّموا أنّ الفارس الجديد سيمكّنهم من نصيب ولو يسير من الكعكعة التي وضع لأجلها رقبته أمام حبل المشنقة.

يومها أخبرني سي عبد الحميد التميمي بأنّ أصدقاءه الفرنسيّين في «أ. ف. ب» طلبوا منه بإلحاح البحث عن صحفيّ ممتاز ليعزّز صفوف العاملين بمكتبهم في تونس. وقد اختارني لهذه المهمّة بعد ما أثبتّه من كفاءة في مراسلاتي للجريدة البلجيكيّة عن الوضع في تونس والأحداث المتلاحقة منذ وصول بن علي إلى السلطة. وأعلمني أيضا بنيّة الرئيس بن عليّ تعيينه في المنصب الذي لا يرى أحدا أجدر منه به: وزير الإعلام. وهو نوع من الاعتراف بما قام به يوم السابع من نوفمبر حين أصدر عددا خاصّا بالتغيير المبارك، كما كان يُقال، في سويعات قليلة.

يومها أحببت أن أتوّج رحلتي القصيرة في جريدة الحكومة بالتحقيق الذي حلمت به وكنت أعرف أنّه لا يمكن أن يُنشر إلاّ إذا وُجد شخص شجاع مثل سي عبد الحميد التميمي على رأسها. فهو، على ما توهّمت، الوحيد القادر على إيقاف الرقيب أبو السعود الحمزاوي عند حدّه وتمكيني من تحقيق رغبتي.

واليوم أعترف بأنّني كنت غرّا ساذجا. فكيف لرجل يستعدّ لأن يصبح وزيرا أن يقبل بتفجير قنبلة يدرك جيّدا أنّ شظاياها ستصيب كثيرين؟ أجابني وقتها بابتسامته الخبيثة التي يفترّ عنها ثغره كلّما رأى فيّ بعض ما يعتبره حماسة الشباب:

مكتبة الفكر الجديد

- «أعرف أنّك مجنون.. أنسيت كيف خلّصتك وخلّصت الجريدة من براثن أولئك الأنذال؟...».

قلت:

- «لا. بل أذكر جيّدا، ولكنّ الظرف غير الظرف..»

حدّثته عن خروجي من صفحات المجتمع بسبب تحقيق رأى فيه أبو السعود الحمزاوي مساسا بسمعة البلاد على نحو يشوّه صورتها لدى السيّاح. فذهب جهد التحقيق سبهللا. وذكّرته بتحقيقي الاستقصائيّ عن الإسلاميّين وجهازهم الخاصّ، قبيل حادثة باغندا وقبل انقلاب بن عليّ بقليل، وما تضمّنه من معلومات أثبتت الأيّام صحّتها فرفضه هو نفسه على اعتبار أنّ ما فيه له طابع أمنيّ. سعيت إلى تهويل بعض الوقائع البسيطة التي حدثت مع الرقيب في الجريدة مثل ترجمة مقتطف من «طبائع الاستبداد» للكواكبي لنشره في الملحق الثقافي الذي كنت أشرف عليه بسبب ما فيه من شبه مع حال حكم بورقيبة. وذكّرته بمنع أبو السعود الحمزاوي نشر التحقيق الثقافيّ عن أجور الفنّانين في مهرجان قرطاج الصيفيّ وعدم تناسب المبالغ المسندة إلى بعضهم مع القيمة الفنيّة لهذا المطرب أو ذاك بما يدلّ على محاباة وتلاعب ثابتَين من الوسطاء والوزير.

اخترت أن ألعب معه دور الضحيّة المظلوم في العهد البائد، والصحفيّ الحرّ الذي يريد أن يقول الحقيقة في العهد الجديد. فتصنّع الجدّ من دون أن ينظر إليّ وقال:

- «أعرف أنّك تحبّ الشعر، فهل تملك ترجمة إلى الفرنسيّة للحائز على جائزة جائزة نوبل في السنة المنقضية جوزيف برودسكي؟»

- «معناها أنك لا ترغب في أن أنجز التحقيق الذي أحلم به؟»

- «كنت قد قرأت بعض القصائد هنا وهناك في المجلاّت والصحف الفرنسيّة... ولم أتبيّن خصوصيّته التي أوصلته إلى دخول

مكتبة الفكر الجديد

عالم نوبل... هذا موضوع مهمّ إن شئت كتبت عنه في عدد من أعداد ملحقك الأدبيّ... لقد فاجأني حصوله على نوبل للأدب».

كان سي عبد الحميد لا يميل إلى الشعر بقدر ما يحبّ الرواية، ففهمت من كلامه أنّه لا يريد الحديث عن التحقيق ولا يرغب في نشره. أخذنا، خلال تلك السهرة، نتداول مواضيع شتّى. وجدت سي عبد الحميد كعادته متألّقا بتحليلاته العميقة ومعرفته الأدبيّة الواسعة. لم نتحدّث عن السياسة ولا عن مسألة توزيره المحتملة.

كان آخر ما قاله لي بعد أن أوصلني إلى بيتي في «باردو»:

– «أنت أوّل من قال لي لن يتغيّر شيء في العمق... وها أنّ كلامك تؤكّده الأيّام... تصبح على خير».

وكان ذلك آخر عهدي بحكاية التحقيق!

أسئلتي المعلّقة. هل كان هذا التخلّي عن كتابة التحقيق حول باغندا، والقبول بالمنع الصريح أو المقنّع صورةً أخرى من تخاذلي في كشف حقيقة ما وقع لباغندا ومواجهة عصابة كرة القدم ورأس المال المشبوه والفساد البيّن بزعامة عماد بلخوجة؟

لم أتعامل حينها مع المسألة بهذه الصيغة. فما كان في ذهني، بعد طلاقي، هو أن أهاجر لأحفر مجرى حياتي في عالم الصحافة الحقيقيّة. فقد كنت أرى أن ما عندنا في تونس مجرّد تمارين بسيطة هي أقرب إلى الخربشات والمحاولات التي يقوم بها المبتدئون في دنيا التحرير فيبدو الصحفيّ العاديّ كالأعمش في بيت من العُشْو والعميان.

وما كان عليّ وقتها أن أتردّد في انتهاز الفرصة النادرة التي أتاحها لي سي عبد الحميد بفضل شبكة علاقاته الواسعة. لم يطل بي العهد فسافرت في أوائل شهر سبتمبر لألتحق بوكالة الأنباء الفرنسيّة «أ. ف.

مكتبة الفكر الجديد

بـ«. سافرت وانقطعت قصّتي مع التحقيق. لقد كسفت شمس الحكاية في عقلي وذاكرتي.

واليوم حين استرجع بعض الذكريات أتساءل: ماذا كنت سأكتب ولا شيءَ موثوقا به في أمر الحادثة؟ هل كنت سأكتب عن بلخوجة كلّ ذلك الكلام من دون وثائق ولا حجج؟ هل كنت سأروي اعتمادا على ما سمعته من أناس لا حجّيّة لهم؟ هل سأكتفي بفرضيّات لا يعسر الاستدلال على اضطرابها وخطلها وتهافتها وفسادها من داخلها؟ ألم ينقذني سي عبد الحميد مرّة أخرى، من حيث يدري أو لا يدري، من خطإ شنيع كنت سأرتكبه في حقّ نفسي وكان من الثابت أنّه سيحطّم مستقبلي المهنيّ علاوة على العداوات الخطيرة مع «الباندية» الذين سمعت أسماءهم فدوّنتها ولم أكلّف نفسي حتّى عناء التثبّت والتحرّي والاتّصال بهم؟

لقد تدرّبت، في وكالة الأنباء الفرنسيّة، على أيدي جهابذة في جنس التحقيق الصحفيّ والتحقيق الاستقصائيّ. واكتشفت من خلال ذلك أنّ لمثل هذا العمل محاذير ومتطلّبات ووسائل وأساليب في التقصّي وإمكانيّات ماديّة وبيئة إعلاميّة لم تكن متوفّرة البتّة في صحافتنا وبلادنا وما تزال إلى اليوم غير متوفّرة.

وفي نهاية الأمر ما المعلومات التي كانت بحوزتي عدا خبر اختفاء باغندا (مع شبهة الاعتداء عليه) وهو خارج من ملهى ليليٍّ؟ بل حتّى هذا كان مُختلَفا فيه. فتارة هو ملهى بأحد فنادق «قمّرت» وتارة أخرى هو «البرّاكة». أمّا الروايات عن الاعتداء في حدّ ذاته، إن صحّ، فهي متضاربة من استعمال سلاح أبيض حاد في مستوى الرقبة والظهر بنيّة القتل، إلى حادث بسيّارة «الغولف» نتج عنه كسر في فقرات الظهر والزنار الحوضيّ. وإلى ذلك كلّه ادعاءات بأنّه كان مخمورا (وهذا غير مستبعد) وفي دمه آثار استهلاك مخدّرات (وهو أمرٌ محتمل) وفي الحالتين لا تقرير طبيّا عندي يثبت أو ينفي.

مكتبة الفكر الجديد

وماذا عندي غير أنّ عائلته كلّها اقتُلعت من الحيّ اقتلاعا دون أن يكون أحد على علم بالمكان الذي ذهبت إليه (أو بالأحرى هُجّرت إليه) مع تردّد في تعيينه من قائل إنّه بالضاحية الشماليّة إلى مؤكّد، ولا دليل، أنّه واقع في أحد الأحياء الراقية بالعاصمة.

أمّا المنفّذون المحتمَلون للاعتداء فكُثْر كثرةَ الدوافع والأسباب وأصحاب المصلحة في القضاء على باغندا. ولكن لكلّ رواية سمعتها ولكلّ تفسير جمعت قرائنه، شيئا فشيئا طيلة أشهر، بعض الوجاهة، رغم ضعف الحبكة هنا وطابعها المصطنع هناك. والواقع ليس من مهام التحقيق الاستقصائيّ أن يصل إلى حقيقة وتفاصيل ما حدث فالصحفيّ تهمه الظروف وانعكاساتها ولا يعمل كمحقّق أمنيّ. أعرف أنّ الحكاية مليئة بالتناقضات والمبالغات والأهواء التي لم أتمكّن من رفعها بإنشاء سردٍ واضح منسجم متماسك.

كنت عاجزا عن الإجابة عن جميع الأسئلة المتصلة بالكيفيّة والأسباب. فقد اكتشفت أنّني أتحرّك في عالم المتنفّذين والمضاربين والخارجين عن القانون ودنيا الفساد المالي والأخلاقي والجنسيّ والتلاعب بالنتائج والمخدّرات والأسواق الموازية. وما يزعج أكثر أنّ الحكاية نفسها كانت تتحرّك في اتجاهات متعدّدة وإن لم تكن متضاربة بالضرورة. وأعرف أن الخبطَ فيها خبط عشواء لممّا يضعف من درجة الإقناع في سردها. ولكن لكلّ حكاية وجاهتها وفيها صورة عن حياة الناس وطريقة تفكيرهم.

ولمّا كنت رجلَ قانونٍ في أصل تكويني فإنّ التزامي الشخصيّ بما وقع لباغندا وحماستي لكشف الحقيقة بحكم معرفتي القديمة به، وموقفي السياسيّ العامّ في مناصرة عبيد رأس المال، ليس ممّا يعتدّ به لصنع قصّة رائعة فاضحة للفساد استنادا إلى المعطيات الدراميّة الاستثنائيّة التي توفّرت لديّ. ويبدو لي اليوم أنّ كتابة مثل هذه القصّة على ما فيها من تشويق وفضح كان سيعرّضني إلى المساءلة القانونيّة والأخلاقيّة. فكيف

لي أن أكتب من دون وثائق وأتّهم من دون دليل؟ فنحن مازلنا نعيش في بنية ثقافيّة شفويّة لا أحد فيها يؤمن بالوثيقة، ومازلنا في بنية سياسيّة تخشى الشفافيّة ولا تعرف إلى تجسيد حقّ المواطن في المعلومة سبيلا. ومن هذه الناحية لست نبيّا ولم أعد، منذ مدّة، مناضلا يساريّا يضحّي بحياته إن لزم الأمر من أجل الحقيقة. فإن أنا إلاّ صحفيّ يؤمن بما يؤمن به الصحفيّون: لا وجود لخبر يستحقّ منهم الموت في سبيل تقديمه إلى القرّاء. أهو جبن منّي؟ فليكن! لقد وجدت نفسي في مواجهة عقارب لسّاعة وأفاع نهّاشة، أمام عالم من الكلاب والضباع والقروش التي اشتمّت رائحة المال الحرام فتفتّحت شهوتها للدم.

فماذا لو جازفت باتّهام عماد بلخوجة بتدبير الاعتداء على باغندا؟ الحقّ أنّني كنت متأكّدا في قرارة نفسي من أنّه وراء ما وقع. فكلّ المعطيات التي جمعتها عنه تتّجه نحو اتهامه سواء بشخصيّته المستبدّة ونرجسيّته القاتلة ونفوذه الواسع، أو بتاريخه في تحريك الأيادي الخفيّة للقضاء على خصومه وإهانتهم وحبْك المكائد لهم. ثمّ إنّ من الوقائع الثابتة ما يجعل نقمته على باغندا كبيرة. فقد رغب في الانتقال إلى فريق آخر أجنبيّ من دون علم النادي ومسؤوليه، وأراد مراجعة عقده مع الاتّحاد للترفيع في أجرته ومنَحِه، ولم يحترم الانضباط الذي فرضه رئيس الفريق بل بلغ به التحدّي أن حضر حفل ختان ابن رجل أعمال ممّن يعتبرهم بلخوجة أعداء له... وغير هذا من الوقائع الثابتة والقرائن القويّة والشبهات الجدّيّة.

ولكن إذا ثبت أنّ رجل الأعمال الذي خاضت ابنتُه مع باغندا مغامرة لفترة من الزمن فتعلّقت به ورغبت في الزواج منه كان هو المخطّط، أو إذا ثبت أنّ باغندا تلقّى أموالا مقابل التلاعب بنتيجة مقابلة الاتّحاد التونسيّ مع شبيبة الملّاسين لتفوز عصابة المفسدين بـ «طوطو كالشيو» تونس ثم تخاصم معهم، إذا ثبت هذا أو ذاك أو محاولة «البلو

أند غولدن» تأديبه، فما قيمة توجيه الاتّهام إلى عماد بلخوجة وكتابة قصّة كاذبة تقلب الحقائق قلبا؟

لا أذكر ما الذي كنت سأكتبه وقتَها، ولكنّني الآن أصبحت أكثر شكّا وأقلّ اندفاعا وإن ظلّ تشوّقي إلى معرفة الحقيقة قويّا. وفي جميع الحالات يعرف جمهور الاتّحاد التونسيّ خصوصا، وجمهور كرة القدم عموما، نتفا من الفرضيّات المختلفة التي توصّلت إليها. وهم أعلم منّي بالفساد الذي ينخر كرتنا. فما الذي سيضيفه تحقيقي هذا؟ بل لعلّهم واقعيّون أكثر منّي يعرفون ألّا فرجة في الملاعب دون نجوم ولا نجوم دون أموال. وأمثال بلخوجة هم الذين يوفّرون لهم النجوم بأموالهم ليتفرّجوا كلّ يوم أحد ويعبدوا أصنامهم الجديدة فيُشبِعوا رغباتهم. فما باغندا، إذا تركنا جانبا البعد الإنسانيّ في القضيّة، إلاّ سطر من قصّة مطوّلة متشعّبة الأحداث كثيرة الفصول متجدّدة الوقائع عن الفساد ونهب تعب الناس. فهل يكفي فضح مفاسد المال حين تسيطر الأهواء والانفعالات والرغبات على العقول لتجنّب الأحداث المؤلمة في تلك القصّة وقتل الوحش المتربّص في أعطافها؟

نهاية (مؤقّتة!) لسبع ضارٍ. غادر عماد بلخوجة رئاسة الفريق، بعد أن أصبحت بطولتنا محترفة، وعوّضته سباع أخرى ضارية يبدو بلخوجة أمامها حَمَلًا وديعا. أُجبر بلخوجة على الاستقالة من الفريق بعد بضعة سنوات من تغيير السابع من نوفمبر، خلال الفترة التي كنت فيها أعمل في الخارج مراسلا لوكالة «أ. ف. ب». أصبح عماد بلخوجة في آخر أيّام رئاسته للفريق مسخرة أمام الجمهور الذي كان يصرخ في المدارج: «بلخوجة يا سرّاق!» و«برّه روّح.. برّه روّح» إضافة إلى بذاءات وسباب مقذع على مرأى ومسمع من الجميع. لم يعد اللاّعبون أنفسهم يخشونه. انتقموا منه شرّ انتقام لتجبّره وعنجهيّته.

تخلّى عن رئاسة الفريق بعد عشر سنوات من الألقاب المشرّفة تربّع خلالها على عرش الاتّحاد. حدث له أشنع ممّا فعله مع الأستاذ مصطفى الشريف المحامي. وجد نفسه موقوفا بتهم خطيرة تتعلّق بالفساد المالي والتلاعب بالمباريات ورشوة حكّام المباريات وتكوين عصابة مفسدين وغيرها من التهم الخطيرة التي دبّرها له، في ما يبدو، رؤساء جمعيّات أخرى وطامحون إلى الاستفادة من بقرة الاتّحاد التونسيّ الحلوب. لم تكن التهم على الأرجح ملفّقة ولكنّها من النوع الذي يمارسه جلّ رؤساء الجمعيّات الرياضيّة وإن ادعوا نظافة اليد والعفّة حين تذكر تلك الممارسات أمامهم.

غير أنّ بعض العارفين أكّدوا لي أنّ السبب الحقيقيّ لما آل إليه حال عماد بلخوجة لا يعود إلى تسييره للاتّحاد التونسيّ، وإن كان ما ذُكر لا يخلو من صحّة، بل يتعلّق بمعاركه في سوق العقارات والتجارة والصناعة. كان قرشا ابتلع صغار الأسماك وبدأ يزعج القروش الأخرى. تضامنت تلك القروش، بدافع المصالح والأهداف، على إعداد الملفّات الخاصّة به حول المضاربة في الأراضي وتكوين شبكة فساد ماليّ وبعث شركات وهميّة وشراء الذمم في المناقصات العموميّة وتحويل أموال بطرق غير مشروعة والتلاعب بالتصاريح حول الضرائب والأداءات... ولولا تدخّل الرئيس شخصيّا لكان مصيره السجن لسنوات طويلة.

ويرجّح العارفون أنّ هذا التدخّل كان درءًا للأخطار التي يمكن أن تجرّ إليها القضايا المرفوعة ضدّ بلخوجة من ردود فعل غير مضمونة لدى شقّ من الجماهير الرياضيّة التي ظلّت موالية له، ومن فتح لملفّات كثيرة لم يكن ملفّ بلخوجة إلاّ أحدها. ويبدو أنّ الصفقة كانت واضحة: يطلق سراحه وتحفظ القضايا بالتدريج على أن يشتغل مع أقارب الرئيس وأشقّاء حرمه المصون. وهذه قصّة أخرى تحتاج إلى صفحات كثيرة.

الجوهرة السوداء والنار. ولكن ماذا عن باغندا؟ أين هو الآن؟ هنا تكمن بعض سذاجتي التي ربّما كانت من الأسباب غير الواعية لبزوغ شمس حكاية باغندا في ذاكرتي.

في موفّى شهر جوان من سنة 1989، حين التقيت بسي عبد الحميد التميمي وحدّثته عن التحقيق حول حادثة باغندا لم أكن وقتها أعرف مصير باغندا. كنت فرحا بما لديّ من معطيات وإن كانت متضاربة متناقضة غير مدعومة بالحجج والأدلّة. غاب عنّي أن أسأل عن باغندا نفسه أين هو؟ وماذا يفعل؟ وهل سيعود إلى اللّعب؟ وكيف يمكن الاتّصال به. كنت في ما يبدو مهووسا بالأسباب، المباشرة والعميقة، أكثر ممّا كنت أبحث عن الحقائق البسيطة التي يبدو الحصول عليها أقرب مأخذا. كنت على الأرجح أتطلّع إلى الأسرار التي اعتقدت أنّها خطيرة من دون أن ألتفت إلى المعطيات الأساسيّة. فلعلّ معرفتي بباغندا منذ سنيّ المراهقة جعلتني أخلط بين واجب التحقيق المحايد وأسئلته البسيطة وما يظهر لي بديهيّا لا يحتاج إلى السؤال.

في صائفة 1994، استقررت نهائيّا في تونس وبعثت شركة الإشهار والإعلان والنشر «عيون». حضرت حفلا موسيقيّا للإنشاد الدينيّ صمّمه الفنّان المبدع سمير العقربي. يومها رأيت ذاك الصرح الفنّيّ المغمور وتلك الدرّة المدفونة في التراب «فتيحة الكحلة»، أمّ باغندا. حملني صوتها يومها إلى عوالم الفتنة والسحر وأذهلني عن محاولة الاتّصال بها لمعرفة الحقائق التي ظلّت تعتمل في ذهني سنوات بحثًا عن إجابات للأسئلة المعلّقة. يومها عرفت أنّها موجودة ولكنّني لم أذهب بعيدا في التساؤل خصوصا أنّه قد صار بيني وبين حكاية باغندا ما يناهز السنوات السبع.

لم يكن ما أذهلني كامنا في هذا السهو أو هذا النسيان الموقّت، أو هذه الرغبة غير المقصودة عن هتك أسرار القصّة. بل كان كامنا في ما أفادني به سي عثمان ضابط الأمن الذي جمعني به ضرب من

الصداقة الغريبة بين أمنيّ يشتغل على الملفّات السياسيّة ويتابع حركات المعارضين وسكنتاهم، وبين يساريّ سابق يحلم بجنّة الاشتراكيّة على الأرض ورجل أعمال في مجال الاتّصال والإشهار قادم على مهل.

والواقع أنّ أفضال سي عثمان عليّ كثيرة إذ كان يقدّم لي خدماته بعفويّة ومودّة في غير تبجّح ولا استعراض لما صنع. ولعلّ أهمّ ما منّ به عليّ هو أنّه جعلني أتفطّن إلى أنّ الدولة في تونس هي وزارة الداخليّة أساسًا، فلا الحزب ولا السياسيّون يعرفون واقع البلاد أو يحكمونها.كان سي عثمان هو الذي أطلعني على نتائج التحقيق الذي فتحَتهُ الشرطة العدليّة. ولئن أكّد لي أنّه سمع بمحتواه مشافهة فقد ألحّ على أنّه أوّليّ ومحتمل. ولكنّني مازلت أذكر إلى الآن تمنّعه عن إفادتي بتطوّرات التحقيق وما تمّ التوصّل إليه من نتائج متعلّلا بأنّ البلاد في حالة تغيير وأنّ مجال الجرائم والتحقيق ليس من اختصاصه. كنت متيقّنا من أنّه يراوغ، وإن كنت أعلم أيضًا أنّه لن يبخل عليّ بالمعلومة إذا رأى فائدة لي في ذكرها. بيد أنّ علاقته بحكايتي مع باغندا لا تخلو من التباس. فهو لم يطلب منّى الابتعاد عن الموضوع ولم يمكّنّي من معطيات مقنعة. وأذكر جملة قالها لي في بداية سنة 1988 ولم أنتبه إلى أبعادها إلّا بعد سنوات:

- «للدولة صندوق أسود، مثل الطائرات، لو فتَحتْه لعاد الناس إلى الغاب ذئابًا تتقاتل... ليست كلّ الحقائق صالحة لأن تُقال...»

أذكر أنّني ناقشته يومها كثيرا وتفلسفت طويلًا مستنجدا بمفردات الشفافيّة وحقّ المواطن في المعلومة وتكريس دولة القانون والمؤسّسات وحماية الأفرادمن انتهاكات السلطة وغير هذا ممّا كنت وما أزال أؤمن به. وأجابني يومها:

- «لو آمن بهذا بورقيبة لأكله اليوسفيّون واليساريّون، ولتغدّى به

القذّافي والإسلاميّون. ولو اتّبع بن عليّ نصائحك لما أزاح الحالمين بخلافة بورقيبة..».

غير أنّ سي عثمان بعد سنوات طويلة، قبيل الألفيّة الجديدة، أسرّ إليّ بما لم يخطر لي على بال، وكان حينها يستعدّ لمغادرة سلك الأمن. **لعلّه رأى أنّني نضجت لأعرف بعض الأسرار التي لم يعد يخشى منّي تسريبها.** فقد أحكم بن عليّ قبضته ودرّب آذانَ التونسيّين على أن تسمع فتصطنع الصمم، ودرّب ألسنتَهم على أن يديروها في أفواههم مرّات قبل أن يلفظوا منها ما يريدون، ودرّب عيونَهم على أن تُغمض حتّى تتجنّب شهادة الحقّ حين تجب الشهادة. فسمعت وانعقد لساني بعد أن فات وقت الشهادة ولو إلى حين.

كان باغندا قد نُقل بتعليمات «من فوق» إلى المستشفى ميؤوسا من شفائه. كان الاعتداء عنيفا لم يُطلب به القتل ولا الإعاقة بيد أنّ عدم التحكّم في السيّارة واصطدامها بحاجز أدّى إلى كسور في الظهر والزنّار الحوضيّ فأصبح مقعَدًا. لم يعترف لي بشيء عمّن خطّط أو نفّذ، ولم يتعرَّض لتفاصيل الواقعة كما أعادت الشرطة العدليّة رسمها. اعتبر ذلك كلّه ثانويّا. ولكنّ الأهمّ من ذلك أنّ باغندا أُخفي في مستشفى الرازي للأمراض العقليّة بمنّوبة. مكان لا يخطر على بال من سيبحث عنه. هجّرت عائلته بعد تهديدها إلى مكان آخر لم يحدّده لي زاعما أنّه يجهله.

ويوم السابع من نوفمبر من سنة 1987، يوم انقلاب بن عليّ، كان الناس في المستشفى مذهولين بما وقع وإذا بالنار تلتهم الغرفة التي كان يرقد فيها باغندا. وجدوا الجوهرة السوداء محترقة بعد أن التهمت النيران الحشيّة. كان قد بدأ يتفحّم من دون أن يفطن إليه أحد. فالغرفة التي وُضع فيها كانت في بناية معزولة لا يدخلها إلاّ طبيبان مختصّان في الكسور وممرّضان. يومها أنهى رجل الأمن المكلّف بمراقبة غرفة باغندا مهمّته في السادسة صباحا ولكنّ معوّضه في الحصّة الصباحيّة لم يحضر ربّما

بسبب غياب الحافلات صبيحة الانقلاب. كان التفطّن إلى الحريق في حوالي السابعة صباحا. والأرجح حسب القرائن التي وجدها المحقّقون أنّ باغندا، وهو يشاهد حالة العجز التي أصبح عليها، انتحر حرقا بإضرام النار في الحشيّة مستعملا ولاّعة لا أحد يعرف من أين تحصّل عليها.

لم يكن ما وقع مهمّا بالمقارنة مع بلاد خائفة من أن تسيل فيها الدماء وتحترق بالكامل.

اختار باغندا جحيمه. فضّل نار الاحتراق على نار القهر والعجز. فأوجاع اللّهب يصطلي بها جسده خير عنده، ولا ريب، من النار التي تضطرم في أحشائه ووجدانه. جعل جسدَه مقبرةً متفحّمة دفن فيها ذكرياتِه الرائعةَ وأحلامَه العذبةَ، مقبرة وارى في حفرها الصورَ الحالكة للإساءة والغدر والجشع. قرّر في لحظة مجلّلة بالنار المطهِّرة المدمِّرة أن يحثوَ الرماد على كلّ ذلك الماضي، بألمه ومتعه، بعد أن فقد الأمل في أن يظلّ نجما متألّقا في سماء الرياضة ويحافظ على موقعه جوهرةً ترصّع تاج كرة القدم التونسيّة.

أنهى باغندا حياةً لم يعد لها معنى عنده. محا المعتدون، ومن دبّر وخطّط، الصفةَ الرائعة التي صنعتْ معناه، ثمّ تكفّل الناس والأيّام بشطب الاسم من كتاب تاريخ كرة القدم في تونس وساعدت الظروف على طمسه من ذاكرة عشّاق الرياضة في بلادنا.

لقد ذهب باغندا من الوجود والذاكرة، وغادر عماد بلخوجة الاتّحاد التونسيّ. ولكن كم من باغندا ومن بلخوجة يعيش بيننا لقمة للوحش الرابض في كلّ ملعب، وكلّ فريق، لا يشبع إذا استبدّت به شهوة الدم واشتدّ قرمه إلى اللّحم؟

مات باغندا... عاش باغندا!

تمّت

المحتويات

شمس الحكاية 5
الذئب الشابّ 41
المركاتو 81
«النيغرو» والغادة الحسناء 117
«الأولتراس» 151
«برومسبور» أولاد الطليانة 191
غروب الحكاية 223
أو التحقيق المستحيل 223

شكري المبخوت

باغندا

بدأت الحكاية على نحو مفاجئ، وانتهت بسرعة دون أن أتمكّن من كشف خفاياها. كان إحساسي بالقهر وتعطّشي لمعرفة الحقيقة قد دفعاني طيلة سنة تقريبا، إضافة إلى عنادي وبحثي عن سبق صحفيّ وأوهامي عن صحافة الاستقصاء، إلى الاشتغال على ملفّ الجوهرة السوداء في تاج كرة القدم التونسيّة «باغندا».

فتحتُ صناديق كنت أجمع فيها أوراقي ومقالاتي ورسائلي فخرج باغندا من تلافيف الذاكرة كالنبتة الشيطانيّة.

وها أنا أسعى إلى ترميم ذاكرتي وإعادة تركيب شتات من حكاية باغندا ولملمة نثار من قضيّة حُكم فيها بإسدال ستار من الصمت عليها وعلى ضحيّتها. فوقتها، أواخر سنة 1987، كانت البلاد تعيش حربا ضَروسا بين سلطة بورقيبة المتهاوية وبين الإسلاميّين الذين توهّموا أنّ السلطة تناديهم وما عليهم إلاّ أن يقبضوا عليها.

واليوم لم يعد أحد يذكر الحكاية أو ربّما لا أحد يريد أن يذكرها.

تصميم الغلاف نجاح طاهر

ISBN 978-9938-886-83-2

9 789938 886832

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

تونس

مكتبة الفكر الجديد
24-11-2016